جولة في ربوع آسيا

بين مصر واليابان

محمد ثابت

جولة في ربوع آسيا

بين مصر واليابان

تأليف
محمد ثابت

هنـــداوي

جولة في ربوع آسيا

محمد ثابت

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: يوسف غازي

الترقيم الدولي: ٦ ٢٢٩٣ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر هذا الكتاب عام ١٩٣٢.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢١.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف مُرَخَّصة بموجب رخصة المشاع الإبداعي: نَسْبُ المُصنَّف، الإصدار ٤,٠. جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي خاضعة للملكية العامة.

المحتويات

مقدمة	٧
الهند	٩
الملايو	٧١
اليابان	٧٩
كوريا	١٥٧
الصين	١٦٧

مقدمة

ها أنا ذا أقدم للوطن المحبوب ولأبنائه المخلصين أولى جولاتي في ربوع الشرق بعد أن تقدمتها «جولتي في ربوع أوروبا»، راجيًا أن أكون قد أصبت بعض الشيء في تفهُّم تلك الشعوب التي تربطنا بها روابط عريقة توثقها العاطفة. وإني لأصوِّرها هنا كما رأتها عين مصرية شرقية غير مغرضة لا تبتغي من وراء ذلك إلا النفع. ولقد حاولت جهدي استقراء عناصر نهوضها وقعودها؛ علَّنا نستنير بطرائقها الموفقة فنهتدي، وعسانا نعتبر بما أصابها، فنأمن العثار الذي يتهدد الأمم في فجر نهوضها وطور انتقالها، ونحن أحوج ما نكون للمُثُل العليا نترسم خطاها — ولنا في اليابان أسوة حسنة؛ فلنسلك نهجها، ولنا في الصين وما يحيط نهوضها من قذًى وشباك أكبر العِبر. سدَّد الله خطانا، وهدى الوطن وأبناءه سبيلًا رشدًا.

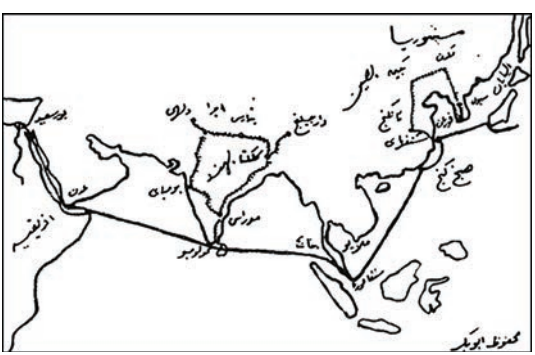

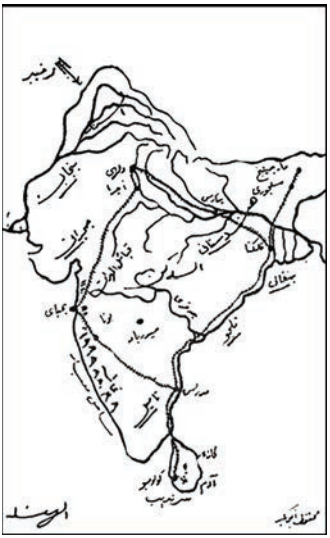

طريقنا إلى الشرق الأقصى يناهز ٨٠٠٠ ميل ذهابًا، ومثلها إيابًا، وإلى اليسار البلاد التي حللناها في الهند وبعض اللغات السائدة وُضع تحتها خط.

الهند

نبذة تاريخية: قصة الهند سلسلة من غارات شنَّها أقوام متعاقبون وفدوا من الشمال الغربي، وبخاصة عن طريق ممر خيبر، وأخضعوا البلاد لسلطانهم.

ويتلخص تاريخ الهند في عصور ثلاثة: عصر الهندوس بين ٢٠٠٠ق.م و١٠٠٠م، العصر الإسلامي بين سنة ١٠٠٠ و١٧٥٧ ميلادية، عصر سيادة الأوروبيين؛ ويبدأ من سنة ١٧٥٧.

العصر الهندوسي: ولا نعرف مبدأه بالضبط، وغاية ما نعرف أن كثيرًا من الشعوب الآريَّة لبثوا يهاجرون من بلاد الفرس وأواسط آسيا، واحتلوا شمال الهند، وأخضعوا السكان الأصليين. ولقد اهتدينا مما ورد في بعض الأساطير Vedic hymns أن هؤلاء كانوا مشتغلين بالزراعة، وأن الرباط العائلي كان ميثاقهم الاجتماعي منذ البداءة، ولم يكن لهم معابد ولا أنصاب. وغاية ما هنالك أن رؤساء الدين منهم كانوا يوقدون النار المقدسة كلٌّ في حظيرته، ويقدِّمون القرابين من أغذية وغيرها لنور آلهتهم؛ اعترافًا بنعمائهم. وكانوا في صلاتهم يتوسلون أن تنصر الآلهة النبلاء الآريِّين على ذوي البشرة السوداء. ومن ذلك نستنتج أن فوارق الألوان والطبقات نشأت في الهند منذ القدم.

ولم يتقدم الآريون في فتحهم إلا في الشمال حتى جبال Vindhya، وقلما تخطوا هذه إلى الدكن؛ حيث كان يقيم جماعة «الدرافيديين» الأشداء الذين كانوا على جانب من الحضارة. أما في حوض الكنج فقد ترعرعت دول كبيرة قامت على أنقاض القبائل المتفرقة. ولما أن فتح الإسكندر الهند سنة ٣٢٦ق.م، وجد أمامه عددًا كبيرًا من الدول والقبائل المستقلة. وكان للملك الذي قهره أدوات حربية وفيلة وخيل ورَجْل.

بعد ذلك قامت دولة قوية في حوض الكنج تحت حكم شندراجوبتا-Chandragupta، وسع ملكها ما بين الشاطئين، ولبثت سيادتها ١٥٠ سنة. ومن بين عواهلها

الإمبراطور الزاهد أسوكا Asoka، الذي قرأنا مراسيمه التي نقشت على الصخور إلى جانب تعاليم جوتاما بوذا، الذي بدأت تعاليمه الخلقية منذ ٢٥٠ سنة. وبفضل هذا الإمبراطور، ساد مذهب بوذا في الهند وانتشر منها إلى الصين. وبعد انحلال الإمبراطورية المورية Mauriyan، أغار السنديون على البنجاب، ولبثت ولاياتهم هناك حتى أعقبتهم أسرة تركية عرفوا بملوك الكوشان Kushan، وهؤلاء فتحوا البلاد إلى بنارس شرقًا.

وفي القرنين الرابع والخامس الميلادي، ساد قبائل الآريين تحت ملوك جوبتا Gupta. وهذا يعد العصر الذهبي للهندوس؛ إذ بعده بدأ يتشتت شملهم بدخول الهون Huns سنة ٤٨٠، وهؤلاء زالت دولتهم تمامًا بعد ٣٠٠ سنة، حين ساد الاضطراب فقام بعض قبائل الراجبوت Rajput وأقاموا لهم دولًا متفرقة حول غالب المدن الهندية الكبرى، على أن التنافس والتنابذ بينهم لم يمكنهم من تكوين جبهة متحدة أمام الفتح الإسلامي الذي بدأ سنة ١٠٠٠ ميلادية.

العصر الإسلامي: لما أن اعتنق سكان وسط آسيا الإسلام، قاموا بدعايتهم الدينية يقتحمون بلاد العالم بما أوتوا من شدة وبأس، ولبثت جموع الترك والأفغان والمغول تُغير على الهند من ممر خيبر، وتقاتل لبسط نفوذها هناك حوالي خمسمائة سنة. وأخيرًا أقام بابر Baber التركي دولة المغول سنة ١٥٢٦، فحكم هؤلاء الملوك الهند حكمًا مطلقًا لمدة ١٨٠ سنة، كانوا خلالها مثال البأس الشديد، وبلغوا من الترف ما أدهش العالم؛ تشهد بذلك مبانيهم الفخمة، وحاشيتهم الفاخرة. وكان عصرهم الذهبي في عهد شاه جهان (١٦٢٧–١٦٥٨). وقد استخدموا الهندوس والراجبوت في الأعمال المدنية — خصوصًا الزراعة — والعسكرية، وبدأت دولتهم تنحل لما أن عجز «أورانجزيب» عن ردِّ قبائل الماهراتا من شعوب الدكن الشرسة. وكاد يعود النفوذ للهندوس حتى باغت الهند جيش فارسي من ممر خيبر وأباد قوى الهندوس.[١]

[١] ملاحظة: نرى أن كل الغارات التي فتحت الهند وفدت عن طريق ممر خيبر؛ أمنع الممارِّ الطبيعية في الدنيا — إذا استثنينا فتوح البرتغال وهولندا وفرنسا وإنجلترا التي جاءت عن طريق البحر — نذكر من بينها فتح الإسكندر سنة ٣٢٦ق.م، الذي خلف في الهند أثر الحضارة الإغريقية، وجنكيز خان؛ وإن لم تتعدَّ فتوحه هناك جهة السند، وتيمورلنك الذي تقدم إلى دلهي. وفي القرن السادس عشر، جاء خلَفُه بابر فأسَّس دولة المغول التي ظلت إلى أن جاء حكم الإنجليز.

العصر الإنجليزي: بينا كان هذا الاضطراب الداخلي سائدًا، تقدم الفتح الأوروبي من البحر فأسس تجار البرتغال وهولندا وفرنسا وإنجلترا لهم محطاتٍ تجاريةً، ثم تأسست شركة الهند الشرقية سنة ١٦٠٠؛ لتزيد الموارد التجارية. وقد مكنت سيادة الأساطيل البريطانية الإنجليز أن يغلبوا منافسيهم. وكان الاضطراب الذي حل بالإمبراطورية المغولية في داخل الهند مبررًا لتدخل الإنجليز تحت ستار متاجرهم، فهزم نواب بنغالة سنة ١٧٥٦، ونواب أودة سنة ١٧٦٤، وبدأت الشركة تباشر السيادة السياسية إلى جانب التجارية؛ كي تحافظ على تلك المقاطعة الشاسعة «بنغالة». ولكثرة مشاغلها السياسية وحروبها تدخل البرلمان الإنجليزي في شئونها، فحفظ لنفسه حق الإدارة والتشريع، وكان للشركة تعيين الحاكم العام. وفي سنة ١٨١٧، خضعت طوائف المهراتا، وفي ١٨٤٥ أمم السيخ، وأعقب ذلك عصيان سنة ١٨٥٦، الذي ضمت على أثره الهند للتاج البريطاني.

إلى عدن وأرض سرنديب

ما وافت الثالثة من مساء الخميس، الرابع من يونيه سنة ١٩٣٢، حتى أقلعت بنا الباخرة اليابانية «سوامارو» تسير الهوينَى وهي تشق مياه قناة السويس جنوبًا. وكانت بين آونة وأخرى تقف منتحية جانبًا؛ لتفسح المجال للبواخر التي كانت وافدة من الجنوب؛ خشية أن يحدث مرور السفينتين معًا تفريغًا في الوسط يدفع بهما إلى التصادم. ولم نصل السويس إلا الخامسة صباحًا، وبعدها أوغلنا في خليج السويس، ولبثنا نجانب الشاطئ المصري. وكانت ذرى جبال سيناء المقدسة ترى فاترة إلى يسارنا. وفي السادسة مساءً، أتينا على آخر الخليج، وأوغلنا في البحر الأحمر الصميم. وكان بدء خليج العقبة يبدو على بعدٍ منا جهة الشرق، وكانت أسراب السمك كبير الحجم تقفز من حولنا. وسرعان ما شعرنا بزيادة محسوسة في درجة الحرارة في الهواء والماء، وظلت تتزايد. ولبثت تهاجمنا جموع الجراد في كثرة مخيفة، رغم أنَّا كنا نبعد عن الصحاري المجاورة بمسافات شاسعة باضطراد في شدة لا تحتمل، حتى تضايقت أنفاسنا ولم نستطع النوم ليلتين كاملتين، وليس في الهواء من نسمة تنعشنا بعض الشيء، بل ظل الهواء طوال أيامنا الأربعة في البحر الأحمر راكدًا خانقًا. وكانت حرارة الماء أشد من حرارة الهواء، خصوصًا عند عودتنا في سبتمبر. وتلك بقية من وهج يونيه حفظتها المياه؛ لأنها رديئة التوصيل للحرارة. ولقد استنجدت بنا سفينة أرهق ركابها الحر حتى أشرفوا على الهلاك؛ لافتقارهم إلى جانب من الثلج. تسلمنا برقيتها اللاسلكية، لكنا لم نستطع معاونتها؛ لحاجتنا نحن إلى ما كان عندنا من جليد.

وأذكر أني ورفاقي كنا نسمي البحر الأحمر على سبيل التفكهة Bloody Sea؛ من شدة ما قاسينا من حر قيظه. وكانت تبدو على بُعدٍ إزاء شواطئه جزيرة صخرية مجدبة يكاد يحرقها لفح الشمس. وفي مساء اليوم الرابع دخلنا بوغاز باب المندب، ومررنا بجزيرة برم الإنجليزية في وسطه، وما كدنا نبرحها داخلين في خليج عدن حتى تنسم الجو وشعرنا بانتعاش كبير، وبعد ذلك بساعات أقبلنا على:

عدن: فرَسَونا في تقوس من البحر تحفُّه الصخور القديمة العاتية من الشيست المهشم في حمرة قاتمة، أو سواد منكر، عريت عن النبت في كل مكان.

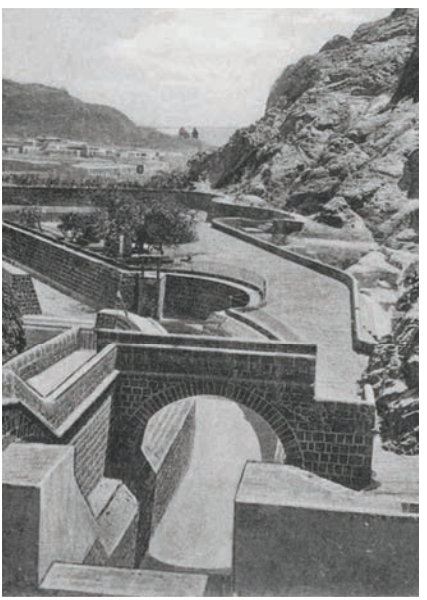

مستودع المياه ذائع الصيت في عدن.

استقللنا الزورق الصغير ونزلنا الشاطئ. وعلى امتداده تقوم الأنزال والمباني الرئيسية، وفي طرفها الجنوبي المعسكرات والمعاقل التي اختير من أجلها المكان، فكان مفتاح البحر الأحمر. وقد أقلَّتنا سيارة عشرة كيلو مترات إلى الحي الوطني المترب القذر، بعد أن اخترقنا

الماء العذب ثمين في عدن المجدبة، وهو يوزع بالعربات ويباع في الحوانيت.

ممرًا بين الرُّبى كأنه النفق، يعلوه سور قديم يمتد بعيدًا. وكان طريقنا يعلو ويهبط بين رُبًى ووهادٍ صحراوية مجدبة. والحي والوطني هو عدن الحقيقية في وهدة أصلها فوهة لبركان خامد. بيوتها واطئة، ومن طابق واحد، وتطلى باللون الأبيض. وفوق المرتفعات رأينا مستودع المياه الذي يمد المدينة كلها، وهو بمرشحاته وأحواضه يشغل مساحة كبيرة، ويطلق عليه القوم «حوض سليمان»؛ ظنًّا منهم أنه قديم يرجع إلى ذاك العهد، وبعضهم يرى أنه بني سنة ألف قبل الميلاد. ولقد أصلح سنة ١٨٥٦، ولما كان المطر هناك نادرًا والماء عظيم القيمة، حافظ القوم على كل قطرة تسقط منه، فيسيل المطر في وديان وأخاديد جافة تؤدي إلى الحوض، وأنت ترى سلسلة من أحواض؛ الواحد فوق الآخر؛ بحيث إذا امتلأ أعلاها فاض الماء إلى الثاني، ثم الثالث وهكذا. ويسع في مجموعه ثمانية ملايين جالون، والحوض الأعلى يتصل بمجموعة من آبار في قرية تبعد عن عدن بسبعة أميال. وقد لا يفي كل ذلك بحاجة المدينة من الماء؛ فيُرشح ماء البحر لسد العجز. وغالب ماء الشرب من تقطير ماء البحر؛ لأنه أنقى وأبعد عن التلويث. وعلى شاطئ البحر مكان الملَّاحات يُرفع ماء البحر بمضخات فيتبخر ويترشح الملح فيستغلونه ويُصدِّرون كثيرًا منه. وكنا نرى على بعد بقايا لسكة حديدية كانت تصل عدن باليمن، لكنها هدمت؛ لأن إمام اليمن أبى عليهم بقاءها. وفي تقوس من البحر ناتئ جهة يسمونها «الشيخ عثمان» غنية بالمزارع، ومن خلفها تبدو جبال اليمن فاترة. وسكان عدن ٣٥ ألفًا غالبهم من العرب بقاماتهم النحيلة، ووجوههم

أمام مدخل عدن. ويبدو السور القديم فوق الربى المجدبة.

الشاحبة، ثم الصوماليون بسحنهم الجميلة في سواد برَّاق، وأنوف شمَّاء، وشفاه رقيقة، ثم يليهم الهنود. ولغة البلد السائدة العربية بتحريف بسيط. ويتكلم غالبهم الإنجليزية. وعدن حماية بريطانية عليها حاكم يتصل بحكومة الهند، ونقودها هي نفس النقود الهندية التي لا تزال تتخذ الفضة قاعدة لها. احتلها الإنجليز سنة ١٨٣٧. ولاحتلالها قصة عجيبة؛ ذلك أن سفينة إنجليزية تحطمت على صخور عدن، فأساء أهلها معاملة من نجوا منها، فأعقب ذلك أن طلبت الحكومة البريطانية شيئًا من الترضية والتعويض من السلطان، فأُجيبت مطالبها، لكن السلطان قد مات وخلفه ابنُه الذي لم يبرَّ بوعد أبيه، فلجأ الإنجليز إلى القوة وفتحوها عنوةً، ووضعوا فيها حامية صغيرة. وزادت أهميتها بعد فتح سكة حديد السويس سنة ١٨٥٨. ولما فتحت قناة السويس سنة ١٨٦٩ أصبحت محطة عسكرية هامة مُذ عدَّت مفتاح البحر الأحمر، خصوصًا بعدما سارعت إنجلترا إلى احتلال جزيرة «برم»

وسط بوغاز باب المندب. وكانت فرنسا تتطلع إليها من قبلُ. وأعقب ذلك احتلال الصومال البريطاني قبالتها؛ لأنه المورد الرئيسي الذي منه تستمد عدن وبرم الصخريتان المجدبتان حاجتهما من الغذاء.

أحد طرق عدن الرئيسية.

لبثت الباخرة طوال النهار تحمل وسقها من الجلود الخام، وأقلعت عند الأصيل، وكلما أوغلت بنا في المحيط الهندي أرغى ماؤه، وعلا موجه كالجبال؛ مما جعلنا نؤمن بعظمة المحيط الذي بدأت تجتاحه الرياح الموسمية دافقة صوب الهند في عنف كبير. ولبثنا في شدته هذه ثمانية أيام حتى أقبلنا على جزيرة سيلان. وكنا من يوم ركوبنا نلاحظ سرعة في اختفاء ضوء الشفق؛ إذ كان الظلام الحالك يرخي سدوله عقب غروب الشمس مباشرةً، شأن سائر البلاد القريبة من خط الاستواء.

جزيرة سرنديب: وفي باكورة اليوم الثاني عشر من مغادرتنا بورسعيد، تجلت كولمبو بمينائها الكبير وقصورها السامقة في أحيائها الأفرنجية، وما إن بدت طلائع الحي الوطني — وهو غالب المدينة — حتى راعنا منظر الناس البشع في مظهرهم القذر، وجسومهم العارية، وألوانهم الشاحبة، ونظراتهم المخيفة؛ فهم يترامون حولك كالدويبات لا تدري من أين يفدون في جماهير لا حصر لها، فكأنهم يحشرون إليك حشرًا في فقر مدقع، وبؤس مبيد، يمسكون بتلابيبك، ملحفين جميعًا في طلب معونتك المادية.

ويزيد منظرهم قبحًا أفواههم المفتحة وكأنهم البلهاء، يمضغون عشبًا أخضر يباع في كل مكان، وبمجرد ملامسته للعاب يبدو وكأنه الدم يلوث أفواههم، ولا ينفكون يمضغونه أينما كانوا.

المرسى الرئيسي في ثغر كولمبو.

وهم يعتقدون أنه مصلح للأسنان، ومسكن للأوجاع، ومكسب للمناعة ضد المرض بين أفراد شعب غذاؤه نباتي شحيح، وشجره يسمى بيتل Betel مقدس لديهم؛ ولذلك فهم يلفون في ورقه النقود والقرابين التي يقدمونها للآلهة منذ القدم. وعند مضغه يضعون داخل الورقة الخضراء فتات بندق اسمه «أريكا»، وفتات الجير من أصداف البحر أو المرجان. وترى حتى النساء والأطفال دائبين على مضغه في مرأًى تعافه الأعين، وتشمئز منه النفوس.

طال تجوالي في تلك الأحياء وأنا أركب الركشا؛ وهي المطية الرئيسية هناك؛ أشبه بعربة صغيرة من عجلتين يجرها رجل بائس. كنتُ أشعر بالألم الشديد من أجله وهو يجري في ذاك الحر القائظ وكأنه الدابة المجهدة. زرت هناك معبدين؛ أحدهما لبوذا؛ أكبر آلهة الجزيرة؛ إذ يدين به غالب السكان، وفيه تصفُّ تماثيل بوذا في أحجام كبيرة، وتزين الجدران صور نعرف منها قصة بوذا منذ كان شخصًا عاديًّا فأضحى أميرًا، ثم صعد إلى السماء فأصبح إلهًا! وعند دخولنا تقدم إلينا بعض القُسس بزهور الفل والياسمين، ملأنا

منها سلة صغيرة دفعنا ثمنها وحملناها إلى قدمي الإله؛ حيث أخذنا ننثرها كما يفعل القسيس الذي كان يرش بين آونة وأخرى جانبًا من ماء الورد يعطر به المكان!

في الطريق الساحر بين كولمبو وكاندي.

أما المعبد الثاني فهندوسي، نظرنا إليه من الخارج؛ إذ لا يُباح للأنجاس من الغرباء عن الدين أمثالنا أن يطئوا داخله، رغم ما كان يلوثه من أقذار، ويحوطه في الخارج من زرافات المتسولين والفقراء والعُراة في أشكالهم القذرة المنفرة.

وخير ما نراه في الأحياء النظيفة من المدينة صخرة لاڤينيا التي تشرف على البحر بتقوسات جذابة، يحفها نخيل النرجيل، ويتوجها نزل فاخر تناولت فيه الشاي ذائع الصيت. وبعد ذلك، قصدت إلى حديقة النبات التي نسقت أيما تنسيق؛ تزينها الفصائل الوفيرة لنبات المناطق الحارة.

إلى كاندي: أقلَّتنا سيارة من كولمبو، واخترقت بنا طريقًا طوله ٧٢ ميلًا صوب كاندي؛ العاصمة القديمة للجزيرة. أما مناظره فساحرة تملك اللب؛ إذ كانت السيارة تسير في ليَّات

الفيلة تمرح خلال الغابات الكثيفة بين كولمبو وكاندي.

عجيبة تصعد خلالها ربًى شاهقة، ثم تهوي وهادًا سحيقة تجري من تحتها الأنهار ذات المساقط والشلالات الرائعة. كل ذلك وسط الأدغال الملتفة والغابات الكثيفة التي تجلت رهبتها في سكونها، وتعدد فصائلها، وتنوع زهورها؛ ولذلك لم نعجب أن عدها بعض القوم أجمل طرق الدنيا قاطبة. وبين آونة وأخرى، كنا نلمح على بُعدٍ فيلة تمرح في فجوات الغابة، أو تغتسل في ماء الغدران، أو تجر أثقالًا وتحمل أعباء تسير بها في غير اكتراث، وأسراب الطير الأخضر لا تدخل تحت حصر، وجموع القردة يداعب بعضها البعض، ويقترب منها الأطفال في روحاتهم إلى المدارس بجسومهم الناحلة العارية، وعيونهم الغائرة البراقة، حتى لقد أشكل علينا الأمر فخلناهم بادئ الأمر من جنس واحد.

وأخص ما استرعى نظرنا من النبت الوفير: الشاي؛ الذي كان يسود مدرجات الجبال من حولنا، وتصفُّ شجيراته في ترتيب جميل كأنها الأقبية الصغيرة في ورقها القاتم النحيل، وهي تحكي شجيرات القطن الصغيرة، والفتيات يقطفن أطرافه الغضة، ثم يقمن بتشذيب الشجر لموسم القطاف الثاني، ثم للثالث. وعجيب أننا لم نلمس في ورقه رائحة للشاي قط؛ ذلك لأنه يتطلب عملية شاقة في إعداده كي يخلو من الرطوبة، ثم يطوى باليد ورقة ورقة، ويبخر في درجة حرارة معينة، وعندئذ تظهر رائحته. وكنا نرى مصانعه مبعثرة وسط مزارعه. وقد دخلتُ أحدها وعلمت منه أن مجموع المساحة المنزرعة في الجزيرة كلها تناهز

شجرة النرجيل تحمل وسقًا ثقيلًا.

اليوم نصف مليون فدان إنجليزي (إيكر). ولقد انتشر أخريات القرن الماضي بعد أن حل محل البن الذي أصابته آفة قضت عليه عند ذاك.

وأشهر نبات الوهاد: الأرز؛ ذاك الذي سويت له جوانب الوهاد في مساطبَ أفقيةٍ يعلو بعضها البعض، ويكاد يغرقه الماء. أما غابات النرجيل فحدِّثْ عنها؛ تملأ الآفاق بشجرها نحيل القامة في ميل إلى المنحدرات دائمًا، وإزاء السواحل يميل نحو الماء، حتى إذا ما سقط حمَلته الأمواج بعيدًا، فإن ألقت به على شاطئ نما، ونشَر بذلك جنسه. وتحمل الأشجار وسقًا ثقيلًا بعضه أصفر اللون، صغير الحجم، والبعض ضخم عظيم الحجم. ونرى القوم هناك يستغلونه استغلالًا عجيبًا؛ فهم يبيعونه أخضر لكي يرتووا بمائه الحلو. وكان يعرضه القوم في المحاطِّ مقابل مليم واحد لكل واحدة، وإذا ما نضج سلخوا عنه قشرته الظاهرة القاسية بطريقة تتطلب جهدًا كبيرًا. ومن اللب يتخذ الزبد لدهان الجسد؛ اتقاء الحر، وطلبًا للبرء من الأمراض، وما بقي يضغط في أقراص تسمى «الكوبرا» أو

النرجيل يزرع في الأرض صفوفًا منظمة.

البسباسة. ولعظيم فائدته كثر السكان حيث يعمُّ شجره؛ فهو مورد لهم رئيسي، وقدرت مساحة غاباته في سيلان ٨٢٠٠٠٠ فدان إنجليزي.

وكانت تسترعي أنظارنا كثرة أنواع الفاكهة التي نجهل أغلبها، من بينها: المانحوستين، الدوريان، البيوا، كثير غيرها. أما الموز فغذاء رئيسي للعامة يعرض في كل مكان حتى في حانوت الحلاقين وعند بائعي الأقمشة، ويعلق أمام الحوانيت في «عراجين» في أحجام مختلفة قد يبلغ الواحد الأمتار طولًا. وهو على أنواع عدة. وكنا نلاحظ القوم يسدون به رمقهم أينما حللنا. أما ثمنه فرخيص جدًّا؛ إذ كنا نبتاع العرجون بنحو قرشين.

وقد بدا لنا في الناحية الجنوبية من الطريق جبل آدم بذروته الشاهقة، وعليها طابع شبيه بالقدم طوله زهاء متر ونصف، وعرضه نحو ثلثي متر؛ يظنه البوذيون طابع قدم بوذا، والهندوس سيڤا، والمسلمون آدم حين طرد من الجنة، ويحج إليه الكثير، ويتسلقون المنحدرات الوعرة ممسكين بسلاسلَ عتيقةٍ، وإذا ما وصلوا هنالك دخلوا المعبد، وقدموا قرابينهم، ونثروا زهورهم، ثم يركع الأطفال ليباركهم آباؤهم وجِباهُهُم تُلامسُ طابع تلك القدم المقدسة!

وقبيل الوصول إلى كاندي، دخلنا حديقة النبات. وتعد من خير حدائق الدنيا؛ حَوَتْ كلَّ فصائل نبات سيلان، وفيها بدأت زراعة الكينا والكاكاو والمطاط، وبها من حقول

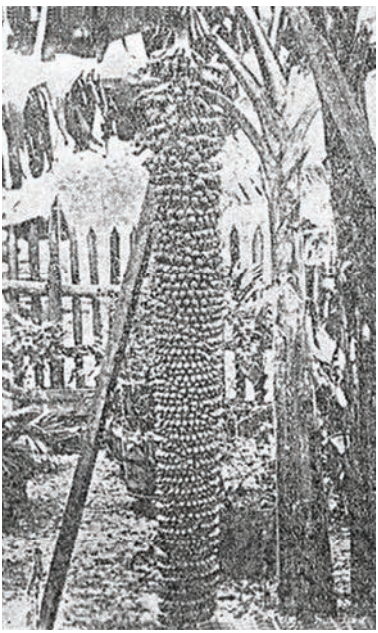

عرجون من الموز يكاد يفوق شجرته طولًا.

التجارب والمشاتل شيء كثير، أخص بالذكر منها مجموعة التوابل، من بينها: جوز الطيب، والفلفل، والقرفة، والوانلا، والزنجبيل. وأخيرًا دخلنا المدينة التي كانت يومًا ما مقر ملوك السنهاليين، وهي تقع في وهدة ارتفاعها ١٦٠٠ قدم، تحوطها الرُّبى التي تكسوها الأدغال والغابات، وتتوسطها بحيرة ممطوطة نسقت شواطئها أيما تنسيق، وفي قلبها جزيرة صغيرة يزينها نخيل النرجيل الأنيق، ويشرف عليها نزل جلسنا فيه وتناولنا الشاي العبق اللذيذ.

ولعل أشهر ما في المدينة معبد «سن بوذا المقدسة»، وهو ممدود الأجنحة، متشعب المقاصير، ويعتقد القوم أن بوذا دُفن فبلي جسمه ولم تبق إلا سن واحدة! أقيم حولها المعبد في القرن الرابع عشر، وأحرقه البرتغال سنة ١٥٦٠، فأبدلها ملك كاندي بقطعة من عاج طولها ثلاث بوصات توضع في صندوق من ذهب، وعليها يقوم تمثال كبير من ذهب

فوق قمة آدم؛ كعبة الحجاج من المسلمين والبوذيين والهندوس!

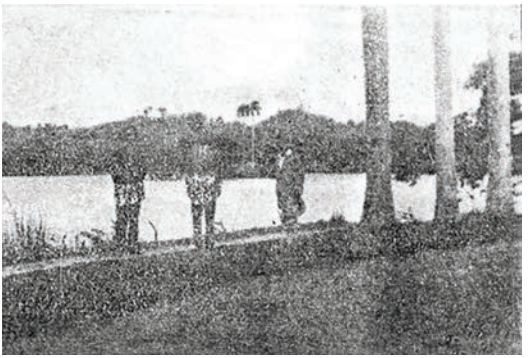

على ضفاف بحيرة كاندي المنسقة.

خالص لبوذا، دخلناه فراعنا منظر الحجاج وهم ركع وسجود تدر الدموع من مآقيهم، وتلمس أيديهم أقدام الإله وقد كدِّست حولها وريقات الياسمين في رائحة جميلة! وبعد أن ابتاع كلٌّ منا سلَّة الياسمين، تسلَّمها القسيس فنثرها عند تمثال الإله. ومما زاد المكان رهبةً الطبول المزعجة التي كان يقرعها القوم في ردهة المكان. ودخلنا مكتبة المعبد التي

حوتْ جميع تعاليم بوذا؛ يُكتب غالبها على شرائح بيضاء من لفائف نباتية ناعمة الملمس كأنها ورق البردي؛ يُلف غالبها بالحرير تحوطه أسلاك الذهب وقضبان الفضة، ويقال: إن المعبد أجل معابد بوذا وأكبرها على الإطلاق. وفي أغسطس، تقام حفلة بيراهيرا حين تحمل السن المقدسة على هودج من حرير مُرصَّع تغطيه قبة من ذهب فوق ظهر فيل يبالغون في تزيينه، يتبعه قطار من ٦٢ فيلًا أخرى، وتفرش له الأقمشة لكيلا يُدنِّس وحلُ الطريق طهارةَ ما يحمله. والديانة البوذية هي السائدة هناك.

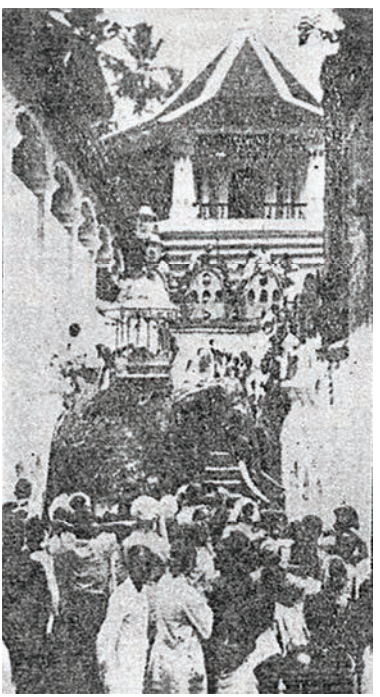

معبد «السن المقدسة». وترى الفيل المقدس يحمل السن تغطيها مظلة من ذهب.

إلى الهند: قمت من محطة كولمبو صوب شمال الجزيرة، ولبث القطار زهاء ١٢ ساعة يسير في أراضٍ جبلية كثيرة النبت. ولما أن قاربنا الطرف الشمالي للجزيرة، انفسحت سهول جافة رملية. وكنا نرى أحواضًا كبيرة يدَّخر فيها القوم الماء فيرتوي منه أهل القرى طوال

عروس سنهالية صغيرة في كامل زينتها، وتقرأ في وجهها الملامح العربية.

العام. ويبلغ عددها اليوم ٥٢٠٠، تقوم بإصلاحها مصلحة الأشغال، وكثير منها يرجع إلى العصور القديمة تحت شعوب «السنهاليين» جنوبًا، «والتاميل» شمالًا؛ وهما الشعبان السائدان في الجزيرة، ولكلٍّ لغته الخاصة. وفي البلاد أقلية من العرب المسلمين بيدهم غالب التجارة؛ فهم هناك أشبه باليونانيين عندنا في نشاطهم. وأخيرًا بدأ البحر، وعبر القطار قنطرة طويلة إلى جزيرة «مانار». وهناك غادرنا القطار، وحللنا السابحة التي سارت بنا في بحرٍ غابت عنا سواحله ساعتين، وكنا نُجانب جسر آدم؛ وهو مكان ضحل من البحر ترغي عنده الأمواج وكأنه الجسر. وهنا أقبل رجال الجمارك وفتشوا حقائبنا. ودهشت لما علمتُ أن سيلان ليست تابعة لحكومة الهند، بل لوزارة المستعمرات مباشرةً، فلها حكومتها وجماركها وقوانينها الخاصة بها.

ولقد هالني وأنا في السفينة تَعَدُّدُ السِّحن والألوان والأزياء، وقد عددتُ من الأزياء نحو الثلاثين؛ فالبعض يلف نصفه الأسفل بملاءة ملونة، والبعض يشحذها من تحت الفخذين، والبعض يرتدي سراويلَ، وآخرون عرايا يسترون العورات فحسب، وهكذا.

وقد راقني منظر غني خلته سيدة بادئ ذي بدء؛ لأنه كان يتدثر بملاءة بيضاء فضفاضة، ويتزين بالخواتم الثقيلة في جميع الأصابع، وفي يديه السوار العريض، وفي آذانه قرط لامع، وفي رقبته عقد خاطف. وكان يتهادى في مشيته وكأنه الحسناء، ويحاول الجميع التزيُّن ما استطاعوا رجالًا ونساءً. وتزيد زينة النساء بلبس الخواتم في أصابع القدم كلها، وبوضع قطعة من فضة في جانب الشفة، وأخرى في جانب الأنف. ولقد رأيت إحدى السيدات الغنيات تسير عارية القدم ومن حولها الخدم حتى ركبت عربتها الخاصة. ولقد تعبت جدًّا في البحث عن مساح للأحذية، فلم أجد رغم كثرة أبناء السبيل والعاطلين. والنساء سافرات، وليس في وجوههن مسحة من جمال، وتتنوع أزياؤهن، لكن غالبهن يتركن الجزء الأعلى من الجسم عاريًا. أما الأقدام فعارية على الدوام.

الهند

إلى مدراس: وصلنا أرض الهند وانتقلنا إلى قطار آخر سار بنا في سهول رملية كأنها الصحراء، غالبها مهمل عارٍ عن النبت. وكلما قاربنا مدراس زاد الخصب نوعًا. وبعد ٢٤ ساعة، دخلنا مدراس فبدت مدينة مقبضة ليس بها ما يروق السائح، فغالب أحيائها قذر منفر. أما أحياؤها الإفرنجية فلا بأس بها. ومن بين مبانيها الفاخرة: القلعة التي تشرف على البحر بشواطئه الرملية التي لا تصلح لإيواء السفن؛ لذلك لم يكن لمينائها شأن كبير في التجارة. وعلى امتداد طريق البحر قسم اسمه «مارينا» مستحدث التنسيق، يقوم فيه كثير من تماثيل أعاظم الإنجليز، وأجلُّ أبنيته قصرُ نواب مدراس؛ الذي احتله الإنجليز، وهو في هندسة خليط من المغولية والعربية، وبجانبه مسجد صغير أنيق. والقصر اليوم خاص باجتماع مجلس السناتو.

ومن الأبنية الجديرة بالذكر: قصر الحاكم الإنجليزي، ودار القضاء، والبريد، والبلدية، وكلها بالآجر الأحمر. ولقد كدت أختنق في هذه المدينة من شدة الحر، وكثرة الرطوبة؛ فقد بلغت الحرارة ١١٥ف. وأذكر أنني دخلت أكبر متنزهاتها فلم أستطع التجول خطوة واحدة، بل ركبت الركشا التي طافت بي كل أرجاء المتنزه. وفي جانب منه حديقة للحيوان حقيرة جدًّا لا يسترعي النظر بها إلا مجموعة الأفاعي. وفي المدينة متحف صغير به بعض

المخلفات الهندوسية القديمة، أعجبُها في نظري «عامود الضحايا البشرية». وكان السحرة يحكمون بتضحية فرد يوثق إلى هذا العامود الذي يدور حول نفسه، فيهجم عليه الجمع ويقطعون من جسمه أشلاء يدفنونها في حقولهم التي أصابها المحل. وقد حرم القانون ذلك اليوم، واستبدل بالضحايا البشرية بعض الحيوان، على أنهم كثيرًا ما يُضحُّون بالإنسان خلسةً.

ولقد استرعى نظري كثرة العلامات التي يخطها القوم على جباههم؛ تمييزًا لشيعهم ومذاهبهم الدينية المختلفة. والعادة أن ترسم هذه بنوع من الرماد المقدس يحمله الناس معهم، فترى التخطيط أفقيًّا أو رأسيًّا، ومزدوجًا أو مضاعفًا، وقد تتخلله نقط حمراء؛ مما يزيد في أشكالهم قبحًا.

والمغالي في تدينه يلطخ وجهه وصدره وذراعيه، فتصوَّرْ مبلغ فظاعته إذا ما أقبل عليك وحدق فيك بعيونه الغائرة، وجسمه الناحل الهزيل، ولونه الأسود البراق، على أنني لم أعجب مذ علمت أن مقاطعة مدراس معقل الدين البرهمي؛ فسكانها ٤١ مليونًا يدين غالبهم بتلك العقيدة، وعدد القسس من البراهما في هذه المقاطعة وحدها مليون ونصف، يعيشون عالة على غيرهم يتقاضون ضرائب من الناس جميعًا في مناسبات شتى من بينها: ميلاد الطفل؛ مخافة ألا يطول عمره، عندما تكون سنه ١٦ يومًا، حين يغتسل بالماء المقدس، عند تسميته، عند حلق شعره، في تمام الشهر الثالث، عند بدء تناوله للطعام في الشهر السادس، عندما يبدأ المشي، عند تمام السنة، في نهاية السابعة حين يبدأ تعليمه. وهنا يكتب له البراهما بالذهب على عصوين يمسك بهما في يديه، ثم يأخذهما فيما بعد لنفسه. عند عقد الزواج. وهنا تدفع له مبالغ طائلة. وعند بلوغ سن الرشد، عند حدوث خسوف أو كسوف، عند الموت حين يحضر ليبارك الجثة، عند حرق الجثة. بعد ذلك يولم ابن المتوفى للبرهما وليمة كل شهر لمدة عام، وتقدم الهدايا والملابس إلى جانب الطعام. بعد ذلك، يكرر هذا مرة كل سنة حتى يموت الابن. كل تلك حقوق للبرهما واجبة الأداء وإلا خسر الجنة. هكذا كانت قصة هندي متعلم، وكان يرويها وهو فخور بدينه!

نظام الزواج: ومما أثار اهتمامي الزوجات الصغيرات اللاتي كن يحملن أطفالًا نحالًا لا يزيد وزن الواحد على أربعة أرطال أو خمسة، وكنت إخالهن يحملن إخوتهن لا أبناءهن، لكني دهشت لما علمت أن زواج البنت يبدأ من سن الثامنة، فإن تأخرت إلى الثانية عشرة عُدَّ بقاؤها عارًا لا يُمحى، ودلَّ على وجود عيب فيها؛ ولذلك لم يكن عجيبًا ما يبدو من جسمها الضئيل وبنيتها الضعيفة؛ لصغر سنها من جهة، ولأنها من سلالة ضعيفة مثلها. أما الزوج فقد يكون طفلًا مثلها، وقد يكون كهلًا أنهكت السنون قواه. وفي الحالين هو

زعيم برهمي يستجدي وهو يعزف على قيثارته وقد لطخ جسمه بالتراب المقدس.

غير صالح إلا لإنتاج نسل بائس ضعيف. وهَمُّ الزوجين أن يخلفوا من الأبناء ما استطاعوا، وبخاصةٍ الذكور؛ لذلك فإن الأم لا تجد لها حديثًا أمام أطفالها إلا ما يتعلق بالزواج، فتنشط بذلك الميول الجنسية بين الأطفال، وتفسد أخلاقهم عاجلًا. وهذا يخلف أثره السيئ في قوى النشء العقلية والجسمية. والزواج المبكر عند الهندوس واجب؛ لأن فيه عصمة من الأمراض، وتعجيلًا بالخلف من الذكور؛ ذاك الذي يعده الآباء شرف العائلة. وقد نسي القوم الأثر السيئ لذلك في إضعاف الذرية، وإنهاك القوى الحيوية؛ ولذلك ليس بعجيب أن ترى الهندي فاقدًا لتلك القوى عند بلوغه الثلاثين، كما أثبت الإحصاء الطبي ذلك؛ ولهذا لجأ الكل إلى تناول سموم المخدرات — خصوصًا الحشيش والأفيون — والمقويات التي يعلن عنها في جميع جرائدهم بشكل فاضح مخجل، حتى إن الحكومة كثيرًا ما تصادر بعض الجرائد؛ لجرأتها على هذا النوع من الإعلان. وكثيرًا ما كنت أرى من المدمنين على تناول الأفيون والحشيش يركنون إلى الجدران في كل مكان بشكل قذر خامل وكأنهن الذباب.

وكثير من النساء هناك عقيمات، وقد أيد البحث أن ذلك راجع إلى ضعف قوى الرجال من جهة، وإلى تشويه الرحم من أثر الزواج المبكر من جهة أخرى. وكثيرًا ما يلجأ الرجال إلى المعابد، فيرسلون إليها زوجاتهم بالقرابين كي يمنَّ الله عليهن بالحمل! وفي العادة

البرهميون وأفانينهم في الاستجداء على قارعة الطريق.

تظل المرأة هناك أيامًا، فينوب القسيس عن الآلهة ليلًا، فيبارك المرأة وتعود وهي حامل! ولعل أسوأ نتائج هذا الزواج المبكر تقصير العمر، خصوصًا بين النساء، وكثرة الموتى من الأطفال؛ فمتوسط العمر في بلاد الهند ٢٣ سنة، ويموت من الزوجات في كل جيل ٣¼ ملايين، تسعون في المائة منهن بسبب التهاب الرحم.

ومن العادات العجيبة أن الآباء قد يهبون المولود القادم للآلهة؛ ابتغاء مرضاتها، فإذا كانت أنثى سُلِّمت لنساء المعبد، وإذا شبَّت عُلمت الغناء والرقص، وإذا ناهزت الثامنة أضحت خليلة أحد القُسس، وإذا ملَّها أضحت راقصة المعبد. وفي مواسم الحج يستأجرها بعض الحجاج، فإذا ما ذبلت محاسنها يمنحها المعبد جعلًا صغيرًا وتترك المعبد. ولا يرى أهلها في كل ذلك معرَّة؛ لأنها اكتسبت اسم عاهرة الإله Devadassis، وهؤلاء من مستلزمات المعابد كلها.

الزوج العملاق إلى جانب زوجته ولم تبلغ سنها العاشرة.

ويوصي الدين البرهمي بأن الزوج إله الزوجة في الأرض؛ خلقت لسروره، وخضعت له، مهما فسد جسمه أو خلقه أو عقله، ولا بد أن تطيع حماتها. ويا ويلها منها إن لم تعقب طفلًا، أو عقبت أنثى! فلها أن تستعبدها عندئذ؛ لذلك كان عدد المنتحرات بين سن ١٤ و١٩ مروعًا. وإذا مات زوجها حتَّم الدين أن تُحرق جثتها معه Suttee، وإلا كانت موضع اللعنات، ولم يبح لها شيء من السرور، ولا تتزوج ثانيةً، بل تحلق رأسها وتقصد أحد المعابد لتظل فيه أيامها الباقية. ويجب ألا تظهر كثيرًا أمام الناس لكيلا يؤثر فيهم نحس طالعها! وفي إحصاء سنة ١٩٢٥، بلغ عدد الأرامل في الهند ٢٦٨٤٣٨٣٨!

الوضع: وبمجرد شعور الحامل بألم الوضع تُنبذ في غرفة ضيقة مظلمة، ولا يقترب أحد منها قط؛ لأنها أصبحت نجسة! وفي الحال تأتي المولِّدة (داية) — وهي من الطبقات النجسة البائسة — فترتدي أقذر أسمالها، وتسد المنافذ، وتحرق الحطب؛ لأن الدخان

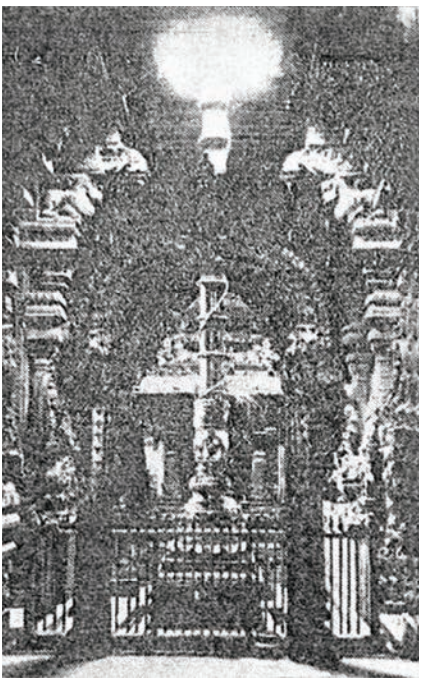

المحراب الرئيسي في المعابد الهندسية.

والحرارة يساعدان على سرعة الوضع، وإذا دخل الحجرة غريب أحرقت بخورًا منتن الرائحة؛ لمنع أثر العين الخبيثة! وتباشر عمليتها بأيديها القذرة، وتحاول إخراج المولود بالقوة، فتشبع بطن الأم لكمًا بالأيدي والرأس! وقد تطرحها أرضًا وتمشي على بطنها! وتضع في الرحم كرات من مواد حريفة، وقطعًا من شعر الماعز، وأذناب العقارب، وجلود الأفاعي وما إليها! وإذا تم الوضع لا تجرؤ المولِّدة أن تقطع الحبل السري؛ لأنه من عمل امرأة أخرى أحط درجة من المولِّدة! فتنتظرها حتى تجيء. أما الطعام فيمنع بتاتًا عن الأم بين أربعة أيام وسبعة. ويظهر أن السبب الأصلي ألا تصاب أواني المنزل برجس!

وكثيرًا ما تتعسر الولادة بسبب ضيق عظام الرحم نتيجة الزواج المبكر، فتموت الأم، فإذا رجحت المولدة موتها عجلت بتكحيل عيونها بمسحوق الفلفل لكي تُعمي الروح فلا

تستطيع الخروج والمكث في الدار. وقد تمد ذراعيها وتدق مسمارًا يثبتهما في الأرض؛ لكيلا تستطيع الروح التجول في المنزل ومضايقة الأحياء!

إلى كلكتا: قمت من مدراس — تلك البلدة التي أحمل لها أسوأ الذكريات — صوب كلكتا، فاخترق القطار قنطرة على نهر جودڤري، طولها زهاء خمسة كيلو مترات، تحتها نهر لا يكاد يجري له ماء إلا في نقائع بينها جزائر رملية، وكان وقتئذ في زمن غيضه. ويظهر أن النهر هو الحد الفاصل بين جنوب الهند وشمالها؛ لأني لاحظت تغييرًا في كل شيء في سحن الناس التي بدأت تتحسن قليلًا، وفي أزيائهم التي بدأت أتلمس في ألوانها بعض الذوق، وفي المناظر التي بدأت تزداد ثروةً وخصبًا، وفي النشاط النسبي الذي بدا على القوم في حقولهم؛ إذ كنت أراهم يعدونها لاستقبال الأمطار الموسمية. وكان أكثر النشاط من جانب النساء. أما غالب الرجال فكنت أراهم مستلقين على الأرض نيامًا. ويتجلى كسلهم في عدم اهتمامهم باستغلال أرضهم إلا مرة واحدة عقب المطر.

أما نظم الري بقنواتها ومساقيها، فلا تكاد توجد رغم ما نعرفه من الخصب الشديد في التربة الهندية. أخذت المسايل المائية والجداول العديدة تزداد كثرةً كلما تقدمنا شمالًا، إلى ذلك تعدد القرى التي لم نر منها في الجنوب إلا القليل. ثم دخلنا مقاطعة بنغالة — أهم المقاطعات وأزحمها سكانًا؛ إذ بلغ أهلوها ٤٧ مليونًا — وهنا زادت الأدغال والأحراش في كل مكان، وتوافر النبت، وكثرت الغدران والنقائع كثرة تلفت النظر، على أنا لم نعجب مذ علمنا أننا نتقدم إلى دلتا الكنج العظيمة.

أما القرى الكثيرة التي يزيد عددها في الهند البريطانية على نصف مليون، فكانت تبدو بيوتها مقامة من طابق واحد بني بالطين الذي يستمده القوم من حفرة يملؤها المطر، فتصبح مستمدهم من الماء ومستحمهم ومسقاهم هم وماشيتهم، وتحيطها البيوت القليلة. والبيت يبدو في شكل مستدير حقير يعلوه سقف مخروطي تكسوه الأخصاص من مختلف النبت، خصوصًا سعف نخيل «بالميرا». وتهوية البيوت فاسدة يقطنها عدد كبير، ويزيد الجو وخمًا ووباءً ما يتربى على البرك من الباعوض الذي يحمل مختلف الأمراض. وقد كنت أوجس خيفةً طوال تجوالي في مدراس وبنغالة كلما ذكرت أن هذا الجزء — وبخاصة بنغالة السفلى — أكبر مربى للأوبئة الخطيرة؛ كالملاريا والكوليرا والطاعون؛ تلك التي يموت بسببها عدد مخيف بين سنة وأخرى. أذكر أن من ماتوا هناك بالطاعون منذ سنة ١٨٩٦ أحد عشر مليونًا. ويساعد على انتشاره هناك تحريم الدين البراهمي قتل الفيران؛ التي تحمل البراغيث المعدية. ويموت بالملاريا سنويًّا مليون. كذلك مرض الدودة الخطافية — كالأنكلستوما هنا — المتفشي بسبب سيرهم حفاة الأقدام، حسبما تقضي التعاليم البرهمية!

وقد دلَّ الإحصاء أن ٨٠٪ من سكان مديرية مدراس، و٦٠٪ من بنغالة مصابون به؛ أعني نحو ٤٥ مليونًا من الناس. والديدان تحل الأمعاء، وتمتص الغذاء والدم، فيضعف إنتاج الشخص كثيرًا؛ حتى قدرت الخسائر المالية بسبب عجز هؤلاء عن العمل بنحو ٤٠٠ مليون جنيه.

فالهند في نظر العالم أكبر خطر لنشر تلك الأمراض، ويرى الأطباء أن أهلها قد اكتسبوا شبه مناعة لطول مكثهم في ذاك الجو الوبيء، لكنهم جميعًا حملة الأمراض للغير. وهنا الطامة الكبرى. أما من يموت من الهنود في كل عام فسبعة ملايين؛ أي بقدر نصف سكان القطر المصري، وعدد الموتى من الهندوس أكثر منهم في المذاهب الأخرى؛ مما يثبت قلة مقاومتهم للمرض. وهذا لا شك ناشئ من افتقارهم للتغذية؛ لأنهم نباتيون ويحرمون أكل اللحوم. ومما زاد خطر الأمراض وفتكها هناك تشككهم في الدواء الأوروبي؛ مخافة احتوائه على مستخرجات اللحوم المحرمة. وهم يعتقدون أن المرض أثر من آثار الجن التي يجب طردها بالبخور وتقديم القرابين.

روى لي شاب هندي متعلم قصة إخراج العفريت من جسم الطفل المريض، فقال: إن القوم يلجئون إلى قرد يعلق موثوقًا إلى فرع شجرة، وينزلون عليه ضربًا وتعذيبًا، فيجن القرد ويصيح صيحات مزعجة، وعندئذ يحمل الطفل قريبًا منه كي تذعر عفاريت المرض التي في جوفه وتولي الأدبار!

إلى ذلك خطر روث البقر الذي تضمد به الجراح في كثير من الجهات!

كلكتا: دخلنا كلكتا بعد سفر ٣٨ ساعة متواصلة، واسم المدينة مشتق من كلمتين: قالي (اسم الإلهة زوج سيڤا)، غات (مرسى أو مدرج)، وقيل: إنه مشتق من «جُلجوتا»، ومعناه مكان الجماجم، فهي مقر الحميات وبخاصة الملاريا؛ لكثرة المناقع حولها، ولفساد الحالة الصحية في مساكنها التي ضاقت بأهلها، بحيث يقطن الغرفة الواحدة المختنقة في المتوسط شخصان، على أنها رغم ذلك تعد العاصمة الاقتصادية لبلاد الهند؛ فهي ثانية مدن الإمبراطورية البريطانية، سكانها فوق مليون وربع، وهي عاصمة بنغالة؛ أغنى المقاطعات بالإنتاج — خصوصًا اليوت والأرز — وأكثفها سكانًا؛ فهم يبلغون ٤٧½ مليونًا — أعني ثلاث مرات ونصف قدر مجموع القطر المصري — نصفهم من الهندوس، والنصف من المسلمين. ولا يكاد يفرق المرء في الشكل بين الجميع. ويزيد تجانسهم أنهم جميعًا يتكلمون اللغة الهندستانية، التي يخالها البعض اللغة القومية للهند؛ لأنها أكثر اللغات ذيوعًا؛ إذ يتكلمها خمسون مليونًا.

حللتُ المدينة فراعني سيلُ الناس الدافق في كل الأرجاء. ولقد كان القوم يفترشون أرض محطة السكة الحديدية على اتساعها العظيم الذي يقرب من اتساع ميدان محطة مصر، فلم أشق طريقي بينهم إلا بجهد كبير. والقذارة تبدو في كل مكان، والروائح المنتنة تتصاعد بدرجة منفرة. وقد عبرت قنطرة «هوارة» على الهوجلي؛ وهي في عرض قناطر النيل عندنا، على أنها أقيمت من الخشب ترفعه عوامات تطفو فوق الماء بدل القوائم الحجرية عندنا؛ لذلك كانت كل جوانب القنطرة في حركة مستمرة حسب مدِّ الماء وجزره. ولقد وقفت هنا برهةً فكاد يكتسحني سيل المارة الذي لم أَدْرِ مصدرَه، فقصدت من فوري جانب المدينة الممتاز المسمى «الميدان»، وهو متسع عظيم ذرعُه ميلان في ميلين، تطل عليه المباني الفاخرة، وتتوسطه المتنزهات المتسعة المترامية، تقوم في أرجائها تماثيل سامقة لعظماء الإنجليز، وأجدر المباني بالذكر دار الحاكم العام، التي تبدو في جلال وعظمة، يقابلها من الجانب الآخر أثر فكتوريا؛ أقيم من الرخام الأبيض في عظمة تُبهر النَّظر من عمد وأبهاء وبوائك ودهاليز، وتعلو فناءه الرئيسي قبة كبرى. وهنا ترى تماثيل عظماء الإنجليز الذين اشتركوا في فتح الهند، وفي طليعتهم «كليف»، وأمامه المدافع التي غنمها من الفرنسيين وغيرهم في واقعة «بلاسي»، وترى بعض الصور الزيتية الكبرى لملوك إنجلترا. إلى ذلك ترى بعض ملابس الملكة فكتوريا ومكاتبها ومخلفاتها الذهبية، وكذلك جميع الوثائق الرسمية التي تبودلت بين الحكومة الإنجليزية وأمراء الهند منذ فتح البلاد إلى اليوم. وفي خارج البناء حديقة نسقت أيما تنسيق، يُزيِّنها تمثال فكتوريا. ولقد أقيم هذا الأثر تذكارًا لتولي فكتوريا أول إمبراطورة للهند، واشترك في إقامته كبراء الإنجليز والهنود، وبلغت أكلافه خمسة ملايين من الجنيهات. وقد وضع حجره الأساسي جورج الخامس سنة ١٩٠٦، وتم سنة ١٩٢١. وفي جانب من الميدان القلعة، وتسمى فورت وليم على اسم وليم الثالث. وتقوم دار البريد الفاخرة اليوم في مكانها القديم، بعد أن نقلها «كليف» إلى مقرها الحالي؛ وهو أكثر منعة وقوة. وإلى جانب دار البريد يقوم نصب أبيض دقيق في مكان الجحر الأسود، وقد كتب عليه اللورد كرزون أسماء بعض من ماتوا فيه؛ إحياءً لِذِكْرهم. وقد كان هذا الجحر سجنًا من سجون سراج الدولة نواب بنغالة، زج فيه ١٤٦ جنديًّا يوم ٢ يونيه سنة ١٧٥٦، فاختنقوا في ليلة واحدة، ولم يبقَ منهم في الصباح سوى ٢٣؛ وذلك لضيقه — ١٤ × ٢٢ قدمًا — وقلة نوافذه، فأهاج ذلك غضب الشعب الإنجليزي وهبَّ ينتقم لهؤلاء. وكان هذا الحادث خير حافز للإنجليز أن يبسطوا نفوذهم هناك.

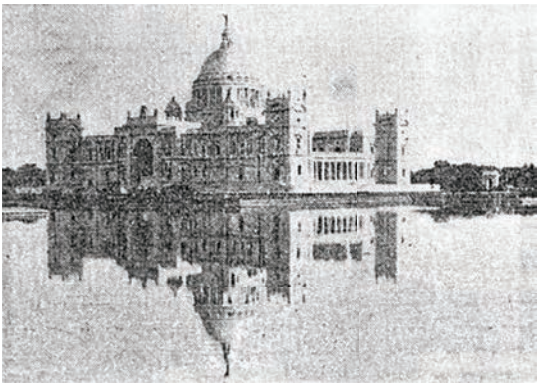

البناء التذكاري للملكة فكتوريا يزيِّن جانب «الميدان».

وفي ركن من الميدان حديقة Eden، على اسم سيدة كانت تملكها ثم أهدتها للحكومة، وهي آية في الإبداع تشقها مسايل الماء، وتتخللها النقائع والمقاصير التي يبدو بعضها في هندسة «الباجودا» الصينية، وعلى مقربة منها حديقة النبات، وبها مجموعة قيمة من النبات، وبخاصة فصيلة النخيل. ولعل أشهر ما بها شجرة banyan؛ أكبر أشجار الدنيا؛ عمرها ١٥٥ سنة، ومحيط جذعها الرئيسي ٤٤ قدمًا، ولها فوق ٦٠٠ جذر هوائي، تشغل حيزًا ذرعُ محيطه ١٠٠٠ قدم، ومنها أخذتْ جميع حدائق الدنيا الشيء الكثير، وفيها جرب الشاي ثم نقل إلى الهملايا وأسام.

ومن الأبنية الفاخرة دار الجامعة التي يبلغ عدد طلابها ٢٦ ألفًا. وهذا العدد يفوق جميع طلاب جامعات إنجلترا مجتمعة، وقد اتخذت جامعة لندن نموذجًا لها، على أنها كانت مُعطَّلة عند ذاك. وقد قابلت أستاذين من أساتذتها الإنجليز، وتحادثنا بشأنها طويلًا، وعلمتُ منهما أن موسم الدراسة لا يُعين بدؤه إلا عند بدء نزول الأمطار؛ تلك التي يخفف نزولها من هجير الحر. ولقد تأخر افتتاحها هذا العام لتخلُّف المطر نحو أسبوعين عن ميعاده المعتاد.

قمت بجولة في الأحياء الوطنية المترامية، فكنت أشق طريقي في جو وخمٍ، ووسط منفر قذر، تترامى الأكاديس الآدمية بجانب الجدران وهم عرايا، وفي بؤس مبيد، يبصقون في كل

أمام النصب التذكاري الذي أقيم في موضع «الجحر الأسود» في كلكتا.

مكان، ويبولون على جوانب الطرق حيث أقيمت المجاري لتصرف ماء المطر عنهم. وأخيرًا أدَّى بي التجوال إلى معبد قالي؛ وهي زوج سيڤا؛ إله التدمير وسفك الدماء. وفي أقاصيصهم أنها قطعت إربًا بأمر الآلهة، فسقط إصبع لها في هذا المكان. وفي قرار المعبد الذي لا يدخله إلا أتقياء الهندوس تقوم الإلهة في تمثال يُزين جيده عقد من جماجم بشرية، وبيدها رأس آدمية دامية، وفي الأخرى سيف، وهي تطأ أجسادًا آدمية، ولها لسان أحمر بارز، ونطاق من أيد وألسن بشرية. بدا لنا ذلك ونحن نطل من خارج المعبد. وقد علمنا أن لتلك الإلهة معابد عدة في أرجاء الهند، لها أوقافها الغنية، ويحج إليها جماهير الهندوس يسجدون ووجوههم إلى الأرض تحت أقدامها، والقسس يرتلون أقاصيص عن «قالي». وكانت تقدم الذبائح لها من أجساد بشرية، لكنها أُبدلت اليوم بالجديان. أذكر موقفي أمام المعبد وقد أمسك القسيس بالجدي وطرحه أرضًا، وسرعان ما تقدم رفيقه ففصل رأس الحيوان

بسيفه بضربة واحدة سال على أثرها الدم تحت أقدام الإلهة، وصاح القسس منادين «قالي قالي قالي» مرات عدة. وهنا أسرع بعض النسوة إلى الأرض يلعقن الدم كي يمنَّ الله عليهن بمولود، والبعض أخذ يبلل منه خرقًا يضمها إلى صدره العاري. وعلمنا أن عدد الذبائح تتراوح بين ١٥٠ و٢٠٠ في اليوم.

وفي مقاصير المعابد وأزقتها يصطف جماهير من الأولياء في أشكال قذرة منفرة، وجسوم ممتلئة عارية، ولحى ورءوس كثة يَعاف المرء النظر إليها، وكلهم من المتسولين. وفي ناحية أخرى من المعبد محرق الجثث؛ وهو بسيط من الأرض تتوسطه وهدة مستطيلة في شكل الجسم، ويبطن أسفلها بالخشب. وكنا نرى إلى جانبه جثة سيدة لا بأس بملامحها، وقد خضبت قدماها ويداها وجبهتها بالحناء، ودثرت رداء أحمر، وعلمنا أن هذا دليل على سعد طالعها؛ إذ ماتت قبل زوجها ولم تصبح أرملة بائسة، وكان يحوطها جمع من أقربائها، وبعض النائحات المأجورات، وجمهرة من المتسولين، وسرعان ما حملت الجثة ووضعت على الحطب، وكدِّس فوقها حطام الخشب. وهنا تقدم أقرب الناس إليها، وكان ابنها، وأمسك بشعلة وطاف حولها سبع مرات، ثم ألقى الشعلة على كومة الحطب، فالتهمت كل شيء ما خلا جزءًا من عظمة القص، وتلك التقطها بعض القسس ووضعها في كرة من طين إلى جانب قطعة من ذهب يقدمها أهل الفقيدة، وألقاها القسس في النهر أسفل المكان.

وهنا كنا نرى جماهير الناس يغتسلون في مائه؛ ليطهروا من ذنوبهم، وكان بعضهم يغترف من الطين ويفحصه؛ عله يعثر على بعض القطع الذهبية التي تلقى في النهر مع بقايا الموتى، ومن الناس من يغسل الجديان قبل تقديمها للآلهة، ومنهم من يملأ أواني من ماء النهر المقدس؛ ليُصبَّه على قدمي «قالي» داخل المعبد، فيسيل إلى عين يتلقف الماء منها جمهور الزائرين ويحتسونه تبركًا على ما به من أوضار، وهم يؤثرونه على ماء النهر؛ لأن أقدام الآلهة قد زادته طهرًا. ومما زاد المنظر قذارة أن غالب عباد سيڤا وقالي من الطبقات الفقيرة. أما الأغنياء فإلههم «ڤشنو»، وله معابده الخاصة!

إلى دار جيلنج: قمنا بعد الغروب فوصلناها ظهر اليوم التالي — ومعنى دار جيلنج مقر الصواعق — ولبثنا الليل كله نخترق سهول شرق بنغالة كثيرة المناقع، كثيفة العشب الزاحف، الذي يكافحه القوم في جهد شديد؛ ليفسحوا مجالًا للغلتين الرئيسيتين: الأرز، اليوت. والشجر لا ينقطع، وأظهره المانجو والنخيل والبامبو. وقد عبرنا الكنج بقنطرة «سارا» الهائلة، التي تعد من الأعمال الهندسية الجليلة، وقبل أن نصل الجبال مررنا بمنطقة «دوارز»، وهي من مزارع الشاي الهامة. وعند محطة صغيرة اسمها «سيليجوري»، ركبنا

جثة عروس فوق محرق الموتى في معبد قالي في كلكتا.

قطار الجبال الصغير الذي قطع بنا ٥١ ميلًا، فرفعنا إلى نحو سبعة آلاف قدم وهو يتلوى في صعوده الوعر؛ ولذلك لم أعجب لما علمت أن أكلاف الميل الواحد من هذا الخط بلغت ٣٥٠٠ جنيه. وكنا نسير أسفل الجبل في حقول للشاي لا آخر لها. دخلنا بعدها وسط الغابات الكثيفة، وكان أظهر شجرها خيزران البامبو الذي يناهز علو قصبه الثلاثين مترًا. وهنا علمنا أن النمر ووحيد القرن والجاموس البري تمرح بكثرة هائلة. أما مساقط الماء فحدِّث عن جمالها. وكنا كلما علونا تغيَّر النبت، فكثرت أشجار البلوط والتوت، ثم تبعتها أشجار اللوز والخوخ بزهورها البديعة، ثم فصائل من الصنوبر والسرخس.

وعندما دخلنا دار جيلنج ألفيناها كالوهدة وسط الجبال، وتكاد تغطيها أشجار الصنوبر. أما جبالها المحيطة بها فقد ذكرتني بجمال سويسرا، لكنها فاقتها في الضخامة والعلو الشامخ، فحولها عشرون ذروةً علوُّ الواحدة يزيد على عشرين ألف قدم، وأبهاها

قمة كنتشنجنجا؛ ثانية ذرى العالم علوًّا، ويُرى فوقها قطار المرتفعات في ليَّاته العجيبة.

طلعةً وأجلها روعةً «كنتشنجنجا»؛ ثانية ذرى العالم علوًّا؛ ٢٨١٥٦ قدمًا. وتكسو الكل عمائم الثلج الوضَّاء، وتحفُّ بجوانبها كومات من دخان أبيض هو سحاب السماء؛ يجلو تارةً ويثقل أخرى.

أما قمة إڤرست، فلا تبدو من دار جيلنج، بل من محطة تبعد عنها بنحو سبعة أميال، وتسمى «تل النمر»، يصعد المرء إليها محمولًا على الركشا يجرها رجلان، أو على كرسي يحمله أربعة، أو على مُهر صغير. ومنها تبدو روعة إڤرست؛ أعلى ذرى الدنيا؛ ٢٩١٤١ قدمًا؛ تلك التي يطمع في ارتقائها الكثير من رواد الجبال، لكن عبثًا يحاولون؛ ففيها من الوحشة ووعورة المسالك ما لا يمكن اختراقه. ولقد ظلت القمة طوال الوقت تغطيها حجب كثيفة من السحاب الذي لم تكد تستبين خلاله.

عجوز وشيخ وفتاة من سكان هملايا.

أما سكان دار جيلنج، فأخلاط من الهنود وأهل الجبال، نخص منهم النباليين والبوتانيين والجركا، الذين يختلفون اختلافًا بينًا عن الهنود في لونهم الأصفر الشاحب، وسحنهم المغولية، وقاماتهم الصغيرة، وغالبهم بوذيون من أشياع قسس «اللاما» في التِّبت، ولهم هناك معابد عدة يصلي القوم فيها وسط رقصة اللاما وصبيتهم وهم في أرديتهم الصفراء الفضفاضة، وقبعاتهم التي تحكي منقار الببغاء. وفي بعض المعابد يلبسون أزياء العفاريت برءوس عجيبة، ووجوه مزعجة، وهم في شذاجة الهندوس وقذارتهم لولا ما أحاطهم من هواء جبلي عليل وبيئة صحية بليلة.

إلى بنارس: بعد أربع عشرة ساعة من مغادرتنا كلكتا وصلنا بنارس، وكنا نسير في سهول صفراء جافة يعدها القوم بالحرث استقبالًا للمطر، وكنا نخترق كثيرًا من مزارع الكنج الصغيرة، وكان بعضها كامل الجفاف بحيث بدا وكأنه الصحراء، وكان الجو متربًا قائظًا لافحًا يحكي جو أقاصي صعيد مصر في هجير الصيف، بل ويزيد.

بنارس (كعبة الهندوس): لعل بنارس هي خير المدن التي تتمثل فيها الهند بأجلى مظاهرها؛ إذ لم يكد يدخلها من المستحدثات شيء قط؛ فهي مقر الزهاد والحكماء والخيرين والمتدينين من الناس الذين تبدو لنا عقائدهم كأنها خرافات، ولا يسع من يرى أولئك إلا أن يعطف عليهم، ويتألم للسعادة الموهومة التي هم فيها. وهي تفاخر بأنها أقدم المدن

المقدسة في العالم؛ لأنها كانت مقدسة قبل أن تُخلق روما بقرن، وهي أقدم من مكة المكرمة بألفي عام، وكانت من المدن الهامة في سنة ٥٥٨ق.م. ولقد اختارها بوذا بعد ذلك بقليل مقرًّا لتعاليمه، ولقد أغار عليها جيش المسلمين سنة ١١٩٤، وأباد كثيرًا من معابدها وأقام المساجد في مكانها، وظل يدمر في مبانيها القديمة حتى إنك لا تكاد ترى اليوم بناء أقدم من عهد الإمبراطور «أكبر»؛ أي في النصف الثاني من القرن السادس عشر. وفي أقاصيصهم أن المدينة أقيمت من الذهب الخالص الذي استحال صخرًا بسبب روح الفساد الذي ساد العالم بعدُ. ويخيل للمرء وهو يسير في سراديبها أنها مدينة محوطة بالأسرار الغامضة، ولا يتمالك أن يأسف لبؤسها، وينفر من قذارتها.

مدينة يتمنى كل هندي حتى أحط المجرمين أن يموت بين جدرانها؛ كي ينتقل إلى الجنة عاجلًا؛ لذلك يؤمُّها من الحجيج نحو مليون كل عام، بينهم جماهير المرضى والكهول الذين يتوقعون الموت؛ يسجد الجميع إرضاءً للإله سيڤا والإيمان العميق يبدو على وجوههم! وبمجرد وصولهم وافدين من أقاصي بلاد الهند يبدءون بزيارة المعابد التي يقال: إن عددها يفوق الألف، ويطوفون بأسوار المدينة كلها — ويبلغ امتدادها ٣٦ ميلًا — في ستة أيام متوالية، وهم يسيرون في طريق تظله الأشجار، وتزينه المعابد وتماثيل الآلهة، ويطلقون عليه اسم «بانش كازي».

وأقدس ما في بنارس نهر الكنج الذي رُصف جانبه في مدرجات رائعة تسمى Ghats، يؤمُّها القوم للطهر من الذنوب. وعجبًا ألَّا يكون للضفة الأخرى شيء من الامتياز! ويلقون في النهر أكاليل الزهور، ويلقون ما تخلف من الرماد بعد حرق موتاهم.

وأجمل ما رأيت المدينة من زورق وسط النهر هنالك؛ بدت بقايا القصور القديمة والمعابد البالية الأثرية، يرتطم بها موج النهر الهادئ في مائه القذر تشوبه الأوضار. وإن أنس لا أنسى منظر المعابد المطلة على النهر وكأنها الأهرام الذهبية صفت في كثافة بعضها فوق بعض، ودرجات النهر التي أقيمت من الجرانيت العاتي تتدلى من دونها، وتقام المقاصير التي يؤمها الأتقياء حتى تكاد تلمس الماء مهما بعد غوره، ويستظل القوم بظلالات من الخوص كبيرة تميل إلى النهر؛ كي تقي القوم وهج شمس الشرق المحرقة، فيخيل للمرء أنها من كثرتها وعظيم امتدادها على جانب النهر وكأنها الدروع في ميدان للجهاد حافل بالأجناد. وإذا ما مالت الشمس إلى الغرب بدأت تلك الجموع الغفيرة تتلاشى، ومن بينها بائعو الفاكهة وأكاليل الزهور والهدايا التي يقدمها القوم قربانًا للنهر المقدس؛ لذلك تراها طافية مع طائفة منتنة من الأعشاب والأوضار تشوب ماء النهر الكدر المنفر.

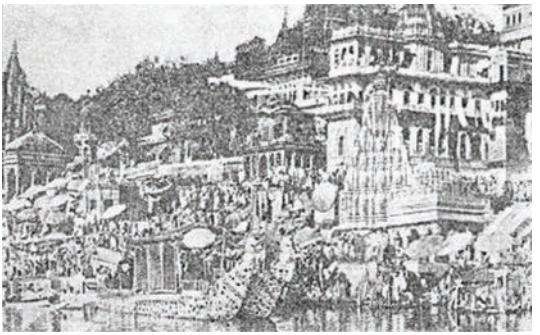

المباني والمعابد تغص بها مدرجات نهر الكنج في بنارس (كعبة الهندوس).

وكلما خفَّ الجمع وفدت أسراب من الطيور المختلفة، عرفت منها الغربان والحمام، تخيم فوق أهرام المعابد، وكلما أقبل الغروب زادت عفونات النهر لحدٍّ لا يحتمل، حتى ليخيل للمرء أنه وسط مدافن منتنة. ويؤيد هذا الشعور قرب الدرجات المعدة لحرق الجثث، وكنس فضلاتها وإلقائها إلى اليم. ويزيد الموقف وحشة صيحات الطيور المنفرة وكأنها كانت تنعى من مات وأُحرق سحابة اليوم، وإذا ما بزغ الفجر تغير المنظر وبدأت المدينة تقذف بسكانها في مجموعهم إلى المكان من آدميين وعجماوات، فترى الناس مقبلين على النهر وقد أرخوا على أجسادهم السوداء البراقة مقاطع من قماش مهفهف مختلف ألوانه، وقد زينت بالمعادن والجواهر والأحجار رقابهم وآذانهم وأنوفهم وأيديهم وأصابعهم، وبكامل زينتهم ينغمس النساء في مائه المقدس. أما الرجال فيخلعون أرديتهم. والجميع يقدم أكاليل الزهور التي تطفو فوق سطح الماء بكثرة تكاد تخفيه. وأسراب الحمام ومختلف الطيور تؤم المكان، فيحط بعضها فوق الماء، والبعض فوق كواهل الناس، وكأنها أيقنت أن عباد براهما لا يمسون الحيوان بأذى، كذلك ترى قطعان البقر مقبلة إلى النهر لتغتسل. وهنا يفسح الجميع لها الطريق في احترام عجيب! وبعضهم يسرع فيقدم للبقر عقودًا من الغاب والزهر! ثم تبصر بعض الأغنام والكلاب والقردة مقبلة على الماء، فيختلط الإنسان بالحيوان، ولا يكاد يفرق المرء بين هذا وذاك!

ولكل جزء من تلك المدرجات اسم خاص، فمن ضمنها مدرج الخيول العشرة؛ حيث يؤمه الناس عند حدوث خسوف أو كسوف، وفي طرفه الجنوبي معبد سيتالا؛ إلهة مرض

جماهير المغتسلين في ماء الكنج المقدس.

الجدري، وهناك تماثيل لڤشنو على شكل إنسان في جسم الأسد، ومدرج الموتى حيث تحرق الجثث. وهنا أذكر موقفي المزعج تحوطني خمس جثث بعضها لسيدات ألبسن أقمشة ملونة، والبعض للرجال في أردية بيضاء. وبعد أن دهنت الجثث بالمَسْلَى غمرت في النهر لتطهر، ثم وضعت الجثث فوق أرماث من الخشب وأقدامها متجهة نحو النهر، وبعد تغطيتها بقطع الخشب، تقدم أقرب الناس من كل جثة بشعلة نار، وطاف حولها سبع مرات، ثم أخذ يشعل النار في كل أركان كومة الخشب، فتصاعد الدخان، وعبقت الجو رائحة اللحم الآدمي تأكله النيران. وكان يحاول كل جهده ألا تطفأ النار قبل تمام احتراق الجثة، وإلا كانت تلك وصمة مخزية للفقيد وعائلته! وبعد تمام الاحتراق، ينفض الواحد ما بقي من الرماد إلى النهر؛ كي تتم سعادة الفقيد!

على أنَّا كثيرًا ما كنا نرى الكلاب تحوم حول الضفاف، فتلتقط قطعًا من اللحم الذي لم يتم حرقه، وكنا نرى جثث الأطفال طافية بين جماهير المستحمين؛ لأن الدين يحرم إحراق جثث الأطفال، ويأمر بإلقائها في النهر المقدس كاملة!

منظر مفزع وقفت في جنباته ساعة وأنا لا يكاد يستقر بي المكان خوفًا وجزعًا، وكنت أَشْتَمُّ شيئًا من الرائحة العطرة التي علمت أنها لبعض الأغنياء الذين يحرقون موتاهم بخشب ثمين كالصندل والعود وما شاكلها.

ولعل أقدس المدرجات «مدرج القرط»، وبه بئر ألقت فيها الإلهة «ديڤي» بقرط، وإليها يتقدم القوم بقرابينَ من الزهر واللبن وخشب الصندل والحلوى، كلها تُرمى فيها،

مدرج الموتى في بنارس وترى به الجثث التي تأكلها النيران.

وبجانبها تجد قطعة مشرفة من رخام عليها طابع قدمي ڤشنو. وهنا يحرق الوجهاء موتاهم؛ وذلك شرف لا يناله الفقراء.

ومن المدرجات الهامة مدرج الأنهار الخمسة؛ لأنهم يعتقدون أن في أسفل هذا المكان تتلاقى خمسة أنهار، ويشرف على هذا المكان مسجد أورانجزيب بمآذنه الدقيقة العالية التي تخيل إلي أنها تميل إلى النهر في غير استقامة.

برحت النهر لأتجول داخل المدينة، فبدت قديمة بأطلالها وأزقتها القذرة المتربة. ومن المعابد التي زرتها بها:

المعبد الذهبي: وتزينه قبة يجانبها برج كأنه «الباجودا»، ويكسى الاثنان من الخارج بالذهب الخالص؛ وهو معبد سيڤا؛ إله الكون. وكان القسس في داخله يحرقون البخور، ويقدمون الزهور، ويرتلون في صيحات منفرة. وفي جانب من المعبد «بئر العلم» وسط دائرة تحوطها الأعمدة الجميلة، وتتوجها قبة، ويقول القوم: إن شعار سيڤا احتمى في أعماقها يوم أن دمَّر الأعداء المعبد، فكل من تطلع إليه نال قصارى أمانيه. ولقد نظرت إلى أعماقها بتلهف زائد، فلم أر إلا سطح ماء قد غطاه رم العشب وورق الزهور. ويجلس بجانبها مشعوذ يبيع الماء للناس الذين كانوا يتهافتون عليه؛ كل يملأ يده، ويقطر ثلاث قطرات في فمه من طرف إصبعه، ويغسل رأسه بما بقي. وفي ذلك مفتاح الذكاء والفطنة، وتطهير للذنوب كائنة ما كانت. وإلى جانب البئر تمثال ثور يعبدونه قدمه «راجا نبال»، ويحوطون رقبته بعقود الفل والياسمين، ويرشون عليه ماء النهر المقدس.

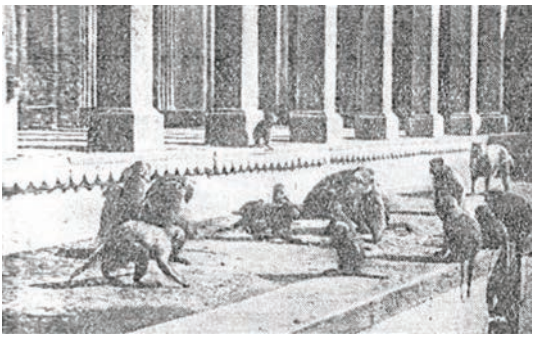

القردة المقدسة داخل معبد «درجا» في بنارس.

ومن أمثال تلك المعابد كثيرٌ قادنا الدليل إليها في سراديبَ يكاد يكسو أرضها جماهير المتسولين في قذارتهم الكاملة. وقد راقني منها معبد درجا أو معبد القردة؛ لكثرة القردة الطليقة فيه، والتي تمرح وتأكل وتتنعم على حساب السذج من المتدينين! وعند المدخل ترى الطبول يدقها القسس ثلاث مرات في اليوم. وهنا تذبح الجديان قربانًا لزوج سيڤا، التي تلذ لمنظر الدماء. وترى هناك حوضًا علوه ٥٤ بوصة يعتقد القوم أنه ينكمش في كل يوم مرة حتى لا يزيد حجمه على حبة السمسم!

إلى دلهي: أخذت القطار صوب دلهي؛ تلك المسافة التي استغرقت ٢٨ ساعة، وكان يبدو على غالب الحقول الجفاف الشديد الذي أيد لنا مبلغ سحر الرياح الموسمية وأمطارها في خصب تلك الجهات التي بدت ظامئة مجدبة، ولما يتخلف المطر عن ميعاده سوى أسبوعين. ولقد وقفنا طويلًا بمحطة «مغول سراي». وكان الشجر من حولها كثيرًا، وجموع القردة تمرح في الغابات، وإلى جوار السكة الحديدية في كثرة عجيبة. وكم كانت دهشتي عظيمة عندما باغتنا سرب من الطاووس يناهز المائة والخمسين عدًّا، كان يسير بجوارنا كأنه هادئ أليف. وقد جاز القطار محطة «كونبور» التاريخية الشهيرة مقر الثورة الهندية (سنة ١٨٥٧). وقبيل دخولنا دلهي، استقبلتنا زوبعة رملية عاتية كأنها وافدة من صحاري «ثار» إلى جنوبها. وبدت المدينة والحر بالغ أشده؛ فقد كانت الدرجة ١١٣ف، وكان الهنود مغتبطين بذلك؛ لأنه كلما اشتد الحر بشرهم بأمطار وابلة.

دلهي: قمت بجولة في المدينة، فبدا لي أنها من المدن القديمة التي غالبت الزمن، وقاست من هجمات المغيرين الشيء الكثير، حتى قيل إنها تقام على أنقاض إحدى عشرة مدينة ازدهرت من قبل ولا تزال لها بقية من أطلال. وغالب أحيائها شبيه بالأحياء الوطنية في القاهرة، وكانت كثرة المساجد بمآذنها العديدة تكسب المدينة مظهرًا إسلاميًّا بحتًا مذ حلت هذه محل القباب الناقوسية الذهبية. وهنا يصلي القوم لله بدل الخضوع لشعوذة البرهمي والخشوع للأنصاب، على أن غالب تلك الأنحاء تعوزه النظافة، وإن كانت في الجمال خيرًا من سابقاتها. أخذت أزور أماكنها التاريخية، وبدأت بزيارة القلعة. وقد بناها شاه جهان بعد أن قرر نقل عاصمته من أجرا، واختار مكانها هذا، وهو يبعد خمسة أميال عن «دلهي القديمة»؛ عاصمة جدِّه همايون، وضع أول حجر سنة ١٦٣٨، وتمت في تسع سنين، فانتقل إليها في حفل عظيم، وأطلق عليها اسم «شاهجاهاناباد». وكانت آيات الأبهة تفوق كل ما تقدَّمها حتى أصبحت عند الغربيين مضرب الأمثال؛ فمن مساجد إلى مقاصير إلى إيوانات إلى قصور كلها من الرخام المرصع باليواقيت والجواهر تفرش بالحرائر والطنافس الثمينة.

ولعل أشد الأهوال التي قاستها دلهي سنة ١٧٣٩ حين أمر نادر شاه بذبح أهلها؛ لأنهم أغاروا على كتيبة صغيرة من جيشه! وكان يرقب ذلك بنفسه من شرفة المسجد الذهبي من شروق الشمس إلى الساعة الثانية مساءً. وبعد ذلك تنحى هذا الفارس منتصرًا إلى بلاده، وحمل ما قيمته خمسون مليون جنيه، ومن بينها عرش الطاووس الشهير وماسة كوهنور. وقد سقطت دلهي في يد الجنرال Lake سنة ١٨٠٣، وأباح لسلائل المغول بعض الحقوق والمظاهر، على أنها سُحبت منهم نهائيًّا عقب الفتنة، ونفي آخر ملوكهم «باداهور شاه» إلى رانجون؛ حيث مات سنة ١٨٦٢، ونقلت العاصمة إلى كلكتا، لكنهم أعادوها سنة ١٩١١ بعد أن أمر الملك جورج الخامس بإنشاء دلهي الجديدة بجوارها.

دخلت القلعة التي يحوطها فندق فسيح — سعته ٧٩ وعمقه ٣٠ قدمًا — وسور يتراوح علوه بين ٦٠ و١١٠ قدمًا، وبها بابان؛ أحدهما صوب أجرا، والثاني صوب لاهور. وهي بلدة كاملة في داخلها؛ إذ تقوم فيها المباني الفاخرة، والمساجد العامرة، والمتنزهات البديعة، وكانت مقر الملوك، ومساحتها تزيد على ضعفي أكبر قصر ملكي في أوروبا، ومن أكبر مبانيها:

الديوان العام: ذرعه ٦٠ × ١٠٠ قدم، يقوم سقفه على بوائك وعمد تخطف البصر بنقوشها الرائعة، وهو يعد من آيات فن العمارة المغولية. وكان يجلس الإمبراطور على عرشه؛ ليستمع للمظالم التي يعرضها عليه وزراؤه نائبين عن الشعب.

الديوان الخاص: ذرعه ٧٦ × ٩٠ قدمًا من الرخام الأبيض يرصع بالأحجار الكريمة في زخرفة فارسية مغولية، وكان سقفه من فضة، لكنه استبدل بالخشب اليوم. وهنا يحار اللب حقًّا لما يرى من مظاهر للعظمة شبيهة بما نقرأ في «ألف ليلة». وقد نقش على جانبيه بالذهب ما معناه: إذا كان للأرض نصيب من الجنة، فهو لا شك في هذه الدار! وتتوسط البهو قناة من رخام كان يطلق فيها الماء المعطر؛ ليرطب المكان ويعبقه. وكان يتوسطه عرش الطاووس الساحر الذي نقله نادر شاه إلى فارس، وسمي كذلك لأنه محاط بطاووسين قد نشرا ذَنَبيهما المرصعين بالياقوت والزمرد واللؤلؤ والماس. وكان ذرعه ٦ × ٤ قدمًا، يقوم على قاعدة من ذهب أصم مرصع بالجواهر. وبين الطاووسين ببغاء نُحت في قطعة واحدة من زمرد، ويرتفع غطاؤه على عمد من أحجار كريمة، وكلفهم ثمنه عند ذاك ستة ملايين من الجنيهات. وكان يجلس عليه الملك يستمع للشكاوى بنفسه. ويظن أنه لا يزال من محفوظات بلاد فارس. والمكان أعد لمجلس الملك مع أخصَّائه، وبه عدة غرف صغيرة آية في الإبداع والزخرف، وله شرفة إلى الشرق كان يستقبل منها شمس الصباح، ويستمع لتهليل شعبه من دونها. ومنذ سنة ١٩١١ والإنجليز يعيدون تلك الذكرى بإقامة حفل يطل منه الحاكم مرة كل عام.

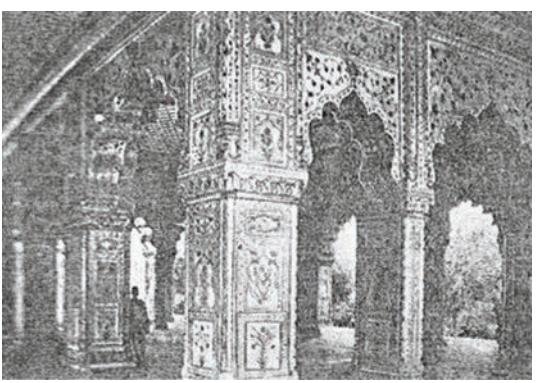

جانب من الديوان الخاص في زخرفه الفاخر وهندسته المغولية الإسلامية (دلهي).

رانج محل: أي قصر الزجاج البراق، وكان خاصًّا بالسلطانة ولا تزال في سقفه بقية من الفضة المرصعة بزهور من ذهب يحوطها بريق خاطف، وفي الوسط نهر الكوثر،

ونافورة تغص بالسمك الملون. وكان يطوق جِيد كل سمكة عقد من ذهب به ياقوتة ولؤلؤتان، وتحوطه حدائق تزينها مجاري الرخام في أبهة وجلال فاق كل وصف.

مسجد اللؤلؤة: أقامه أرانجزيب داخل القلعة. وكان خاصًّا بشاه جهان الذي أسرف في زخرفته وتنسيقه حتى أضحى أجمل مساجد الهند وأصغرها. وكان يُشَبَّه بالدرة أو اللؤلؤة؛ لصغره وجماله.

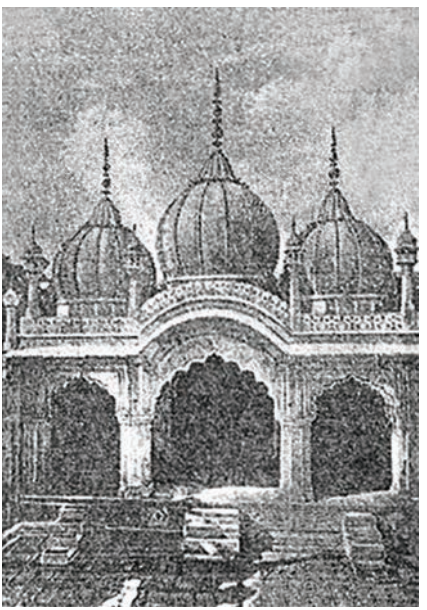

مسجد اللؤلؤة في قلعة دلهي.

المسجد الجامع: يتوسط ميدانًا من المدينة فسيحًا يشرف عليه من ربوة تناهز ستة أمتار، ويرتقي المرء إليه بسلم عظيم الامتداد في جميع جوانبه، وأبوابه من نحاس ثقيل وسط بوائك فاخرة تؤدي بنا إلى فناء رحب، يتوسطه حوض الوضوء، والليوان يقع تحت قباب ثلاث تجانبها مئذنتان دقيقتان عُلُو كلٍّ منهما ١٣٠ قدمًا، وحول الجوانب الأخرى بوائك ذات سقف منقوشة، وفي ركن منه غرفة صغيرة بها بعض آثار النبي ﷺ توضع

في علب من فضة وذهب وزجاج، تملؤها الزهور من داخلها. وأهم تلك المخلفات التي تبركنا بلمسها: شعرة واحدة حمراء من لحية الرسول، قطعة من رخام عليها طابع قدمه، حذاء من جلد الجمل في شكل الخف، ومخطوطان للقرآن الكريم كُتبا بالكوفة؛ أحدهما بخط الإمام علي — كرم الله وجهه — والآخر بخط ابنه الحسين — عليه السلام — والمسجد فاخر يشرف على المدينة، فتراه أينما كنت في لونه الأحمر من الخارج، وإن كان يبطن كله بالرخام الأبيض، أقامه شاه جهان وخصَّ بنفسه بابًا يواجه القلعة والمسكن الخاص فيها. وكان يُفتح يوم الجمعة لمروره ماشيًا، وعندئذ تفرش الطريق كلها بالطنافس الثمينة، ويخال البعض أن هذا المسجد أكبر مساجد الدنيا.

المسجد الجامع في دلهي وفي ركنه الأيمن بعض مخلفات النبي ﷺ.

ومن المساجد الأخرى التي زرتها مسجد سنهري الذهبي، الذي جلس فيه نادر شاه؛ أكبر ملوك الفرس السفاحين، وهو يراقب جنده يذبحون الناس يوم دخل المدينة سنة (١٧٣٩).

قطب منار: برج نصر بناه قطب الدين سنة ١٢٠٠ على بعد ١١ ميلًا من المدينة، وأكمله حفيده «التماش»، ويتألف من خمسة طوابق في علو ٢٣٨ قدمًا، وقطره من أسفله ٤٧، ويختنق في أعلاه إلى ٩. وقد أصلح أعلاه فيروز شاه سنة ١٣٦٨. أقيم ليخلد انتصار الإسلام على الهندوس، ولبث يغالب الزمن طويلًا. ويعد من عجائب بلاد الهند؛ لقدمه وغرابة هندسته. وإلى جانبه مسجد قطب الدين؛ أقدم مساجد الهند، بناه من أنقاض المعابد الهندية التي دمرها المسلمون، وفي داخل مقصورته قطعة من حديد مرن ترجع

إلى القرن الثالث الهجري، وظلت معرضة لتقلبات الزمن طوال تلك المدة ولم تصدأ، ولا يعلم شيء عن أصلها سوى العبارة الآتية التي كتبت عليها: هو صاحب الصيت «راچا دافا»؛ الذي حصل بساعده على ملك العالم بغير شريك.

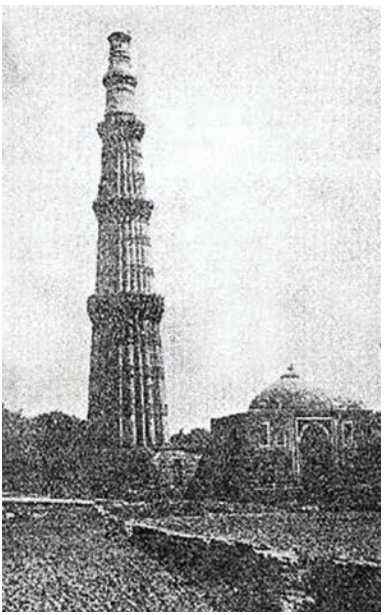

قطب منار وهو برج نصر مغولي في دلهي.

وفي ناحية أخرى مقبرة همايون على نمط شبيه بتاج محل، وهو أقدم مثل للعمارة المغولية؛ بني سنة ١٥٥٦، ودفن فيها ثاني عظماء المغول، وبجانبه أقرباؤه وابن شاه جهان، الذي قتله أخوه أورانجزيب؛ طمعًا في الملك. وهنا سلَّم شاه باداهور؛ آخر المغوليين، سيفه للميچر هدسن سنة ١٨٥٧، وبجانبها مقبرة التماش ابن زوجة قطب الدين.

ذلك مثل مما يراه السائح في دلهي؛ تلك البلدة التي تقوم عظمتها على منشآت الإسلام التي لولاها لما استحقت الذكر؛ حيث لا نرى غيرها سوى بيوت حقيرة، ومعابد هندوسية

صغيرة؛ ولذلك لم ترها إنجلترا صالحة لتكون مركزًا لإدارة البلاد، فأقامت بعيدًا عنها مدينة دلهي الجديدة على أحدث النظم التي تحكي إحدى المدن الأوروبية تمامًا.

إلى أجرا: قمت إلى أجرا التي وصلتها في أكثر من ثلاث ساعات، فبدت مدينة حقيرة كأنها من مدن الريف القذرة المتربة. وكان هجير القيظ خانقًا لدرجة أن خادم النزل سألني إن كنت أرغب أن يعد لي سريرًا في الخارج — أعني في الشارع — فدهشت ورفضت أول ليلة مرتكنًا على «المروحة»، لكني سارعت برجائه في الليلة الثانية أن يفعل ذلك؛ إذ لم تغمض عيني من شدة الحر، فنمت ليالي الباقية على جانب الطريق، على أن بها من الدرر القديمة آيات بينات تحوطها تلك الأطلال والأقذار، وفي مقدمتها:

تاج محل: حق للهندسة المغولية أن تفاخر بتلك القطعة الفنية؛ فما إن وقع ناظري عليه حتى ذهلت من عظمة ما رأيت، جلال في دقة صنع، ورواء في حسن تنسيق، وآيات للفن بينات في كل ناحية من نواحيه؛ فهو وحده خير مبرر لزيارتي للهند؛ تلك البلاد التي كنت حتى الساعة لا أذكرها بالخير الكثير. دخلت من الباب الرئيسي وهو وحده قصر فاخر بأقبيته وقبابه ومناراته، فانكشفت حدائق التاج الفسيحة التي نسقت بالنافورات والمنحدرات والطرقات الملونة والنقائع يزينها زهر البشنين وورقه، صفت من حولها مخاريط الشجر الباسق، وفي وسط كل أولئك يقوم التاج كالعروس، ولكن أنَّى لقلمي الكليل أن يصور بدائعه ويحكي إعجازه؛ فقد تنقل الكلمات والصور إلى القارئ شيئًا عن المكان، ولكن أنَّى لها أن تشعره بالذهول والإكبار الذي يحسُّه من يراه بعينه؟! صوِّر لنفسك قصرًا فاخرًا أقيم كله من الرخام الوضاء، والمرمر البراق، تحوطه في الأركان مآذن دقيقة رشيقة، وتتوسطه قبة كبيرة رائعة تحوطها القباب الصغيرة، والمنائر الرفيعة، والأرض والجدران قد رصعت كلها بالزهور والزخارف الفارسية، لا بالرسم الزيتي، بل بالياقوت والزمرد والزبرجد وما إليها، وتزين الجدران إلى جانب هذا آيات الذكر الحكيم كلها، لا بالمداد بل بمقصوص الرخام الأسود ألبس الجدران البيضاء. والمدهش أن المهندس قد راعى المنظور في كتابتها، بحيث إنك تراها تبدو في أعلى المكان وفي أسفله بحجم واحد رغم علوه الشاهق! وفي بعض الصفحات ترى الرخام قد خرط في أشكال شتى بين بارز وغائر. أما النوافذ والفتحات فأشبه بشباك المخرمات في دقة فائقة، وهندسة عجيبة، قدت في الرخام، وكان يغطي غالب الفتحات الزجاج الطبيعي «الميكا البيضاء»، ولم يبق منها اليوم سوى لوح واحد. وفي قلب المكان ترى المقبرة من المرمر رصع بمختلف الأحجار الكريمة، يحوطها سور من مقصوص الرخام. وهذه تضم رفات

زوجة شاه جهان «ممتاز محل». وكان يحوطها سور من فضة، ويكسو القبة غشاء ثقيل من ذهب خالص كانت زنته ٢٦٥٠ رطلًا، ويدخل الضوء من الباب فقط فيسقط على المقبرة رأسًا، فتشرق وسط الأركان المظلمة. وقد ألصقت بجانبها مقبرة أخرى — فيما بعدُ — دُفن فيها زوجها. وكان قد بدأ يُقيم لنفسه مقبرة على مثال التاج في الجانب الآخر من النهر.

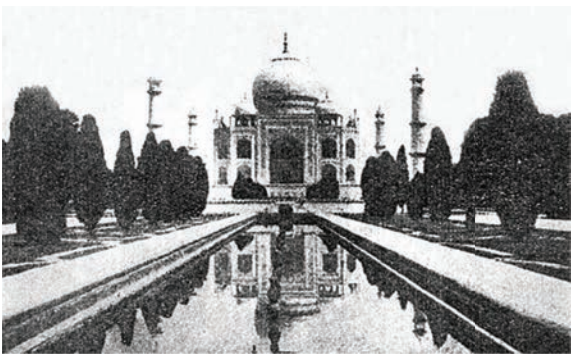

التاج محل؛ درة الهند وآية الهندسة المغولية.

وقد قيل إن السلطان استدعى عباقرة الفن من العرب وفارس والهند وأوروبا، فاستلزم البناء ١٧ سنة، وكان طوال هذه المدة يشتغل عشرون ألف عامل، حتى بلغت أكلافه أربعة ملايين من الجنيهات في ذاك الوقت الذي كانت الأموال فيه نادرة.

وللقبة الرئيسية أثر ساحر في ترديد صدى الصوت يفوق تلك التي في بيزا بإيطاليا. وقفتُ داخلها وكأني طربتُ لما أن تصورت المقرئ بصوته الرخيم يُردد الآيات البينات، أو يصيح بعبارات التأبين والندبة في أنغامها الشجية، التي تبدو وكأنها دوي أصوات الملائكة ترددده تلك القبة من السماء. ولا أنسى زيارتي الثانية للتاج في المساء — وكانت ليلة مقمرة — فبدا وهجه في ضوء القمر الشاحب وسكون الليل الرهيب، فأثار في النفس من ذكريات، وأهاج من شجون.

تلك هي آية تقدير شاه جهان لزوجته الفاتنة التي أحبها حبًّا جمًّا، وأخلص لها، فشاركها الرأي في مهام الحكم. وكان خاتم الدولة بيدها، وكانت رحيمة بالناس تتدخل

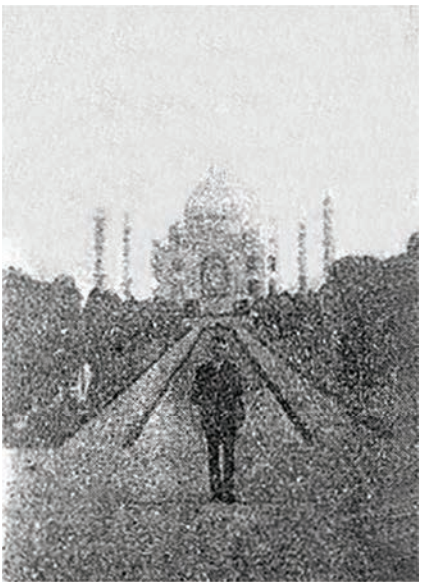

أمام عظمة «التاج محل» الخالدة في ضوء القمر.

لمصلحتهم، وكانت تلازم زوجها في حملاته الحربية، حتى كانت الحملة التي غزا بها ثائري الدكن، فاختطفها الموت لما أن جاءها المخاض في طفلها الرابع عشر، فعاد محزونًا كسير القلب، حتى حرَّم على رعاياه كل مظاهر السرور طويلًا، وحبس نفسه عن الناس، وعطَّل أعمال الدولة، وقيل إنه سئم الحكم واعتزم التنازل لابنه.

مقبرة اعتماد الدولة: أقامتها «نور محل»؛ زوج الإمبراطور «جهانجير»، مدفنًا لأبويها. وكان أبوها من كبال رجال الدولة؛ وفد مع زوجته من فارس تحت اسم «مرزا غيات» طلبًا للجاه والثراء في بلاد الهند، فنفدت ذخيرتهم في الطريق، وزادهم الحظ ارتباكًا بمولودة ترددوا طويلًا في التخلُّص منها، حتى مرَّت بهم قافلة فأنقذتهم جميعًا، فلما جاءوا السلطان نالوا لديه حظوةً، وأحب جهانجير — وكان إذا ذاك أميرًا — فتاتهما ذات الجمال الفتَّان، لكن أباه الإمبراطور رفض ذلك وزوَّجها من أحد قواده، فلما مات وولي ابنُه الحكم كلَّف الضابط أن يطلق زوجته فأبى، فدسَّ له وقتله، وحبس الزوجة

في القصر حتى قبلت أن تتزوج منه، فغير اسمها «نور محل»؛ أي نور القصر، وسماها «نور جهان»؛ أي نور الدنيا. والمقبرة آية فنية أخرى تلي التاج في العظمة ودقة الصنع.

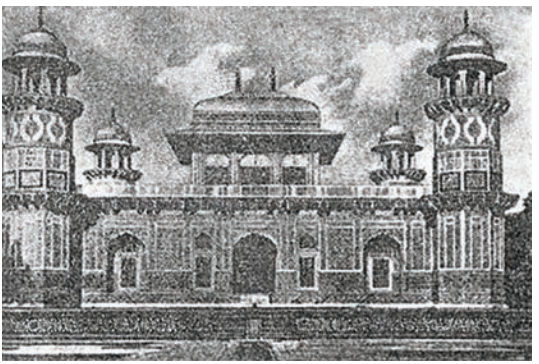

مقبرة اعتماد الدولة؛ وهي من آيات الهندسة المغولية الإسلامية في أجرا.

مقبرة الأكبر: وهي من المباني الجديرة بالزيارة. أقيمت من الصخر الرملي الأحمر، تبطنه من داخله رقائق الرخام الأبيض في رواء كبير. وهي تضم رفات «أكبر»؛ مؤسس أجرا؛ ولذلك يطلق على المدينة أحيانًا «أكبرباد».

القلعة: شبيهة بتلك التي في دلهي في شكلها ومحتوياتها، وتزيد قصر الياسمين، وسمي كذلك لكثرة أزهار الياسمين التي رصع بها المكان. وقد أعدَّه جهانجير مقر زوجته «نور محل»؛ إذ كان يشرف على نهر الجمنا، ويكشف التاج محل بحدائقه على الجانب الآخر من النهر. وقد أقامت به سيدة التاج «ممتاز محل» زمنًا طويلًا.

إلى بمباي: غادرت أجرا صوب بمباي في ٣٨ ساعة، وكنا نمرُّ غالب الطريق على بقاع شبه صحراوية هي حافة صحراء ثار في مقاطعة راجبوتانا؛ ولذلك كان الجو مؤلمًا، والتراب خانقًا، والجفاف بالغًا أشده، فما كدنا نرى للنبت أثرًا سوى بعض الشجيرات القصيرة المنتثرة، على أنَّا كلما قاربنا جانب البحر إلى بمباي زادت ثروة الإقليم بالنبت، وتحسنت الوجوه الآدمية، وقل الحفاة، وتقارب الزي (سروال أبيض وچاكتة طويلة). ومما ألفت نظرنا، بوجه خاص، زي السيدات مذ بدت الألوان الزاهية الصافية في ملاءاتهن، فكثيرًا

على شرفة برج الياسمين في أجرا.

ما كنت أرى جمهرة منهن يسرن جماعات، كل منهن في لون خاص كأنهن قوس السماء يتحرك في بريق ورواء. وقد عبرنا قنطرة نهر تابتي، الذي يبلغ اتساعه ثلاثة أمثال النيل، على أنه كان جافًّا لا يكاد يجري له ماء، شأن سائر أخوار الهند التي كنا نمر بها كل آنٍ وهي ناضبة؛ مما يشعر بأهمية الرياح الموسمية؛ فلولا أمطارها لما كانت بلادهم في الخصب شيئًا مذكورًا.

بمباي أو الخليج الجميل — كما سماها البرتغاليون — وقيل إن الاسم مشتق من إلهة البلدة «ممباديڤي» في أكبر معابد المدينة. بدت مدينة عظيمة حقًّا ذات مبانٍ فاخرة، وقصور شامخة، وطرق معبدة فسيحة، فهي في نظري المدينة الهندية الوحيدة التي تحكي مدائن أوروبا وجاهةً ونظامًا، وهي العاصمة التجارية للهند؛ فالحركة فيها صاخبة أبدًا، وبها محطتان للسكة الحديدية من أفخر محاطِّ العالم؛ وهما: محطة فكتوريا، ومحطة الوسط. ولعل أجمل نواحيها صخرة ملبار؛ تشرف على الخليج في منظر رائع، وهي مسكن الطبقة الأرستقراطية. كلها ڤلات تحوطها الحدائق اليانعة والمتنزهات الأنيقة، أخُصُّ منها «الحديقة المعلقة» التي تشرف على البحر، وتنكشف من دونها أبراج السكون الخمسة؛ حيث ترى رصيفًا حفرت به فجوات يضع فيها شيعة «البارسي» موتاهم، وسرعان ما تنقض عليها العقبان من الأشجار المجاورة، فتأكل كل اللحم وتترك العظام. وهذه توارى في بئر بدون حرق؛ ذلك لأن هذا المذهب يعتقد في طهارة العناصر الثلاثة (الماء والتراب والنار)؛

في فناء مسجد القلعة في أجرا.

لذلك لا يصح تدنيسها. ويحمل الجثث وهي عارية عباد ملتحون إلى ذرى تلك الأبراج، ومحيط أكبرها في ٢٧٦ قدمًا، وعلوها ٢٥. وعند حمل العظام يلبس القوم القفازات، ويقف أهل الموتى طويلًا في الحدائق هناك للتفكير في الموت وحولهم كثير من أشجار «السرو»، والقوم يعتقدون أنه يشير دائمًا إلى السماء ليذكرهم بالموت، وعامتهم يبيحون استخدام النار في الطبخ، لكن غُلاتهم يحرمون ذلك. وجماعة البارسي من عبدة النار، وهم أتباع الفيلسوف الفارسي «زردشت». عددهم يناهز المليون، ويعرفون باستعدادهم العظيم للتقدم، وهم في مقدمة تجار العالم خبرةً وأمانةً.

البقر المقدس: وقد استرعى نظري في الهند عامةً، وفي بمباي خاصةً، كثرة البقر الذي يترك طليقًا يجوب أمهات الطرق في غير حصر؛ ذلك لأن الهندوس يقدسونه، ويعدون قتل البقرة، لا بل ومجرد ضربها جرمًا لا يغتفر! فكم من مرة كان يفاجئني سائق السيارة أو الترام بالوقوف؛ لأن هناك بقرة تنام وسط الطريق، فلا يجرؤ أحد أن يضربها، وإن طال وقوفه نزل فمسح عليها برفق حتى تقوم! ودهشت مرة وأنا في محطة «راتلام»؛ لأني رأيت قطار السكة الحديدية أخذ يدوي صفيرًا وهو مقبل على المحطة ثم وقف فجأة، وبالبحث وجد الناس بقرة تمرح بجانب القُضْبان! وقد حدث مرة أن أميرًا هندوسيًّا صدم بقرة بسيارته فقتلها، فظل يكفِّر عن ذنبه هذا بالهدايا الباهظة للبراهما أمدًا طويلًا حتى غفر ذنبه! وكل فرد وهو على سرير الموت يمسك بذنب البقرة حتى تفيض روحه إن أراد الجنة!

محطة فكتوريا في بمباي من أفخر مباني العالم وإلى اليسار دار البلدية.

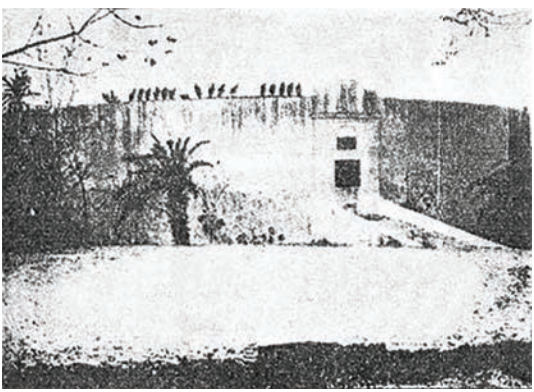

برج السكون حيث يعرض جماعة «البارسي» جثث موتاهم فتنقض عليها تلك العقبان فتنهش لحمها على الفور.

بلغني أنه لما حضرت الوفاة مهراجا كاشمير الأخير، طلب أن تساق البقرة إليه في غرفته، فلما لم يفلحوا في ذلك حُمل الأمير إليها، فأمسك بذنبها حتى فاضت روحه! وقد قيل إن العصيان الهندي الكبير كان من السهل تلافيه لو أن بريطانيا منعت ذبح البقر. وكان — ولا يزال — بعض الجند يأبون حمل السلاح لظنهم أن دهن البقر يدخل في تركيبه، وثار الكثير لأنهم كُلفوا أن يفرغوا قُطرًا تملؤها لحوم البقر المحفوظة في علب جِيء بها من أستراليا.

فريق من عبدة النار في بنارس.

ويقدس الجميع خمسة منتجات في البقرة؛ وهي: اللبن والمسلى واللبن المتجبن والروث والبول؛ وتلك توضع في أوانٍ ساعة الصلاة ثم تمزج ببعضها ويشربها القوم؛ تبركًا كأعظم مطهِّر من الآثام! وهذا المزيج يسمى في عرفهم Panchagavia وغريب أن يكون أثر البول في الطهر أبلغ لديهم، فكثيرًا ما كنا نرى الناس يقفون أثر بقرة لكي يحملوا البول وهو دافئ في آنية، ويسرعون بها إلى بيوتهم ليشربوه على الفور، أو ليدهنوا به وجوههم ورءوسهم! وقد يتلقاه الرجل في يديه ويحتسيه أمامنا! وهم يعدوننا أنجاسًا؛ لأننا نأكل لحم البقر؛ ولذلك فهم لا يسلمون علينا باليد مطلقًا، وإن اضطر وجهاؤهم لبسوا القفازات! فكم من مرة مددت فيها يدي لأصافح بعض من تعرفت بهم من زملاء القطار من بين المتعلمين، فكان خجلي شديدًا عندما كنت أراهم يرفضون ذلك، ويضمون أيديهم إلى صدورهم لرد تحيتي لهم! وحدث مرة أن خادم القطار قدم لي الطعام في العربة التي كنت أركبها، وما كاد يقع نظر إخواني الهنود من حولي على اللحم الذي آكله حتى تنحوا عني، وأخذت ترمقني نظراتهم بشيء من الاشمئزاز! وقد عانيت طويلًا حتى استعدت علاقتي الحسنة معهم كرة أخرى، وصارحني بعضهم أنه يرى في ذلك الرجس كله، وأن نفسه تتقزز ويعروه الشعور بالقيء لمجرد رؤية اللحم! وكثيرًا ما كنا نرى البقر تطوِّق جيده العقودُ، وتخضب قرونه بالألوان، وتزينها أطواق النحاس البراق، ويقبل المارة على البقر لثمًا وتقبيلًا!

ومن عجيب أمرهم أنهم يهملون إطعام البقر على قداسته، ويكتفون بتركه يجوب الطرق، ويرعى ما ألقي فيها من قمامات؛ لذلك نرى غالب الأبقار عجافًا هزالًا قد أصابتها

البقر المقدس يعترض أمهات الطرق في بمباي.

مختلف الأمراض. ومما ساعد على انحطاط نوع البقر هناك، أن من يهب عجلًا أو بقرةً للمعبد؛ تبركًا أو لمناسبة موت عزيز لديه، يبتاع أرخص الأنواع وأردأها. وتطلق هذه وتظل ملكًا للمعابد بدون رعاية أو استغلال. وقد قدر عددها بنحو سبعين مليونًا لا يستفاد منها بشيء، ولو استغل هذا العدد لأنتج ما قيمته ١١٧½ مليون جنيه في العام. وطالما تقع المشاحنات المبيدة بين الهندوس والمسلمين يوم عيد الأضحى بسبب ذبح العجول، وإن نعجب فعجبنا من تناقضهم؛ فالبرهما هو الذي يبيعها للمسلمين أحيانًا! إلى ذلك تضاف قسوة الهنود جميعًا في معاملة ذاك الحيوان المقدس عند استخدامه في جر العربات! والعجول هي دابة الجر الرئيسية في الهند، فلا تكاد ترى حيوانًا سليم الذنب؛ لأن السائق يضغط على فقرات ذنبه طول الطريق يستحثه على مواصلة السير؛ لذلك تراها تتكسر! إلى ذلك تعذيب البقرة ساعة حلبها؛ إذ يُدخل الحالب في دبر البقرة عصًا زُوِّدت بأهداب خشنة، ولا يفتأ يحركها معتقدًا أن ذلك يدرُّ اللبن Phuka، غير آبهٍ بما يحدثه ذلك في البقرة من الآلام المبرحة.

عبر الدكن: قمنا نتسلق الغات الغربية ونعبر هضبة الدكن إلى مدراس ٢٥ ساعة، فجرتنا قاطرة كهربائية، وأخذت تصعد بنا في سرعة مخيفة والمناظر من حولنا كأنها من مناظر سويسرا، أو إسكندناوة، أو الراكس في النمسا بين ربًى تكسوها الخضرة الوفيرة، وخوانق وهوى غائرة سحيقة، ومجارٍ وغدران ونقائع آسنة وكأنها من لجين. ظل المنظر هكذا ساحرًا زهاء أربع ساعات حتى وصلت بوثا. وهنا عادت المناظر مملة موحدة مذ أصبحنا فوق هضبة الدكن، على أن الجو قد تحسن ونقصت الحرارة نقصًا محسوسًا. والسكة الحديدية إلى هنا عمل هندسي عظيم غاصٌّ بالليات والمطاوي العجيبة، والأنفاق المتعددة، والكهرباء تستمد من منحدرات للماء حبس ماؤها في أنابيبَ ضخمةٍ؛ لتزيده قوة. لبثنا نسير فوق الدكن طويلًا؛ تلك البلاد التي تكاد تكون جافة؛ إذ لا يصيبها من المطر إلا النادر؛ لذلك كنا نرى في الحقول شبه آبار أو أحواض مستديرة يملؤها المطر ويدخر فيها؛ ليستقي منه القوم، وقلما كنا نمر بالقرى والدساكر؛ مما يؤيد ندرة السكان هناك، على أن بقاعًا من الأرض كان يعدُّها ذووها استقبالًا للمطر الضئيل المُنتظَر. والناس هنا أكثر همجية من سواهم، ولا يزال غالبهم من سلائل «الدرافيديين»؛ سكان الهند الأوائل. ومن أعجب عاداتهم أن يشاطر في الزوجة الواحدة أكثر من زوج واحد، وبخاصة الإخوة! وكانوا إلى أمد قريب يتعقبون أنسابهم عن طريق الأم؛ لذلك كان الميراث الرئيسي لابن الأخت، أو ابن بنتها، أو لأي شخص من فرع الإناث. أما الابن فلا يرث! ولا تزال لتلك العادة اليوم بقية بين قبائل تودا Toda هناك. ويعدُّ الهندوس أولئكم القوم من الطبقات النجسة المنبوذة.

الطبقات والمنبوذون: لما أن أغار الهندوس على الدكن من الشمال قسموا الناس طبقات، بعد أن تملكوا الأراضي، ووضع زعماء الدين «البراهما» أنفسهم موضع وكلاء الآلهة، ويليهم في المقام المقاتلة Kshaltryas، ثم الزراع Vaisyns — وكان يحتقرهم أفراد الطبقتين السابقتين — ثم يلي أولئك طبقة Sudra السدرا؛ وهم الخدم والأتباع. ومن كل أولئك يتكون الهندوس. وأخذت تلك الطبقات الأربع تتشعب إلى شيع ومذاهب عدة، فكانت إلى سنة ١٨٧٢م ٦٩، ونما عديدها حتى أصبحت ٢٣٧٨ في سنة ١٩٠١، ولا تزال تزيد في كل يوم! ويعتقد الهندوس أن الرجس يصيبهم إن اقتربوا من أحد أفراد طبقة أدنى منهم، ولا يتبادلون المصاهرة قط. ويقاطع الجميع كل فرد فقد شرف الانتساب لطبقته، فلا تقبله حتى الطبقة التي هي أدنى منه، ولا يغفر ذنبه إلا بعد تقديم القرابين الباهظة «للبراهما». وكثيرًا ما كنت أرى القوم في عربة القطار ينتحون جانبًا ويخبئون طعامهم عن أعين الأجانب أمثالي؛ خشية أن تدنس نظراتنا طعامهم الطاهر! وكنا نرى جميع الناس

حتى المدقعين منهم يحملون أواني من نحاس بها ماء يشرب المسافر منه، ولا يأمن لغيره قط أن يمسسها؛ مخافة تدنيسها! وإذا فرغت ينزل في المحاط بنفسه فيملؤها بيده من صنبور محكم الغلق تعده مصلحة السكة الحديدية في جميع المحاطِّ لهذا الغرض. وفي السجون يأبى المجرم تناول الأرز حتى يتأكد أن الطاهي من بين أفراد طبقته.

وهناك طبقة تعدها الطبقات السالفة دون الجنس البشري ويطلقون عليها كلمة باریاه Pariah، خصت بهم الأعمال الوضيعة، ولحق اسمهم العار؛ من بينهم الكناس والحانوتي والحلاق والمولدة وغيرهم. وقد حرموا التعليم فلا يُباح لهم القراءة حتى في الكتاب المقدس، ولا يدخلون المعابد، وليس لهم أن يستقوا من الآبار العامة، ولا يتقاضون أمام المحاكم، ولا يدخلون صيدلية ولا حانوتًا، وفي بعض المقاطعات لا يباح لهم المرور في الطرق العامة؛ مخافة تدنيسها، فيبتاعون حاجاتهم بوساطة قوم يُؤجرون على ذلك، ولهم أن يمارسوا مهنة التسول. وعندئذٍ لا يقفون في الطرق، بل يصيحون وهم على بُعدٍ، فإن ألقى إليهم المارة بالصدقات انتظروا حتى يفرغ الطريق من المارة وأسرعوا لالتقاطها والعودة عاجلًا. ويعدُّ البعضُ ظلَّ أولئك نجسًا؛ فإن سقط على طعام وجب إتلافه؛ ومن هنا فهمت السبب الذي من أجله كنت أرى كل ركاب القطار يحملون «أعمدة الطعام» من أربع «طاسات» أو خمس كلها من الأرز؛ ذلك مخافة أن يصيب الدنس الطعام، وعندئذ يمكن إتلاف «طاسة» واحدة لا الجميع! وبعض أفراد تلك الطبقة يدنس غيره وهو بعيد عنه من أثر تنفُّسه أو رائحته؛ لذلك يقف أولئك على بُعدٍ قد يفوق مائة متر عن الطريق العامة، فإن قرب أكثر من ذلك وجب عليه أن يضع في عرض الطريق ورقة شجر خضراء وعليها كومة من تراب؛ ليدل الناس بذلك أن هناك فردًا نجسًا على مقربة، فإذا رآها «البراهما» وقف وصاح غاضبًا، وعندئذ يعدو النجس حتى إذا ما بعد عنه بالمسافة المعينة صاح هو بدوره معلنًا «البراهما» بالمرور! وفي بعض الجهات «كساحل مالابار» لا يباح لهم إقامة المساكن الثابتة، بل أخصاص مؤقتة. ولقد كان من حق سائر الطبقات الممتازة أن يطعنوا من يعترضهم من هؤلاء طعنات قد تودي بحياتهم، وإن حرَّم القانون ذلك اليوم. وعدد تلك الطبقة من المنبوذين ستون مليونًا؛ أي نحو خمس سكان الهند. ولقد تخصص فريق منهم اليوم في الإجرام والتشرد والدعارة، وعددهم نحو ٤ ½ ملايين ينبثون في طول البلاد وعرضها تحت اسم القبائل المجرمة.

ولقد منحت الحكومة طبقة المنبوذين اليوم كثيرًا من الامتيازات على رغم معارضة الطبقات الأخرى! لكنك تجد هذا محترمًا في المدن الكبرى. أما في الأرياف فيُسلبون عمليًّا

جميع حقوقهم؛ ففي مقاطعة مدراس مثلًا يبيح القانون قبول أولادهم في المدارس، لكنهم لا يدخلون سوى ٦٠٩ مدرسة من بين ٨١٥٧ مدرسة. ويرى كثير من المتعلمين ورجال التشريع من الهنود وجوب مساواتهم بالغير، لكنهم يقولون: إن عملًا كهذا يثير السواد الأعظم من الهندوس؛ لأن نظام الطبقات في صلب الدين. وقد بدأ منبوذو بنغالة — وعددهم مليونان — يناضلون ليدخلوا أبناءهم المدارس. ويعتنق كثير منهم الإسلام والمسيحية تخلصًا من ظلم الطبقات المبيد.

إحدى نساء طبقة المنبوذين الأنجاس.

والعجيب أنك لا ترى فرقًا في الشكل بين الطبقات النجسة وغير النجسة، وقد ترى من أفراد الأنجاس من يروقك منظره أكثر من أفراد الطبقات الممتازة، على أنهم لا يجرءون

أن يدخلوا مكانًا به أحد هؤلاء. والمدهش أن غالب المنبوذين راضٍ عن هذا النظام؛ لأن الدين هو الذي يأمر به، وإن أخذ عدد الثائرين عليه منهم يزيد يومًا فيومًا، خصوصًا في مدراس. ويكتب كثير من المتنورين من الهنود في ضرورة بقاء نظام الطبقات احتفاظًا بأوامر الدين، وهم يرون أن الأنجاس يكفيهم أنهم لن يغمطوا حقهم في الآخرة!

إلى مدراس: ظل القطار ينهب الأرض فوق الدكن، واخترق جزءًا من مقاطعة «حيدر باد»؛ أكبر المقاطعات المستقلة. حاكمها أوتوقراطي شديد البأس، وصاحب ثروة خيالية تحكي ثروة سليمان؛ إذ يعد أغنى أمراء الدنيا؛ قدرت كنوزه بأربعين مليون جنيه. والعجيب أنه مسلم مع أن تسعة أعشار رعاياه من الهندوس! وهو أكثر الأمراء ولاءً لإنجلترا، ويطلق عليه «نظام حيدر باد». وهو الوحيد الذي يسك نقودًا خاصة به تُغاير سائر نقود الهند، ورعاياه في الجنوب من الدرافيديين، وفي الشمال من الآريين. والأراضي هنا فقيرة ذات حزون غالبها مهمل، ولم أر بها من دلائل الخصب والغنى — الذي كنت أقرؤه — شيئًا. وعلمت أن الأهالي يدفعون للحكومة روبية (٧ قروش) عن كل فدان إنجليزي في كل عام. وغالب الجهات المنزرعة ينمو بها بعض أنواع الفول، ثم العظلم «النيلة» — وكان يبدو عشبًا كالبرسيم في ورق عريض، على أنه يكبر في شجيرات قصيرة تقتلع وتعطن في الماء، ثم تغلى فتسيل العصارة السميكة وتجهز في أقراص هي النيلج المعروف. وكان أظهر الشجر هنا نخيل «بالميرا»؛ وهي شجرة تؤتي ثمرًا كالنرجيل يأكله القوم ويستخرجون منه السكر، وإذا خدشوا الجذع سالت منه عصارة سريعة التخمر يعمل منها خمر الطبقة الفقيرة المُسكر القوي الذي يسميه القوم تودي Toddy، وإذا زرع الشجر حديثًا كوَّن جذورًا نشوية خلال الثلاثة الشهور الأولى تقتلع وتجفف ويستمد منها دقيق الحلوى.

وهنا زاملني في القطار رجل تعرفت به بمناسبة عجيبة؛ ذلك أنني لاحظت بجانبي على زجاج النافذة حشرة تطير ولها طنين أزعجني، فعمدت إلى قتلها فتعرض الرجل ومنعني، ثم تناولها بمنديله وألقى بها من النافذة. وبمحادثته علمت أنه يدين بمذهب «الجانية»؛ وهذا يحرم إتلاف الحياة كائنة ما كانت، من بينها الحشرات الضارة والنحل وما إليها، حتى إنهم يحتمون كنس الأرض قبل الجلوس، وعدم رش الأرض بماء كثير؛ خشية قتل بعض الأرواح الطاهرة! وتراهم يغطون أفواههم بقطعة من حرير؛ خشية أن تدخل فيها حشرة أو بعوضة فتموت! وهم لذلك يفضلون الاشتغال بالتجارة والصناعة ويكرهون الزراعة؛ لأن المحراث يتلف كثيرًا من الحيوان؛ وذلك جريمة كبرى.

وعدد أولئك في الهند يناهز أربعة ملايين، وهم يدَّعون أنهم كانوا بوذيين قبل أن يخلق بوذا نفسه، وهم يتفقون مع عامة الهندوس في الاعتقاد في تناسخ الأرواح؛ فهم يرون أن

مثل من أمراء الهند الذين ينعمون على حساب شعوبهم البائسة.

الروح تحل أجسادًا أخرى قد تكون آدمية، وقد تكون لطائفة من الحيوان بعضها من طبقة عالية، والبعض من طبقة خسيسة، فالرجل الفاسد قد تحل روحه بعد موته سمكة أو حشرة. ولما كانت جميع الحيوانات عرضة لانتحال روح آدمية؛ حرم الجميع قتلها حتى ولو كانت مؤذية؛ ففي سنة ١٨٩٦ حين فتك الطاعون بالهند فتكًا ذريعًا، عُين مجلس أمر تسار جوائز تصرف لمن يمسك بالفيران كي تحبس، بما فيها من براغيث ملوثة، حتى إذا ما انقضى خطر الطاعون أُطلقت ثانيةً. وفي كثير من البلدان تكثر الطيور الضارة كثرة هائلة فلا يتعرض لها القوم؛ فمثلًا لما كنتُ في كولمبو كانت صيحات الغربان المنفرة؛ تلك التي تسير في سحابات تكاد تكسو أعالي البيوت، تُقلق راحتي، وكنت كل يوم أستيقظ حول الساعة الرابعة صباحًا على أصواتها المزعجة. وكانت تقيم أوكارها في جوانب الحجرات وزواياها بكثرة عجيبة. وبعض الطيور يتلف المزارع، ومع ذلك لا يمسها أحد بسوء، وكأن طوائف الحيوان أحست ذاك الرفق فأضحت مستأنسة. أذكر مرة أني رأيت سربًا من الطاووس يمر بجانبي في محطة مغول سراي في اطمئنان غريب! وكم كنت أدخل من معابد أرى بها القردة تقفز على كواهل الناس وتداعبهم في غير خوف! وقد رأيت قردًا في

سوق دلهي يسترق الفاكهة المعروضة ويأكلها والبائع يراه بعينه فلا يتعرض له. وقد بلغ احترامهم للحيوان حد التقديس؛ فهم يقدسون القرد والفيل والنسر والطاووس والببغاء، وحتى الأفعى التي يموت بسببها عدد كبير كل عام، فنرى لها معابد خاصة تمرح الأفاعي فيها، وتُنحت لها تماثيل يسجد القوم أمامها!

القردة تمرح آمنة حتى في جوار السكة الحديدية.

وصلت مدراس ومنها قمت صوب الجنوب، فزادت الأرض فقرًا وجدبًا، ومررنا بمحطة ترتشنو بولي ذات الصخرة التاريخية المشهورة. وهنا ركب إلى جانبي هندي بادن الجسم منفر المنظر وكأنه «الغول الآدمي»، فجلس بجانبي ونصفه الأعلى عار، ويطلى بشيء كالدهن لامع، تعلوه وجبهته خطوط من التراب الديني الذي كان يجدده بأصابعه بين ساعة وأخرى؛ ليدل الناس على طبقته الدينية الممتازة؛ خشية أن يدنسه من هو أدنى منه! وهو من الوجهاء؛ لما بدا من أتباعه وخدمه من ركاب الدرجة الرابعة الذين كانوا يفدون إليه في الدرجة الثانية كلما وقف القطار! وكان طوال الوقت يتمخط في الهواء مرة كل دقيقتين ويبصق السائل الدموي من أثر العشب الذي يمضغه القوم جميعًا! وكانت سيقانه وأقدامه عارية. ولما حان ميعاد الغداء، أخرج من جانبه قطعة من ورق شجر الموز ووضعها بجانبه، وفتح عامود الطعام واغترف بكامل يده الأرز مرات ووضعه على ورقة الموز، ثم صب عليه بعضًا من مسلى البقر وعجنه بيده، ثم أخذ يلعقه بسرعة واضطراب مخافة أن يقع نظري على الطعام وهو يلتهمه فيفسده! وقد أعاد الكرة من الطاسة الثانية

ثم الثالثة، وكلها من الأرز المسلوق ليس غير! واختتم الوجبة بمسح يديه في جسمه في شكل قذر! على أني لا أغمطه حقَّه في التأنُّق؛ إذ كان يحلي يديه بالسوار العريض، وأصابعه بالخواتيم الثقيلة، وجسده بالعقود، وأذنيه بالأقراط. والشيب والشيخوخة قد نالت منه كثيرًا.

ما زال قبائل الفدا أهل سرنديب يجوبون الغابات بحالته الهمجية.

وصلنا نهاية الهند الجنوبية وانتقلنا إلى جانب البحر كي نستقل السابحة عبر خليج منار إلى جزيرة سيلان. وهنا جاء الطبيب وحجر على جميع الركاب الوافدين من مدراس؛ لأنها كانت مصابة بالكوليرا، وكاد يمنعني من الدخول إلى الجزيرة لولا أن أبرزت له تذكرة السفر على الباخرة «فوشيمي مارو» إلى اليابان من كولمبو في اليوم التالي مباشرة.

خاتمة: ذلك بعض ما رأيته في بلاد الهند التي يخطئ الكثير فيعدونها قطرًا واحدًا، على أنها في الحق قارة؛ لا بل عالم بأسره مذ زاد عديدها على خمس سكان الدنيا، وتعددت شعوبها الذين يتكلمون ٢٢٢ لهجة مختلفة، ونحو خمسين لغة كتابية مُتباينة. وقد اتسع نطاق عقائدهم من أعماق الفلسفة البرهمية الهادئة إلى سذاجة عبادة الطبيعة وتقديس الحيوانات الدُّنيا. والهنود أكثر الناس تدينًا، وبخاصة الهندوس، وهم ٢١٦ مليونًا، ومجموع سكان الهند ٣٢٠ مليونًا، وكانوا عبَّاد الطبيعة منذ ثلاثة آلاف سنة؛ ثالوثهم المقدس «المطر والنار والشمس»، ثم أعقب ذلك اعتقادهم في براهما روح القدس؛

الذي يتغلغل في كل شيء، ويسود كل نفس، ولا تكاد ترى عملًا أو تصرفًا يتم في معزل عن الدين؛ لذلك مثَّلوا براهما في رموز شتى نراها نحن مضحكة عجيبة؛ فبراهما هو الخالق، وله أربعة رءوس، وأربع أذرع، وهو في معنى آخر يتمثل في ڤشنو الإله الحافظ لكل شيء — يحمل طوقًا وصدفة ومضربًا وغصنًا من البشنين كلًّا في يد — وفي معنى ثالث، يتمثل في سيڤا؛ إله التدمير والإنشاء، يحوط أفخاذه جلد النمر، ثم أعقبت ذلك رموز براهما المقدسة؛ وهي: السمكة، والسلحفاة، والحلوف، والإنسان؛ يبدو في صورة الأسد، والبطل راما، وكرشنا، وآخرهم بوذا؛ الذي ضُم إلى القائمة المقدسة استرضاءً للبوذيين! أما البطل راما فكان له خادمه هانومان يعبده القوم في شكل قرد عليه طلاء أحمر. أما كرشنا فيخضب باللون الأزرق، ويطأ أفعًى بقدميه، ويعزف على مزمار، وكان له زوجات عدة وذرية لا حصر لها، وتقدِّسه بصفة خاصة طبقة العمال، وكانت زوج ڤشنو؛ إلهة الجمال والثراء، ظهرت من تحت ماء البحر وكأنها الزهرة، ويقدسها أصحاب المتاجر والحوانيت. أما سيڤا فيختلف إلى المقابر ومحارق الجثث، وزوجته قالي «الفظيعة» التي لا يمكن استرضاؤها إلا بسفك الدماء، وتقديم الذبائح وابناهما: «جانش»؛ مجدد الحظوظ بجسمه البادن يُتوجه رأس فيل، وكارتيكيا؛ إله الحرب، وقائد الأحياء من الجن.

هكذا نشأت عقائدهم، وتعددت آلهتهم، وملأت آفاق الهند معابدهم وأنصابهم في غير حصر حتى حق عليهم قول هيرودوت في أجدادنا قدماء المصريين: «إنهم أكثر شعوب الأرض تعبدًا.» لذلك أضحت البلاد مربى خصيبًا للشعوذة والخرافات والمعجزات التي يعتقدها الجميع بإيمان وثيق؛ فالقديسون — في زعمهم — يستطيعون قطع الألسن، وإرجاعها إلى حالتها الأولى، وإلقاء حبل في الهواء يظل عالقًا، ثم يصعد عليه القديس ويعود وفي يده أشلاء ابن عاق لا يفتأ أن يعيده القديس إلى الحياة! وأمثال تلك الخرافات عديدة، بحيث يخيل للإنسان أن كل شيء مهما بدا معجزًا يمكن حدوثه في تلك البلاد المحوطة بالأسرار.

وعقلاؤهم يمضون وقتهم في التفكير العميق، ويُضنون أجسادهم في سبيل تغذية نفوسهم، فتقتصر أمانيهم على خرقة تستر العورة، وطعامهم لا يتجاوز سد الرمق، وغُلاتهم من مختلف المذاهب يسمون «الفقراء»، ويقدسهم مواطنوهم؛ لأنهم نبذوا الدنيا ورغبوا في الآخرة، فبعضهم يعذب نفسه وينام على القتاد، والبعض يخزم ظهره ويُعلَّق من جسده في الهواء طويلًا؛ استرضاءً للإله سيڤا، والبعض يدفن نفسه حيًّا، أو يرفع ذراعه إلى السماء حتى تتصلب عضلاته، أو يقف طوال حياته وهو يرعش جسمه ولا يتكئ على شيء يخفف من آلامه! وتميز كل أولئك جدائل من الشعر ترسل في غزارة منفرة.

أحد أبطال «الفقراء» خزم ظهره بين إعجاب مواطنيه.

ولا يفوتني أن أشير إلى مبلغ الجهل المطلق والفقر المدقع الذي كنت ألمسه في كل نواحي الهند، حتى كدت أشك فيما قرأته طويلًا عن تلك البلاد وما فيها من منابع للثروة وللعلم لا تنفد؛ فالأمية هناك عامة، والجهل منتشر. وقد ساعدت على ذلك عوامل من بينها: تعدُّد اللغات، وتعدد حروف كل واحدة — بين ٢٠٠ و٥٠٠ حرف — وتعدد الطبقات، وتعدد القرى وتفرقها بحيث يصعب أن تزود بالمدرسين. إلى ذلك عدم الرغبة في تعليم النساء — وهن نصف السكان تمامًا — وكذلك طبقة المنبوذين؛ مما أخرج من دائرة التعليم نحو ١٥٠ مليونًا بين منبوذين ونساء. إلى ذلك إعراض الأمراء عن تعليم الأفراد؛ خشية أن يثوروا عليهم، وعدم توافر المال للإنفاق على التعليم.

أما جانب الثروة فمهمل إلى حد كبير؛ فالأراضي تزرع بطرق عتيقة، وبغير تسميد، والملكية مشتتة في مساحات متفرقة، وإنتاج الماشية معطَّل؛ لأن ٧٠ مليونًا منها في ملكية

«الفقير» المخزوم يتدلى من تلك الرافعة إمعانًا في تعذيب نفسه.

المعابد. إلى ذلك نفقات الزواج التي تلزم الآباء أن يدفعوا لبناتهم أموالًا طائلة. أما الاستدانة بالربا الفاحش فشائعة بين الجميع، حتى قُدِّر الدين على الهند من تلك الناحية بنحو ٤٠٠ مليون جنيه — الربا بين ٣٣ و٢٠٠٪! — ويميل عامة الهنود إلى اكتناز المال، وبخاصة الذهب، ما استطاعوا بغير توظيف، ولا يقل ما هو مكنوز عند الأهالي عن ٥٠٠ مليون؛ فلو وظِّف هذا لأصبحت الهند من أغنى بلاد الدنيا، ويقول رجال الاقتصاد: إن الهند وحدها تبتلع ٤٠٪ من إنتاج الذهب في الدنيا، و٣٠٪ من الفضة في كل عام. ولا تنس أثر التسوُّل في فقر البلاد؛ فالدين البرهمي يحث الناس على التصدق للمتسولين؛ لأن ذلك يعد دينًا لهم يتقاضونه في الآخرة. ولقد نما عدد أولئك حتى بلغ ٧½ ملايين، من بينهم طبقة الفقراء، وهم مليون ونصف تقريبًا. هذا إلى عدد البراهما الذي يتعذر حصره.

ويُعد كثير من الهنود نفقات الدفاع أكبر مُبدِّد لثروة البلاد؛ إذ تستنفد في زعمهم ٥٩٪ من الميزانية، فلا يبقى شيء يُذكر لينفق منه على إصلاح شئون البلاد، وإن قرر الإنجليز

في مواسم الحج تأكل كل طبقة من الهندوس وحدها، وتقدم الصدقات من طعام الأرز على ورق الموز بدل الآنية خشيةَ تدنيسها.

أنها لا تزيد على ٣٠٪؛ أي بمعدل ٢½ شلن على كل فرد في الهند يدفعها في كل عام؛ أعني فوق ثلاثين مليونًا من الجنيهات.

على أنَّا يجب أن نذكر أن مدنية الهند بدأت قبل المدنيات الأوروبية؛ وإن ظل سيرها بطيئًا، وتقدمها غير محسوس. ويرى بعض أبنائها أن مدنية الهند لها فضل على العالم من الناحية المعنوية التي تسعى وراء المثل الأعلى لا المادة، كما في الغرب. ويرى بعض الحكماء أن الهند منشأ الإنسان ومنبت فطنته؛ ففي تلال «سيواليك» الواطئة جنوب سملا وما يليها شمالًا بغرب إلى أفغانستان دفائن قيمة لفصائل بائدة من حيوان يرجع عهده إلى العصر الثالث الجيولوجي؛ وهي أكبر مجموعة كشفت لحفريات الحيوان الثديي دلت على أن شمال غرب الهند هي المنطقة التي نشأت فيها، ومنها تشعبت سلائلها إلى جميع الأصقاع؛ ولذلك أصبحت تلك الزاوية من الدنيا محط أنظار الباحثين من مختلف الأوساط العلمية، وهم يرجحون أنها مولد الإنسان الأول.

الملايو

جنة الدنيا وبستانها اليانع

إلى سنغافورة والملايو: في خمسة أيام بعد مغادرة كولمبو، أقبلنا على سنغافورة وسط الجزائر المنثورة إزاء ساحل سومطرة إلى اليمين، وشاطئ الملايو إلى اليسار، والبلاد صخرية على الجانبين، وبخاصة سومطرة التي بدت في شكل مخيف برُباها المعقدة التي تتعاقب كأنها عقد من جبال لا نهائية. وكنا نقدم ساعاتنا كل يوم حتى بلغ مجموع ما قدمناه من كولمبو ساعة ونصف، وكأننا بذلك كنا نتعجل الأيام ونسابقها؛ إذ كنا نقارب مشارق الشمس فيبكر ميقات الظهر كل يوم عن سالفه.

سنغافورة (ومعناها مدينة الأسد): بدت ممدودة الأرصفة على جوانب الربى التي يتلوى خلالها البحر في عدة أجوان مكَّنتها أن تُؤوي من السفن شيئًا كثيرًا، كل طائفة في مقصورة منعزلة عن الأخرى. وعلى جوانب الربى تقوم المساكن بسقوفها الحمراء المتحدرة، وتشرف عليها الحاميات العسكرية العاتية. حللت المدينة فاسترعى نظري بها حسن القيام على طرقها الفسيحة النظيفة، تجانبها المجاري لتصريف مطرها الوابل المستمر. والترام هناك يسير على الأرض في غير قضبان؛ يكسو عجله المطاط المصمت، وله سنجتان متجاورتان بسلكين، وهو يسير بمهارة عجيبة، ويتلوى من جانب إلى الآخر والسنجة لا تزال متصلة بالأسلاك. وغالب البيوت في هندسة بسيطة لا تزيد على طابقين، وتشرف على الطرق ببوائك ضيقة بدل الإطارين؛ اتقاء المطر، وعليها تقوم المحال التجارية بإعلاناتها التي تكتب بالصينية والإنجليزية في شرائحَ مستطيلةٍ. وغالب السكان من الصينيين، يليهم

الهنود، ثم الملايو. ومن الغريب أن الذين يفهمون الإنجليزية قليلون. ويشق الجزيرة نهر سنغافورة الصغير، تجانبه شعاب البحر الضيقة وكأنها القنوات تعبرها القناطر الحديدية، والمتنزهات الجميلة والميادين الجذابة لا تدخل تحت حصر. والمدينة خفيفة الروح إلى حد يجعلها من المدائن النادرة. وفي المساء دخلت ملهًى تُعرض به بعض ألعابهم؛ أذكر منها مقصورة الغناء الصيني؛ كأن يجلس الفتيات حول مائدة عليها الأنوار، وحولها المصابيح المعلقة من الورق الصيني الملون. وكان يقف خلفهن قارع الطبل، وضارب الناقوس، وعازف «الرباب». أما الغناء فتوجُّع في غير توافق. وكانت تخفي شدة الطبول المزعجة تلك الأصوات المنفرة، ثم مقصورة للرقص الصيني، وغالبه بحركات الأرجل والأيدي، وثالثة للتمثيل على النمط الهزلي المصري. ولم يكن تزاحُم القوم على تلك الملاهي كبيرًا رغم رخص أجورها، وكانت تسترعي نظري الثروة الهائلة في النبت من حولي أينما حللت، مما أيد القول بأن الملايو جنة الدنيا وبستانها اليانع. وأخص أنواع النبات هناك «المطاط» بأشجاره الفضية النحيلة الباسقة، التي تعد اليوم أعظم موارد الثروة هناك، على الرغم من أن أثمانه قد تدهورت تدهورًا مخيفًا، حتى بدأ القوم يفكرون في استبداله بغيره. وقد كانت النباتات متعددة وغلات البلاد منوعة، لكن علو سعر المطاط حدا بهم إلى استئصال كل ما عداه، حتى كاد شجره اليوم يسد الآفاق، مع أنه دخيل أتى به القوم من أمريكا عقب أن كشفها كولومب، الذي رأى صبية الأمريكان يلعبون بالمطاط الكرة، فتساءل: ماذا عسى أن تكون تلك المادة التي تبدو صماء ثقيلة، فإذا ما لمست الأرض أضحت جوفاء خفيفة؟! فأجابه القوم قائلين: «كاوتشو.» وأروه شجره وعصيره الذي إذا سخن جمد، وكوَّن تلك الكور والأقراص السوداء، وكذلك رآه بتزارو فيما بعدُ في بيرو، وقد ضايقه المطر فرأى الأهالي يلبسون أحذيتهم وأغطية رءوسهم من «الكاوتشو»، فنقلوه إلى الشرق ولم تعرف فائدته في مسح الكتابة إلا بعد قرنين ونصف. وفي القرن التاسع عشر، استخدم في الأنابيب، ثم صنع منه «ماكنتوش» رداءه الواقي من المطر، بأن ألصق قطعتين من القماش بمطاط رخوٍ لين. وأخيرًا عرفوا كيف يخلطونه بالكبريت ليحتمل تقلب الأجواء. ولما زادت شهرة المطاط زرعه الإنجليز في حديقة «كيو» في لندن داخل بيوت زجاجية، ومنها نقل إلى المستعمرات الشرقية، ومن بينها سيلان والملايو. وهنا أحرق القوم أشجارهم جميعًا؛ ليخلو الجو لشجر المطاط، وكنا نرى العمال في المزارع يجوبون أرجاءها بمشارطهم التي يشقون بها خدوشًا تسيل منها العصارة إلى كيزان معلقة، ثم يجمع العامل الواحد في كل يوم محصول ٣٠٠ أو ٤٠٠ شجرة، وينقله إلى المصنع وسط المزرعة؛ ليغلي ويصير أقراصًا

هي المطاط الخام. وقد كان يباع الرطل قديمًا بستين قرشًا، فنزل اليوم إلى قرشين ونصف؛ لذلك حلَّ بالبلاد كساد لم يسبق له مثيل، وأفلس في المطاط كثير من كبار التجار هناك، على أن البعض يرى بصيص أمل في أن هذا الرخص سيزيد الطلب على المطاط، فيعود إلى حالته المربحة رغم ثمنه الضئيل.

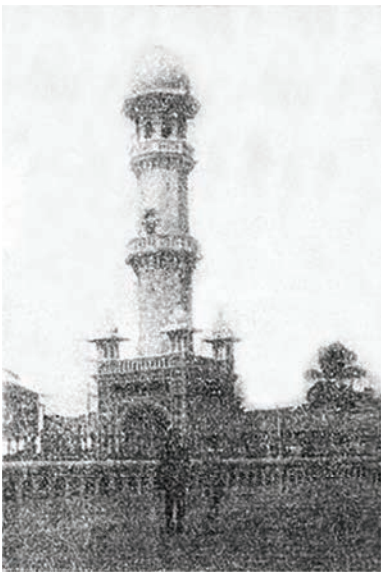

أمام مسجد سنغافورة.

سلطنة جوهور: من ضواحي سنغافورة ركبنا إليها سيارة عبرت جزيرة سنغافورة كلها سائرة إلى الشمال صوب الملايو، ولا تسل عن ثروة الطريق في الأدغال والغابات، بعضها غفلٌ لم تمسسه يد الإنسان. وهنا كدنا نذهل لتعدد الفصائل من الشجر والعشب والسرخس. إلى ذلك الحيوانات الوفيرة، وبخاصة القردة، التي كانت تطل علينا من جميع جوانب الغابات، ويقول القوم بأن تلك الأماكن غنية جدًّا بالأفاعي والخفاش واليراعة وبعض الوحوش. أما طريقنا فكان يتلوى كالأفعى وسط الغابات القاتمة. وحيث كانت تتعهد الأرض يد الإنسان، كنا نرى أشجار المطاط في صفوف متوازية تكاد تملأ ثلاثة أرباع

فتيات الملايو في سحنهم العربية الجميلة يجمعن المطاط.

الأراضي. وقد مررنا ببعض المزارع وفيها بدأ ذووها يستأصلون الشجر؛ ليفسحوا المجال لغيره؛ كالخضر والفاكهة، وبخاصة الأناناس، الذي كان يبدو نباته وكأنه الصبار الكبير، تتوسط كل شجيرة ثمرة واحدة في طول «كوز الشمام»، وفي لون برتقالي، وملمس خشن محبب، وكلما قطعت الثمرة أعقبتها غيرها، ويستمر الإثمار طول العام.

لبثنا نسير بالسيارة وسط تلك الجنة النادرة زهاء ساعتين، وبعدها عبرنا البوغاز إلى الملايو، فدخلنا سلطنة جوهور؛ وهي إحدى ولايات الملايو التي يحكمها سلطان مسلم تحت إشراف الإنجليز، وعندما قاربنا قصر السلطان دخلنا في مجموعة من متنزهات أُبدع تنسيقها، يتوسطها قصر من طابقين، تمد في الدور الأسفل غرف الولائم، وعليها السمط الفاخرة، وغرف المعروضات من الهدايا بين فضة وذهب وأسلحة. وفي الطابق الأعلى، غرف الجلوس والنوم، وكلها على النمط الغربي. والسلطان زوج لإحدى الأوروبيات، قلَّما يقيم

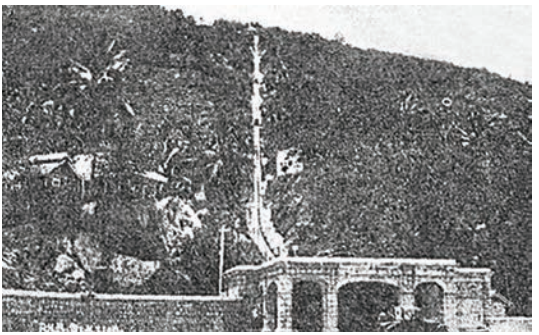

صخرة بنانج تكسوها الغابات ويتسلقها ترام الجبال.

هناك؛ فهو يمضي تسعة شهور خارج بلاده، ويعيش عيشة بذخ وإسراف شديد، والناس من دونه يكاد يقتلهم الفقر. وهكذا سائر الأمراء أمثاله في تلك الولايات؛ ينعمون على حساب الرعايا البائسين؛ فسبحان مقسم الأرزاق! وبجانب القصر مسجد في هندسة شبه مغولية تقوم حوله أبراج بدل المآذن، وبهوه فاخر النقش والأثاث. ينزل الإنسان درجًا من رخام إلى المغسل «الميضة» الفسيحة للوضوء. وفي عودتنا إلى سنغافورة، زرنا حديقة النبات ذائعة الصيت، وبخاصة في مجموعة أشجار الفاكهة الممتازة.

أبحرت الباخرة وظلت تسير خلال مجاميع الجزائر تكسوها الغابات والربى زهاء ثلاث ساعات، مما يقنع المرء بعظمة هذا الموقع من الوجهة العسكرية؛ فهو حقًّا مفتاح الشرق الأقصى؛ ولذلك ليس بعجيب أن وجدنا العمل سائرًا على ساق وقدم في إنجاز القاعدة البحرية الكبرى، رغم أكلافها الباهظة التي لا تقل عن أحد عشر مليون جنيه. وأول من احتل جزيرة سنغافورة «السير ستامفورد رافل» سنة ١٨١٩، وكانت تكسى بالغابات المهملة، وبها قرية حقيرة، فابتاعها الإنجليز من سلطان جوهور بخمسة آلاف جنيه، و١٥٠٠ جنيه كمرتب سنوي يُدفع مدة حياة ذاك السلطان. واليوم تضخم سكانها فأضحوا ٤٢٠ ألفًا، منهم ٣١٥ صينيون، و٥٤ ملايو، و٣٢ هنود. ولكثرة التزاحم هناك، بدأت الحكومة تفكِّر في تحديد المهاجرة إليها. واعترافًا بفضل «السير رافل»، ترى تمثاله يزين أكبر ميادين المدينة، واسمه ذائع في كثير من منشآتها.

تقوم بيوت الملايو على عمد من خشب وسط الغابات.

أما سائر الملايو فتتألف من ولايات بعضها مؤتلف، والبعض تحت سلاطين مستقلين، وجميعهم تحت إرشاد الإنجليز. وأول مكان احتله الإنجليز من شبه الجزيرة مدينة ملقة، التي انتزعوها من هولندا، ثم بنانج؛ وهي جزيرة على الساحل الغربي. وكانت تدير كل ذلك شركة الهند الشرقية، ثم انتقلت للتاج البريطاني. ويغلب أن تكون الجهات التي تقام بها الحصون الإنجليزية إلى الجانب الغربي من الملايو؛ لتشرف على البوغاز.

رسونا على بنانج: في عودتي لمصر، ويفصلها عن الملايو بوغاز ضيق يؤوي عددًا كبيرًا من السفن. والجزيرة صخرية يحيط بشاطئها طريق مبسوط محيطه ٢٦ ميلًا، وتُقام غالب المساكن على جانب ذلك الطريق، على أن بعضها كان يقوم على منحدراتها، التي يعلو بعضها إلى ثلاثة آلاف قدم. أما الطبقة الممتازة، فتقطن الذروة التي تصلها بقطار كهربائي هوائي. ومن هنالك ينكشف منظر البحر وشتى جزائره في رواء ساحر. ومبانيها شبيهة بتلك التي في سنغافورة، وكذلك ساكنوها، ولعل أجملهم سحنةً: الملايو؛ فهم أقرب

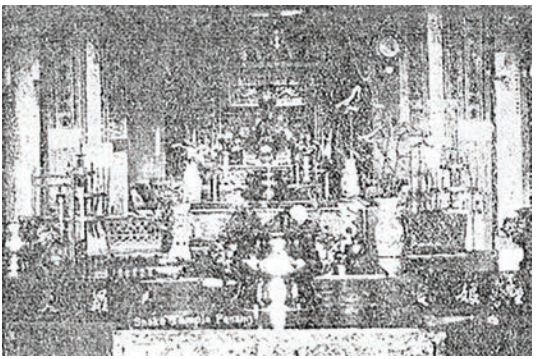

معبد الأفاعي تمرح به الحيات وتتدلى من جميع الأركان.

إلى الملامح العربية في سُمرة خفيفة، وهم أخف روحًا، وأكثر جاذبية من الصينيين والهنود. وتعوز الجميع النظافة. وغالبهم يبدو بجسمه العاري البراق المنفر، وقد التصقوا بجدران دورهم في خمول زائد. ولعل للجو الرطب الحار المجهد أثرًا في هذا. أما ضواحي المدينة فتكسوها الغابات الكثيفة، وكان أظهر شجرها النرجيل والمطاط وبعض أشجار الفاكهة الغريبة؛ كالمانجوستين والراموندان والدوريان. ولغالبها أهداب في ألوان مختلفة، كذلك فاكهة الخبز والأناناس وكثير غيرها. وكانت تقوم مساكن القوم وسط تلك الغابات شأنها في جميع بلاد الملايو على عمد من جذوع الشجر؛ لاجتناب السيول والحشرات، وليستظلوا بالشجر الكثيف من وهج الشمس الاستوائية. وهناك حديقة للنبات شبيهة بتلك التي في سنغافورة. ولعل أغرب ما زرته هناك معبد الأفاعي؛ دخلناه فراعنا كثرة الأفاعي الطليقة التي لا تصيب أحدًا بأذى، رغم أنها كانت تسير حولنا، وتزحف فوق أكتافنا بأحجامها المختلفة، ونقوشها البديعة، وكان كثير منها يتدلى من الأركان والمصابيح والشرفات، وعددها مائتان. تستهلك في اليوم مائة بيضة، وهي تخرج لتمرح في الغابات المجاورة للمعبد ليلًا، وتظل طوال نهارها داخل المعبد. وغريب أنها لا تؤذي رغم وجود أسنانها، وكنا نرى كثيرًا من جلودها الشفافة التي انسلخت عنها معلقة في كامل طولها ونقشها. وهناك في قفص كبير أفعى بالغة الحجم والطول تنفر نفرات مخيفة كلما أحطنا بها. ورواد المعبد يقدسون تلك الأفاعي، ويقدمون لها المساعدات المالية؛ إبقاءً عليها، وإجلالًا لها!

ونفقات المعيشة في تلك البلاد عالية إلى حد لا يطاق، رغم أن المرء يزهد في المقام في جوها المحرق القتَّال.

غادرنا الملايو وسنغافورة صوب بلاد اليابان، وبعد خمسة أيام وصلنا هنج كنج. وفي ثلاثة أيام رسونا على شنغهاي، ثم تبعتها كوبي؛ أول ثغور اليابان، في ثلاثة أيام أخرى.

اليابان

آية العصر في الإخلاص والنهوض

نبذة تاريخية: يبدأ تاريخ اليابان منذ عهد الإمبراطور «كيماي تِنو» سنة ٥٤٠ ميلادية، وسبقه نحو ألف عام سادتها الأوهام والأقاصيص عن بعض الأبطال؛ إذ لم يدون عنها شيء باليقين. وفي القرن السادس دخلت البوذية البلاد، وبدأت مدنية اليابان الحقة؛ فلقد أحضر القسس من كوريا كتبهم المقدسة، ونقلوا معهم فن الطباعة، وتماثيل بوذا، وطائفة من صانعي التماثيل، وبناة المعابد، والمصورين والمثَّالين والمُدرسين، ونشروا التقويم والحساب الصيني. ولقد ساد الدين الجديد عقول البلاط حتى عدوه دين الدولة سنة ٦٢١، وعدَّ الأمير «شوتوكو» مؤسسه، على أن دين البلاد — الشنتوي — قاوم الدين الجديد في البدء، لكن سرعان ما تهادن الاثنان لما أن اعترف البوذي بالآلهة الشنتوية! نهض عندئذ الفن الياباني ونشطت العمارة، فظهرت آثارها في معبد «هوريوجي»؛ أقدم بناء أقيم من الخشب في العالم، والأثر الوحيد الباقي اليوم الذي أقيم على نمط الهندسة الكورية والصينية منذ ١٣٠٠ سنة.

وفي صدر القرن السابع، سادت الحضارة الصينية الناس جميعًا، حتى في نظام الحكومة الذي تغير من الحكم الإقطاعي إلى الملكية سنة ٦٠٣، فقسمت فروع الإدارة على النمط الصيني، ونشأت طبقة من الأشراف، على أن هذا النظام كان له خصوم، فساعدت المشادة بين الفريقين على قيام هيئة عسكرية امتازت على جماعة الزراع، واتخذت «نارا» عاصمة البلاد كلها سنة ٧١٠، وهنا ازدهر الفن؛ يؤيد ذلك التمثال الأكبر «دايابوتسو»

لبوذا، ولا يزال أكبر تماثيل اليابان من النحاس، ثم الناقوس الأكبر، وكذلك أقدم كتاب خط باليابانية.

وعلى أثر ازدياد الحماسة للدين الحديث، كثرت المنشآت الدينية، واتسعت أملاكها وثروتها، تحرسها فئة مسلحة لم تلبث أن تدخلت في شئون الدولة، فلم تر الحكومة بدًّا من نقل العاصمة إلى كيوتو سنة ٧٩٤، التي ظلت مهدًا للحضارة أربعة قرون حتى كانت سنة ١١٩٢، حين أقام «يوريتومو» حكومة عسكرية في كاماكورا، فأصبح نفوذ الحاضرة الإمبراطورية «كيوتو» صوريًّا بجانبها، واختار وزراءه من زعماء عائلات خاصة طالما أدى التنافر بينها إلى قتال داخلي، وآلت سلطة البلاد إليهم، وأصبح الميكادو لا حول له ولا قوة.

أخضع «يوريتومو» البلاد جميعها، وازدهر في كاماكورا نوع من الحضارة ساذج يلائم الروح العسكرية إذ ذاك. ومن العائلات التي سادت متعاقبة فوچيوارا، طايرا (هايكي)، وميناموتو (چنچي)، ومن الأسرات الهامة عائلة «هوجو»، التي سادت مائة سنة حتى غلبتها أسرة «تيتا» حين أحرقت العاصمة كاماكورا وأعيد الإمبراطور «جودايجو» من منفاه، فزادت حركة العصيان حتى قامت حكومة «شواجن آشيكاجا» في كيوتو. وهنا امتاز العصر بالتهذيب الذوقي والرقي الفني، وانتشرت حفلات الشاي والتمثيل والرقص على نمط «نو» القديم، ونشطت التجارة مع الصين، وتزاور القسس ورجال الفن بين البلدين. وفي ١٥٤١، وصلت أول باخرة برتغالية وتبعها الإسبان، ثم أسست أول بعثة للجزويت سنة ١٥٤٩.

سادت الفوضى البلاد مائة عام حتى جاء «هيديوشي»، فهدَّأها وحاول فتح كوريا والصين سنة ١٥٩٢، لكن أهل كوريا بمعاونة الصين وقفوا في سبيله، وتبع هذا نزاع داخلي أدى إلى انتصار «أيياسو»؛ من أسرة «طوكوجاوا»، سنة ١٦١٥، وظلت حكومة شواجن تلك الأسرة ٢٥٠ سنة، استمتعت البلاد خلالها بالسلم والانتعاش، خصوصًا وأنهم أباحوا حرية الاتجار والعقائد، فشجر النزاع بين الهولنديين والبرتغال سنة ١٦٣٧، فتدخلت الحكومة اليابانية وقاومتهم بالشدة، وحرمت على الأجانب الدخول إلى بلادها حتى كانت سنة ١٨٥٣، حين أقبل الكومودور ببري من أمريكا يطالب اليابان بفتح ثغورها للتجارة الأجنبية، فأسرع الشواجن إلى الميكادو — وكان قبل مهملًا — فطلبوا منه السماح بذلك، فرفضت الحاشية وقرروا طرد الأجانب جميعًا بقوة الدايميو، فرجع الأجانب يطالبون بالتعويض عما فقدوا من بواخرَ ورعايا. ولما ظهر الشجون (كايكي) إذ ذاك بالعجز عن معالجة الموقف، تنازل عن حقوقه للميكادو الذي استعاد سلطته لأول مرة بعد أن سُلبها ألف عام.

ومنذ ١٨٥٨ أمضت البلاد عدة معاهدات مع الأجانب، وبدأت تشعر بحاجتها للنهوض؛ كي تتمشى مع العالم المتمدين، وكان في عجزها أمام الأجانب حين أرغموها على التعويض خير حافز لها على بناء الجيوش والأساطيل، التي زادت سمعتها في انتصارها على الصين سنة ١٨٩٢، وعلى الروسيا سنة ١٩٠٤، حين بسطت نفوذها على كوريا وشبه جزيرة لياو تونج، وسكة حديد منشوريا، وجنوب سخالين. وفي ١٩١٠ تم لها ضم كوريا نهائيًّا، وتعاونت مع الحلفاء في عصيان الملاكمين Boxer. وفي الحرب الكبرى خطتْ إلى الأمام خطوات الجبابرة، وأصبحت آية الدنيا جميعًا في التقدم والنهوض.

اليابان

أصبحنا والجزائر الصخرية تنتثر من أيماننا وشمائلنا في غير حصر، وشعر اليابانيون أنهم في دارهم؛ لِمَا كان يبدو على وجوههم من بِشرٍ وكبرياء وتفاخر؛ إذ كنا نرى البواخر اليابانية تمخر عباب الماء بين الجزائر المترامية في كثرة هائلة، وكانت تبدو على ذرى تلك الجزائر الحصون العاتية، وساريات البرق اللاسلكي، وكلما أوغلنا في تلك المياه اليابانية بدت منعة المكان ذاك، الذي لن يدركه العدو كائنةً ما كانت قوته. ولا شك أن لموقع جزائر اليابان فضلًا كبيرًا في دفع غائلة الأجنبي عنها. ويحظر القوم إظهار آلة التصوير في تلك البحار. وكنت أراهم طوال المدة يتطلعون بشيء من الإكبار لوطنهم والإخلاص له؛ ذاك الإخلاص الذي أضحى مضرب الأمثال. وكم كنت أغبطهم على موقفهم هذا! وأتألم لنصيبنا من تلك العزة. بدت إلى يميننا جزيرة كيوسيو — ومعناها أرض القارات التسع — ثم تبعتها جزيرة سيكوكو (أرض القارات الأربع). وكانت تبدو مداخن المصانع العديدة شامخة في السماء. ولبثنا النهار كله والجزائر تترامى والبواخر اليابانية تمر تباعًا. أما مشاهد الطبيعة هنا فساحرة؛ جزائر تترامى في أشكال هندسية متباينة، تميزها المخاريط البركانية، وتكسوها الخضرة المدرجة، والسماء تنتثر بالسحب الخفيفة التي تنعكس عليها أضواء الغروب في بريق يستهوي القلوب، ويسمون ذاك القسم البحر الداخلي، وهو يمتد بين الجزيرتين السالفتين جنوبًا، وجزيرة هندو (القارة الرئيسية في لغتهم) شمالًا، وامتداده ٢٧٠ ميلًا، ويتسع ما بين ثلاثة أميال وثلاثين، ومجموع جزائره تناهز ثلاثة آلاف، ولعله أجمل بحار اليابان طرًّا.

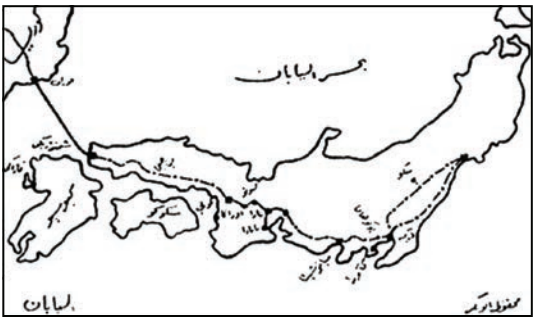

البحر الداخلي وجزائره الأنيقة المترامية.

أقبلنا على كوبي؛ أكبر ثغور اليابان التجارية: فبدت أرصفة الميناء ممدودة إلى الآفاق وهي تغص بالبواخر العظيمة والمدينة تقوم في حجر جبل مشرف تكسوه الغابات، وتزين منحدراته مباني المدينة في رونق جذاب، وما كدت أطأ أرضها حتى بدت الحياة اليابانية في مظهرها الفذ، فكل شيء عجيب جميل؛ الناس يسيرون في سيل دافق، كلٌّ إلى عمله بنشاطه المشهور، وأنت لن ترى منهم عاطلًا أو خاملًا، ولا تسمع لكثرتهم جلبة ولا ضوضاء، اللهم إلا قعقعة أحذيتهم الخشبية (قباقيبهم)؛ نساءً ورجالًا؛ تلك التي تسترعي الأنظار، وقد تثير السخرية بادئ الأمر، على أنها خير دافع عنهم أثر رطوبة جوهم إلى الاقتصاد في أكلافها. والعجيب أنك تراهم يسيرون بها في سرعة عجيبة وإن اعوجت مشيتهم، حتى ليخيل

حسناء يابانية في كامل ردائها القومي.

إليك أن في أرجلهم غمزًا. والجميع يلبسون الأردية الفضفاضة التي يسمونها «كيمونو»، وكأنها «القفطان» بأكمامه الهادلة المتسعة، وحزامه العريض، والرداء يكاد يلمس القدمين لطوله، ويغلب أن يكون من قماش خشن بسيط اللون للرجال؛ لأنهم يمتدحون الخشونة والتقشف. أما النساء ففي حرائر مهفهفة، وألوان فنية ساحرة، وتحاول كل سيدة ألا تلبس من لون سبقتها إليه غيرها؛ لذلك اضطر النساجون أن يحيكوا هذه الأقمشة قطعًا مختلفة تكفي كلٌّ لرداء واحد. ولعل أعجب ما في السيدة حزامها وشعرها. أما الحزام «أوبي» فبالغ الطول والعرض، عرضه فوق ثلث المتر، وطوله أربعة أمتار إلا قليلًا، يلف حول الجسم مرتين، ثم يربط الباقي فوق الظهر في شكل منتفخ كأنه الفراش بديع اللون، على أني خلته بادئ الأمر وسادة تحملها السيدة؛ كي تتكئ عليها إذا ما جلست! وما كان

أشد خجلي عندما سألت أحدهم: لماذا تحمل السيدات تلك الوسائد الثقيلة؟! فخبرني أنه رباط الزينة والتجمل! وقد علمت أن متوسط ثمنه لا يقل عن عشرة جنيهات.

الشعر آية التجمل عند اليابانيات.

والنساء سافرات وليس بينهن كواعب قط، ورءوسهن عارية يكسوها تاج طبيعي من شعر أسود براق ثقيل يعنون بتنسيقه العناية كلها، وهو الذي يعد مقياس الجاه والجمال، وتراه يكور ويطوى فوق شباك من السلك في أشكال هندسية عجيبة جذابة تختلف باختلاف الطبقات والأعمار، والأغنياء يستقدمن الماشطات في كل أسبوع لتعده. ولا يقل أجرهن عن جنيه. وتظل شباكه الأسبوع كله أو تزيد.

أما الوجوه فمصفرة اللون، منحرفة العيون، ويغلب أن يستخدمن الأدهنة البيضاء لا الحمراء، وجمال الوجوه نادر وإن كانت الرشاقة والجاذبية بالغة حدًّا كبيرًا؛ يزيدها حسنًا ذاك الهندام العجيب في ألوانه الرقطاء الزاهية، وتلك المشية التي تخب بها السيدة وكأنها البجع الساحر.

قمنا بجولة في جهة ريفية تسمى «أراشياما» في قاطرة كهربائية سلكت طرائقَ متلويةً تحوطها الغدران والتلال، تجللها الغابات في مناظرَ ساحرةٍ شأن سائر الريف هناك. وأخيرًا حللنا القرية التي تقوم على جدول ماء يتلوى يمنةً ويسرةً وسط الرُّبى الشاهقة، تتخللها البيوت من خشب في شكل نظيف أنيق، وبعض أجزائها تُتَّخذ حوانيت ومقاهي صغيرة. وكنا نرى السلع تعرض وعليها أثمانها، فيمر الواحد ويتناول ما يريد ويلقي بدريهماته في صندوق مغلق في غير حاجة إلى رقيب، فانظر مبلغ الأمانة وثقة القوم في طهارة أخلاقهم! أخذنا زورقًا وذهبنا في الغدير بعيدًا وسط الخضرة الوفيرة والجنادل والمنحدرات تحوطها الزهور. وهكذا طبيعة اليابان في كل ناحية منها، فليس بعجيب أن يقدرها أهلها ويعشقوها؛ بل ويعبدوها! فتراهم يخرجون متجولين في هدوء شامل، وخيال سارح، وهم ينقلون عنها أسماءهم؛ إذ تراهم يحملون اسم جبل شامخ، أو ذروة سامقة، أو حقل ممتد، أو مرج جذاب؛ كذلك فهم يقدسون المكان الجميل، فتقوم عند مدخله أقواس من خشب هي شعار التقديس لديهم، ولا يخلو مكان جميل من معبد؛ لأنهم عبدوا طبيعة بلادهم الطاهرة. ويخال بعضهم أن تقديسهم لوطنهم أثر من آثار جمال بلادهم التي استمالتهم فعبدوها وقدَّسوها. إلى ذلك الزهور التي نبغوا في تنميقها وترتيبها حتى الأطفال منهم، فلهم في تنسيقها نظم تختلف باختلاف البيئات والمناسبات، فكل تصنيف منها يدل على معنًى خاص يفهمونه لمجرد النظر إلى باقة من الزهر، وهي في مقدمة ما يتعلمه النشء في المدارس، وبخاصة الفتيات. ولا يكاد يمضي شهر، لا بل أسبوع، لا ترى به طائفة جديدة من زهور، وهم لذلك يحبذون الحساب بالتقويم الزهري، فتراهم يؤرخون الخطاب مثلًا بزهرة كذا بدل كتابة التاريخ؛ لأن لكل أسبوع طائفة خاصة من زهور يعرفها الجميع.

آوينا بعد تلك النزهة الساحرة إلى نزل ياباني، وما كادت تقف بنا السيارة أمامه حتى أسرع أصحابه؛ رجالًا ونساءً، ملاكًا وأتباعًا، يتقدمهم رئيسهم لاستقبالنا، شأنهم مع كل ضيف، وصاحوا جميعًا صيحة ترحيب أعقبتها سلسلة انحناءات عاجلة متكررة تكاد تلمس فيها جباههم الأرض؛ احترامًا وتأدبًا! والعادة أن يرد الضيف التحية بأحسنَ منها؛ وإلا عد ذلك من سوء الأدب، فأخذنا ننحني مرات كنت خلالها موضع سخرية أمام نفسي؛ لأني لم أكن أعرف كيف تكون وما حدودها! بعد ذلك تقدمنا نحو المدخل، فراعنا صفيف «القباقيب» والأحذية على جانبيه، وكلها لنزلاء الدار؛ إذ يجب خلع الأحذية جميعًا أمام البيوت والفنادق، فخلعنا أحذيتنا وناولتنا الفتاة «خفًّا» من الخوص وكلها صغيرة الحجم؛ لأن أقدامهم أصغر بكثير من أقدامنا، أخذنا نسير به في دهاليز الدار، وكلها تقام من خشب

يطلى بأدهنة براقة غاية في النظافة، ويهتز تحت أقدامنا، وكان النزل من طابقين. ولما أن وصلنا غرفتنا خلعنا الخف أمامها، ودخلنا غرفة صغيرة تفرش أرضها بقطع من الحصير السميك الطري يحوط كل واحدة إفريز أسود، ولا تكاد ترى داخلها من الأثاث إلا منضدة واطئة في الخرط الياباني حولها الحشيات «الشلت» الوثيرة يجلس القوم عليها ركعًا طوال الوقت، وخلف الضيف مقصورة هي لديهن موضع التجلة والتقديس «توكونوما» بها «ڤاز» ثمين يملأ بالزهر المناسب للمقام، ويغلب أن تطل الباقة نحو الضيف؛ علامة الترحيب به، وهم يقرءون في كل باقة معنى جديدًا لمجرد النظر. وعند المدخل حاجز «باراڤان» قصير أنيق، وتتدلى من الجدران ألواح مصورة «كاكيمونو» برسوم يابانية ثمينة. أما النوافذ فمعدومة؛ لأن جانب الحائط ينفتح كله بالانزلاق وراء الذي يليه، بحيث يمكن أن تصبح الحجرة شرفة «بلكونة»، أو تزال فواصل الحجرات كلها، فتظهر اللوكاندة كلها بهوًا واحدًا. كذلك الحالة في مساكنهم جميعًا في الريف والحضر.

تربية الزهور يدرسها حتى الأطفال منذ نشأتهم.

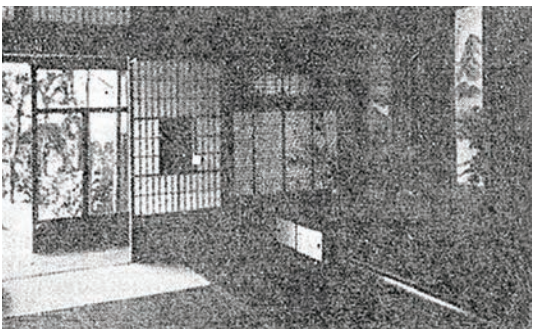

جانب من بيوتهم الخشبية المنسقة.

أخذنا مجلسنا «القرفصاء» من المائدة، فتقدمت منا فتاة بكوبين صغيرين من شراب أخضرَ — يعتقدون أنه قاتل للعطش — لم يرقني طعمُه، وعلمت أنه مسحوق الشاي يُغلى في الماء، ثم دنت منا فتاة ثانية وبيدها سلة صغيرة من خيزران (بامبو)، وبها قطيلة (فوطة) مبللة بماء مغلي يتصاعد منه البخار، فتناولناها ومسحنا بها وجوهنا وأيدينا، فشعرنا بانتعاش كبير في ذلك الجو الحار، وتلك تقدم في كل مكان حتى في المحال التجارية. وبعد هنيهة أقبلت فتاة أخرى تحمل الشاي الياباني المخفف الذي لم يكد يصفر ماؤه، والذي يتناوله الجميع بدون تحلية قط (بدون سكر) في قعاب صغيرة مكورة من الخشب الياباني الثمين (اللاكيه)، وما كاد يستوي بنا المجلس حتى أقبلت الفتاة تهمس في أذني، فلم أفهم اليابانية، فخبَّرني صاحبي أنها تريدني أن أخلع بدلتي لأرتدي «الكيمونو»، فقمت وهي تلازمني وتتقدم بنفسها لتخلع عني ملابسي وترخي الكيمونو على جسدي. وكان يملكني الحياء لولا ما رأيته من جرأة صديقي الذي علمتُ منه أن لا حرج في ذلك؛ فتلك عادة القوم هناك. ولما أن عدت إلى المائدة أقبلت فتاة الحمام تقول إنها أعدته لي، فقلت لصاحبي: لا حاجة لي به. ولكن علمت أن ذلك ينافي طباعهم؛ إذ هم يرونه فرضًا على الجميع أن يستحموا مرة أو اثنتين في اليوم. قادتني هي وجمع من صويحباتها إلى الحمام. هنالك دخلت غرفة صغيرة صفَّتْ بها الحشيات والتكآت للاستراحة قليلًا بعد الحمام، ومن داخلها حوض الحمام من خشب نظيف يملؤه ماء ساخن جدًّا في درجة حرارة تتراوح بين ٤٠ و٥٠م، وإلى جانبه مقاعد صغيرة من خشب وأكواز ومناطيل خشبية. وقفت الفتاة

وانتظرتُ في حيرة حتى تخرج لأوصدَ الباب، فما كادت تجتاز الباب إلى الخارج حتى أسرعت بغلْقه، لكني لم أجد به ما يحبسه عن الفتح فخلعت ثيابي، وإذا بالفتاة تدخل وتنظر إليَّ كأنها تريد أن تخدمني في شيء! فجلست خجلًا إلى جوار الحوض. ولما أن أدركتْ ما كنتُ فيه من ربكة خرجتْ، فأسرعت بدعك جسمي بالصابون، وما كان أشد دهشتي حين دخلت مع زميلات لها وكأنها شكتني إليهن! فما كان مني إلا أن رميت بنفسي في الحوض رغم مائه المحرق! هنا علتْ صيحة الضجر منهن وأسرعن إلى الخارج، ولم أدر ما الخبر، فعجلت بالخروج وإذا بالهرج قد زاد وعلا! وعلمت بعدُ أنني ارتكبت خطًا فاحشًا؛ لأنه لا يجوز النزول في الحوض؛ مخافة تدنيسه! فكانت مني اعتذارات لا أظن أنها كفَّرت لديهم عن سيئتي هذه؛ لأني حرمت الاستحمام كل نزلاء اللوكاندة سحابة اليوم حتى يطهر ويجدَّد ماؤه! وعجبت إذ علمت بعدُ أن رؤية الأجساد عارية من الجنسين أمر طبيعي لا غبار عليه عندهم! فالفتيات يناولن الرجال ما يطلبون، ويغسلن لهم ظهورهم وهم عرايا! وكثيرًا ما يغتسل اليابانيون؛ نساءً ورجالًا، أمام بيوتهم في جانب من الطريق لا ينظر إليهم أحد، خصوصًا بين الطبقات الفقيرة. وقد كانت الحمامات العمومية خليطًا من الجنسين معًا. ولما أن كثر نقد الأجانب لهم أمروا بوضع حبل يفصل بين ناحية النساء والرجال! أمر نراه نحن شائنًا وهم يرونه عاديًّا لا يقع بسبب فساد قط! ولا يأمن الغريب وهو في الحمام أن يطل عليه الجميع من شقوق الجدار الخشبية، خصوصًا وأنهم يعجبون لأجسادنا الطويلة، وسحننا الغريبة عنهم. ويستنكر الأجانب رؤية أجساد اليابانيين أو اليابانيات عارية، على أن اليابانيين يرون ذلك أمرًا طبيعيًّا؛ فهو مهدئ للميول الجنسية التي تبدو واضحة في غالب الأوروبيين. حدث مرة أن نادى أحد القناصل خادمه الياباني فجاءه يرتدي قميصًا ونصف جسمه الأسف عار! وكان في مجلس القنصل بعض السيدات، فنفر من هذا وطرد الخادم لوقته.

عدت إلى المائدة فأحاطت بنا الفتيات يحاولن مسامرتنا، وتلك عادتهم في كل مكان حتى في البيوت؛ إذ يجلس حول الضيف فتيات الدار يسامرنه؛ إمعانًا في التأدب والتظرُّف، وفي عرفهن لا يجوز أن يترك الضيف وحده لحظة واحدة حتى يحين وقت النوم. ولما كانت ساعة الطعام، أقبلتْ الفتيات يحملن القزامير (الصواني) الصغيرة من الخشب اللامع، عليها الأواني المكورة الصغيرة من خشب براق، وفي مقدمة الجميع «برميل» نظيف من خشب يملؤه الأرز المسلوق.

ملأت الفتاة لي آنية الأرز وسلمتنيها وفيها عصوان دقيقتان أتناول بهما الطعام، وكان أول صنوف اللحم قطعًا من سمك نيِّئ عليه قطع الثلج، لك أن تغمس القطعة قبل تناولها

في سائل أحمر قاني حريف كالخل. وما كنت أخاله نيِّئًا، فما كدت أعض على قطعة السمك حتى عافتها النفس، وجزعت جزعًا شديدًا، وآثرت أن أزدردها صحيحةً لأنجو من رائحتها وفساد طعمها، ثم تبعها صنف من حساء السمك البارد، ثم الساخن، ثم شواؤه؛ فنوع يحكي «الجنبري» إلى جانب شيء كالبطاطا الحلوة، وبعض الأعشاب، أخصُّها أعشاب البحر التي يحبون رائحتها المنتنة، والخضر (المخللة). كل هذا نتناوله في مجاورة الأرز الذي كلما فرغ إناؤه عجلت الفتاة بملئه من جديد. ولما انتهى اللحم قدم صنف من الفالوذج — مادته من الأرز — لا تكاد تحس حلاوته، ثم أعقب ذلك بعض الفاكهة؛ وكانت من خوخ، ونوع آخر لم أره من قبلُ وكأنه قرون البازلاء البالغة. وخلال كل ذلك كانت الفتاة تملأ لنا كأس النبيذ الياباني (الساكي) الذي يتخذه القوم مع الأرز في طعمه المنفر، وتعيد الكرة مثنى وثلاث ورباع، وبين آونة وأخرى يجب علينا بعد احتسائه أن نغسله بالماء ونملأه، ثم نُقدِّمه للفتاة فتشربه، ثم تعود فتغسله هي وتقدِّمه لنا ثانيةً. وتلك من آداب المائدة لديهن لا يصح إغفالها. وفي نهاية الطعام، نُبقي في آنية الأرز قليلًا ونصب عليه الشاي ونرتشفه بصوت مرتفع منفر علامة على ختام الطعام، فترفع «الصواني» ويقدَّم الشاي المرُّ نشرب منه ما نشاء. موقف ساحر حقًّا لولا ما كان يحوطني من ارتباك شديد في أداء التحيات المتكررة على الوجه الأكمل، وفي استخدام العصي بدل الملاعق والشوك؛ فهي تتطلب مرانًا طويلًا. وكان في الغرفة المجانبة لنا قوم لعب «الساكي» بعقولهم — واليابانى سريع التأثر بالخمر على خفته — فأخذوا يصيحون ويغنون وهم جلوس وأمامهم «الصواني» الصغيرة، والفتيات يعزفن على الآلات الموسيقية اليابانية (الشامسين) شبيه «الطنبور» الكبير برقبته الطويلة و«قصعته» المربعة، وله ثلاثة أوتار منفردة رنينها يحكي رنين المزهر (العود) القوي. والعزف يكون بقطعة من خشب كالمروحة، وهذه لا يكاد يخلو منها بيت أو منزل. والقطعة الثانية تحكي «القانون» من ثلاثة عشر وترًا منفردًا، ويسمى «كوتو»، والأنغام متشابهة بسيطة في غير تعقيد، على أنها تعوزها الجاذبية. أما أغانيهم فمنفرة للغاية، حتى الفتيات اللاتي يهززن في أصواتهن بتقطيع منكر وكأنها أصوات الماعز وهي تُمَأمِئ.

اعتزمت الارتحال فودعنا الجميع بأدبهم الجمِّ، ثم قدم لنا رب النزل هدية صغيرة منديلًا منقوشًا يلف في غطاء من ورق أبيض صقيل، يربط بشريط نصفه أبيض والنصف أحمر، وفي عقدته قطعة من سمك مجفف تيَمُّنًا. ومثل تلك الهدايا يتبادلها الجميع كلما تزاوروا في مناسبات كثيرة، ويغالي بعضهم حتى يبيح الاستدانة كي يؤدي هذا المظهر من الكرم؛ ولذلك كثرت المحال التجارية الخاصة ببيع تلك الهدايا.

أحب الآلات الموسيقية لديهم الشامسين إلى اليمين والكوتو إلى اليسار.

عدنا إلى كوبي وتفقدنا بعض معابدها، وجلها متشابه تعوزه الفخامة. ومن أجلها معبد القمر في قمة مایاسان (ومعناه الجبل المحترم)، ويتوجون بتلك الكلمة (سان) كل الجهات الطبيعية الجميلة. وهذا المعبد في ذروة الجبل المشرف على المدينة تسلقناه بترام هوائي كان يديره سويسريون إلى أمد قريب، واليوم يديره اليابانيون بعد أن استغنوا عن معونة الأجانب، شأنهم في جميع المنشآت الكبيرة الأخرى؛ لذلك ترى الأجانب حانقين عليهم! من هذا العلو الشاهق بدت المدينة ممدودة على شاطئ البحر في رواء بالغ، وكنا نرى مبانيها على بعد تتصل بضواحي أوزاكا؛ أكبر البلاد الصناعية. وفي نهاية الترام كثير من المقاهي والمطاعم زهيدة الأسعار، رغم نظافتها التامة، وفخامتها الرائعة، حتى إني تساءلت عن سبب ذلك، فعلمت أن الجهة يعدها الجميع متنزهًا شعبيًّا يُشجِّع الفقراء على حب الرياضة والاستمتاع بالطبيعة. وللناس أن يستأجروا خيامًا زهيدة الأجر للمبيت فوق منحدرات الجبال حيثما شاءوا. من هنا بدأنا بصعود الدرج الموصلة للمعبد — وعددها ثلاثمائة — وسط الأدغال والنبت الوفير. كابدنا كبير المشقة في ارتقائها، فكان لنا في سحر المناظر هنالك خير عوض عما صرفناه من عناء وجهد، ويحج إلى هذا المعبد نحو ثلث مليون في السنة؛ إجلالًا لتمثال صغير لأم بوذا. وعندما أظلم الجو، بدت المدينة من دوننا تحكي بسيطًا من الجمر المتلألئ أو قبة السماء، وقد انقلبت نجومها فبدت من تحتنا، وكانت ثريات الخط الكهربائي تبدو كالعقد الرائع البديع.

وفي المساء، زرت بعض دور الملاهي، ولعل أحبها لديهم الخيالة (السينما) التي لا يكاد يخلو منها شارع، وللقوم بها ولوع شديد. وأعجب ما يسترعي النظر بها رجل يقف بجانب اللوحة، ويشرح باليابانية في صوته المنفر كل ما يعرض من المناظر. وكان سبب ذلك عرض أفلام أجنبية، لكنهم يتبعون نفس الطريقة رغم أن غالب الأفلام اليوم تصنع في اليابان، وتكتب إيضاحاتها باليابانية. وقد يرفع الستار عن مسرح يظهر فيه فتياتهن وهن يرقصن ويغنين، وقد يمثلن روايات بلباقة لا تنقص عن الأوروبيات، رغم أنه لم يسمح للنساء باعتلاء المسارح هناك إلا قريبًا.

ومن أكبر دور الملاهي التي زرتها ملهى «تكاراسوكا» في قرية بين كوبي وأوزاكا يتسع لألف وخمسمائة، وهو فاخر إلى حدٍّ كبير، على أن أجوره زهيدة للغاية؛ رغبةً منهم في الترويح عن عناء الفقراء. وكأنه مدينة صغيرة تمون أهلها بكل شيء من مطاعمَ وملاعبَ وحدائقَ وحماماتٍ وما إليها. والتمثيل فيه على النظام الحديث في الغالب، والممثلات كلهن فتيات، وقد يلبسن أثواب الرجال، وقد يمثلن على أنغام الموسيقى. وأجمل ما هناك الأزياء الخلابة، وسرعة تغييرها، رغم الكثرة الهائلة في عدد الممثلات، كما أن مشاهد المسرح رائعة، وأضواءه خاطفة؛ مما يشهد لهم بالتقدم العجيب.

ومما أدهشني في هذا المجتمع الهائل ميل الناس إلى الهدوء، وبخاصة الأطفال؛ فقد كنت أرى السيدات يحملن أطفالهن وقد رُبطوا إلى ظهورهن، فلا يكاد يُرى منهم سوى رأس ناتئ — وتلك عادتهم في حمل الأطفال — ولم أكد أسمع همسًا طوال الوقت. والمعروف عن الياباني أنه هادئ الأعصاب، بارد الطبع. ويظهر أن تلك فطرته منذ طفولته؛ لذلك لا تكاد تسمع لسيل الناس الدافق في الطرق من جلبة، اللهم إلا قعقعة «القباقيب». هذا إلى صفير السيارات ودوي الراديو المنبعث من غالب المحال التجارية.

أذكر أنني تركت آلة التصوير هنا بين فصول الرواية، ولما عدتُ لم أجدها، فأبلغت الأمر لرجل البوليس، وهنا رأيت عجبًا؛ إذ عرَتِ الرجل هزة قومية، وساده هو وإخوانه اضطراب وخجل، وأخذ يدافع عن اليابان ويعتذر للحادث بأن عامة الناس هناك من طبقة العمال؛ فقد يسفُّ بعضهم إلى حد السرقة، على أنه أكد لي أنه لا يمكن أن يضيع شيء في بلاد اليابان، وأنه سيرسل إليَّ الفوتوغرافية قريبًا أينما كنتَ، بعد أن أخذ عنواني وهو مضطرب متألم؛ لأن في ذلك جرحًا للعزة اليابانية التي يقدسها الجميع!

عدنا إلى كوبي وتجولنا في إحدى أسواقها «موتوماتشي»، الذي لا يكاد المرء يشق طريقه وسط جماهير الغادين فيه والرائحين، وأجمل ما يرى في المساء حين تضاء مصابيح

طريقة اليابانيات في حمل الأطفال وراء ظهورهن.

الأسواق في بوابات من حديد ترص عليها الثريات الكبيرة في تلألؤ شديد، إلى ذلك أضواء المحال التجارية بمفروشاتها اليابانية الجذابة؛ وهذه تظل إلى ساعة متأخرة من الليل، وفي فروعه أزقة تحكي خان الخليلي عندنا يلذ للمرء التجول فيها طويلًا؛ لغرابة المناظر، وجمال الألوان، وشدة بريق المكان ونظافته. وهناك دار وطنية للسينما يجلس المتفرجون فيها على الحصر والحشيات (الشلت) على نظام البيوت اليابانية.

إلى يوكوهاما: قمت بالباخرة ظهرًا صوب يوكوهاما التي وصلتها الساعة الثانية بعد ظهر اليوم التالي. أما البحر فقليل الجزائر، موحد المناظر، ممل، ليس فيه شيء من جمال البحر الداخلي سالف الذكر. حللت المدينة فبدت ثغرًا عظيم الحركة، نظيف الطرق، فسيحها، وهي مدينة تحكي في كثير من الوجوه المدن الأوروبية، لولا هندام الناس وسحنهم؛ لذلك لم ترقني كثيرًا. ولقد أُنشئت من جديد منذ سنة ١٩٢٣ حين دكَّها الزلزال عن آخرها. وفي ثلاث سنين أُعيد بناؤها على أساسها الجديد، وبلغت أكلافها عشرين مليون جنيه.

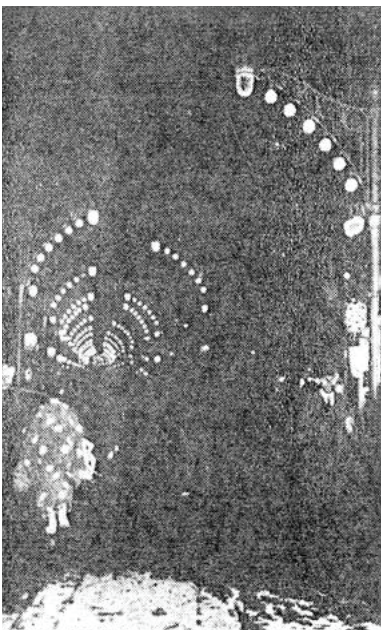

سوق موتوماتشي الزاخر ليلًا ومصابيحه تحكي البوائك شأن أسواق اليابان طرًّا.

أما طوكيو العاصمة، فقد دمر الزلزال نصفها، وأهلك من أهلها ٥٨ ألفًا، وكبدت خسائر بنحو خمسمائة مليون جنيه. وقد أنفقت الحكومة على تعميرها وإنشائها من جديد فوق السبعين مليونًا.

كاماكورا: ضاحية تبعد عن يوكوهاما بنحو ساعة بالسيارة التي مرت بنا في طرق ملتوية تعلو وتهبط، ومن حولها الرُّبى ذات المناظر الساحرة تجللها الغابات، وتكسو مدرجاتها منابت الأرز. ولقد اتخذ المدينةَ «شوجون مينا موتو» عاصمةَ اليابان في القرن الثاني عشر، وظلتْ كذلك مائتي عام، وكان سكانها يناهزون نحو ثمانمائة ألف، لكنها انضمرت اليوم وأصبحت مزارًا صيفيًّا. ولا يزال بها بعض المعابد الهامة، ولعل أجملها معبد بوذا الذي يقوم فيه تمثال هائل لبوذا يعدُّ أجمل تماثيل اليابان طرًّا، علوه خمسون قدمًا، أقيم سنة ١٢٥٢ وسط معبد دمَّرته عاصفة سنة ١٣٦٩، واكتسحه المد سنة ١٤٩٤.

ثغر يوكوهاما وترى طريقتهم في الترحيب والاستقبال.

واليابان تُعرف بقسوة عواصفها المسماة بالتيفون وبعتو مدها. وكانت عيون التمثال من ذهب، ونطاق جبهته من فضة زنتها ثلاثون رطلًا، وهو يمثل Amida؛ أحب معبودات اليابان. وتعجبك نظراته الهادئة ويداه المبسوطتان على حجره، والإبهامان يتلامسان علامة الإيمان الراسخ. وفي بعض التماثيل ترى اليد اليسرى مبسوطة على حجره، واليمنى مرفوعة. وهذا دليل التبشير. وفي غيرها تضم اليدان إلى الصدر دليل الجمع بين الحياة الروحية والمادية. وثم معابد كثيرة فاخرة تزينها تماثيل بوذا وحفظته في أشكالها المنفرة المروعة، ويحفظ في بعضها شيء من مخلفات عصر كاماكورا من أثاث وأردية وأسلحة وما إليها.

عدت إلى يوكوهاما، ومنها إلى طوكيو؛ حاضرة البلاد، فوصلتها في ثلثي ساعة، ووسائل النقل إليها متعددة، وفي إتقان ودقة ونظافة، ترى المقاعد وقد أُعدَّت بالفرش الوثيرة، بعضها يسير بالبخار، والبعض بالكهرباء؛ وهذه تكاد تعم البلاد كلها في كثرة هائلة، وأجور زهيدة جدًّا. هذا إلى الترام والأتوبيس والسيارات. والحق أن وسائل النقل في اليابان

بوذا في نظراته الوديعة.

كلها مما يدعو للإعجاب والإكبار؛ فهي ترعى صوالح الجمهور، وتوفر له الراحة التامة، والأمن المكفول؛ فترى في المحاطِّ كافة وسائل الإرشاد والهدى من خرائطَ ومصابيحَ. إلى ذلك عناية حارس القطار وأدبه الجم، فعندما نقارب كل محطة يستأذن ويدخل العربة، ثم ينحني ويرفع قبعته احترامًا، ويخاطبنا في بشاشة قائلًا: سادتي، نحن مقبلون على مكان كذا. وقبل مبارحته العربة يدير لنا وجهه وينحني ثانيةً ثم يخرج. إلى ذلك كنت ألاحظ أدب سائقي السيارات، فلا يمر أحدهم على زميله دون أن يحييه بانحناءاته الوديعة، وهو يتقبل منك ما تعطيه أجرًا مهما قلَّ، ولا يناقشك قط؛ بل يصيح قائلًا: «آريجانوسان.» أعني شكرًا سيدي المحترم. ويشيعك بانحناء وابتسام، وإن سألت أحد المارة شيئًا بالَغ في خدمتك وإكرامك، فإن لم يفهمك استرشد بغيره في الحال. أدبٌ جم وتسامحٌ جميل امتازت به اليابان على سائر الشعوب.

طوكيو (ومعناها العاصمة الشرقية، سكانها ٢¼ مليون): بأي لسان أستطيع أن أقص ما أرى من عظمة ودقة؛ تنميق حسن، وذوق سليم. مدينة تتجلى في كل مناحيها

أمام نصب بوذا الرائع في كاماكورا.

أبهة المُلك، وعزة السلطان. هي تفوق — في نظري — كثيرًا من عواصم أوروبا بقصورها الشامخة، وطرقها الممدودة، وحدائقها الوارفة. تكاد تمتد كل طرقها الرئيسية على نمط واحد، واتساع رحب، يتوسطها ممر الترام، والعجلات الكبيرة، ثم إفريز من خضرة، ثم ممر للعجلات الصغيرة، فإطار للمارة. والمصابيح تعلو في عناقيدَ إلى مدِّ البصر، ورجل البوليس يتوسط مفارق الطرق، ويُسيِّر الحركة بالمصابيح الملونة والصفافير واليدين في دقة عجيبة ومهابة يقدِّرها الجميع. وتوزيع مخافر البوليس في بلاد اليابان يُغايره في البلدان الأخرى؛ إذ ترى جوسقًا صغيرًا به ضابط البوليس ومعاونه وحولهما التلفون والسجلات والخرائط. وتتوزع تلك الجواسق في مسافات متقاربة، وحتى داخل الأزقة؛ لتكفل الأمن من جهة، ولتهدي المارة لما يطلبون. أما نظام البوليس المركز في أقسام كبيرة نائية عن بعضها — كما نراه عندنا — فليس له وجود؛ لذلك فإنك ترى البوليس ملمًّا هناك بكل شيء، عالمًا بدقائق منطقته الصغيرة وسكانها. حدث مرة أن أحد النزلاء من الطليان انتقل إلى دار

جديدة، فلما كان المساء عاد الرجل، فاشتبه عليه الأمر وضل طريقه إلى داره الجديدة، فباغته رجل البوليس وهو حائر قائلًا: أأنت فلان؟ ماذا تريد؟ فخبره أنه ضل طريقه، فقاده رجل البوليس إلى بيته الجديد! لذلك قلَّما تفلت البوليس هناك جريمة لا يهتدي إليها عاجلًا.

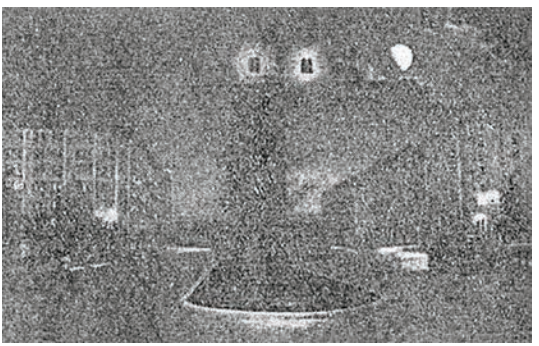

المدخل الرئيسي لطوكيو في وهج المصابيح الوضاءة ليلًا.

حللت نزل Chuo الفاخر، وهو على النمط الأفرنجي، يديره اليابانيون؛ رجالًا ونساءً، فقوبلتُ بالانحناءات والابتسامات، وما إن حللتُ غرفتي حتى أقبلت الفتاة تقدم شاي التحية — وهذا يُكرر كلما عدت إلى النزل وفي أية ساعة — ثم عقبته بإخباري أن قد أُعدَّ الحمَّام. وحتى في غرفة الطعام الأفرنجية تراهن وقوفًا زرافاتٍ يحاولن تسليتك ولو لم يعرفن لغتك. حدث أن مر فتاتان بباب النزل وأنا في غرفة الطعام يعزفن على الشامسين ويرقصن ويُغَنِّين، فأسرعت إليهن ومعي صاحب الفندق وفتياته وقالوا: إن تلك هي الوسيلة الوحيدة التي يباح فيها الاستجداء. يؤيِّد ذلك أني لم أر متسولًا واحدًا في جميع البلاد التي جُبْتها هناك. وما كدت أُبرز آلة التصوير لأخذ صورتهن حتى غضب الجميع ومنعوني؛ دفاعًا عن عزتهم القومية، فاعتذرت لهم؛ رغم أن الفتيات كنَّ في هندام نظيف جذاب.

هداني تجوالي في المساء إلى شارع «جنزا» بأضوائه الخاطفة، وتنسيقه الياباني الخلاب هو متنزه الشباب، ومحط سروره، حوى ٣٤٨ من الأنزال والملاهي ومشارب الشاي وما إليها، إلى ذلك بعض المحال التجارية تعرض بها المستحدثات التي تروق الشباب. ولن

الموسيقيات المتجولات في طوكيو؛ وتلك هي الطريقة الوحيدة التي يباح فيها الاستجداء.

أنسى قعقعة «القباقيب» ولا سحابات الفراش الآدمي في ألوانه الجميلة. ومن المقاهي ما هو ياباني ترى الأحذية والقباقيب وقد صفَّت أمام الباب؛ إذ يجب خلعها قبل الدخول. ولعل أكبر مميزات هذا الشارع الباعة الرحل الذين يفترشون الإطارين بسلعهم طوال الطريق، وهي نفائس الصناعات اليابانية الصغيرة التي تدل على مهارتهم الكاملة، خصوصًا إذا علمت أن غالبها يصنع في البيوت — كلُعَب الأطفال وأشغال الورق والغاب وما إليها — وإذا ما انتصف الليل عكف كلٌّ يطوي معروضاته قطعة قطعة بثبات وصبر غريب، ثم يحملها إلى بيته ليعيد الكرة في الغد. نشاط وصبر إلى نظافة وتقشف امتاز بها الياباني فكان مزاحمًا قويًّا لزميله الأمريكي والأوروبي.

قصدت قصر الإمبراطور، وهنا تجلَّت العظمة بأجلى معانيها، هو شبه قلعة مشرفة كأنها الجبل يحوطها خندق تعبره القناطر تؤدي إلى القصر، وهندسته مزيج من اليابانية والصينية في طابق واحد، وسقوف منحدرة خشبية تتقوس أركانها إلى السماء. ولا يباح

شارع جنزا مستراض الشباب في طوكيو.

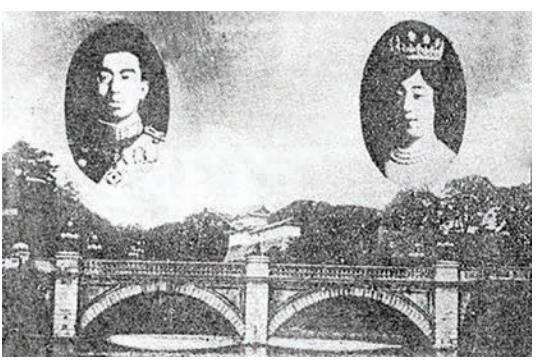

مدخل القصر الإمبراطوري وفي أعلاه صورة الإمبراطور والإمبراطورة.

لأحد دخول القصر ولا تصويره؛ تقديسًا له وللإمبراطور ابن السماء. حدث أني كنت أحاول أخذ صورة، فلم أشعر إلا وفارس قد أقبل مسرعًا وأخذ الفوتوغرافية، وأفسد الفلم بيده وهو يعتذر بأن ذلك غير مباح، وتركني بعد أن بشَّ في وجهي وانحنى تأدبًا. أما الميدان الذي يتقدم القصر فعظيم لا يعرف مداه، وتقوم عليه حول القصر كثير من دور الحكومة في قصور سامقة، أخصُّها دار البرلمان في هندستها الغريبة، ووزارة الحربية والبحرية

بأعمدة اللاسلكي تسامت السماء، وتهول الناظر بضخامتها، وتتناثر هنا وهناك تماثيل عِلْيَتِهم ممَّن أبلَوا للوطن البلاء الحسن.

وتقديس القوم للإمبراطور يثير الدهشة؛ فكل شيء هناك يتلاشَى إلى جانبه؛ فهو مطلق التصرف في البلاد، وسلطة البرلمان ضئيلة أمامه، خصوصًا فيما يختص بالمالية والشئون الحربية، ومجلس الوزراء مسئول أمامه فقط، وهو الذي يعين رئيسه. ولا يشترط اختيار الوزراء من رجال الحزب السائد في البرلمان، ووزيرا الحربية والبحرية يقابلان الإمبراطور رأسًا، ولا يسقطان بسقوط الوزارة.

ويتساءل المرء كيف يقبل القوم هذا الخضوع والولاء الشديد لهذا النوع من الحكم المطلق، على أن نظام اليابان الاجتماعي والديني يساعد على ذلك، حتى الهيئات التجارية والصناعية؛ فهي تقوم على صوالح الأسرة والقرية والدولة، وتلقين النشء الإخلاص للوطن فرض على الجميع، خصوصًا منذ عهد الإمبراطور ميجي (١٨٦٨–١٩١٢)؛ جد الإمبراطور الحالي وخالق النهضة اليابانية، ذاك الذي حوَّل مبادئ الديانة السائدة في اليابان، وهي الشنتوية — التي تعبد الأجداد — إلى عبادة الوطن، فكل آلهة العائلات تمثل إلهة الشمس؛ وهي جدة الأسرة الحاكمة؛ فالإمبراطور إذن هو ممثل الآلهة في الأرض لا يُعصى له أمر. وساعدهم على ذلك حماسته النادرة في النهوض ببلاده؛ لذلك عد البيت الإمبراطوري مقدسًا، حتى إن القوم لا يصح لهم ذكر اسم الإمبراطور، بل يسمونه Tenno Heka؛ أي ابن السماء. حدث مرة أن سمى ريفي ابنه باسم الإمبراطور على غير علم منه، فلما عرف أن هذا هو اسم الإمبراطور انتحر خجلًا وخزيًا! وحادث آخر أن أحد أكابر الموظفين تعرض في محاضرته لمستقبل اليابان، وأشار إلى النزعة الديمقراطية التي تتزايد، وتألَّم لما عساه أن يحل باليابان من الويلات إذا حدث — لا قدر الله — وزال حكم الأسرة المالكة، فكان هذا مبررًا لفصله على الفور! ويحمل الجميع صور الإمبراطور، ويخفونها في صدورهم إلى يوم عيد الميلاد، حين تعرض في حفل كبير يقام في المدارس وغيرها، وعند كشفها يخر الجميع ركعًا، ويخالون أن روح الإمبراطور تحل بعض المعابد أحيانًا؛ لذلك علمت أن قاضي القضاة الذي كلف الحكم في قضية خطيرة تمس الاشتراكية كان يذهب إلى معبد طوكيو كل صباح؛ ليستمد الإلهام الصادق من روح الإمبراطور ميجي؛ لكي يوفقه في الحكم.

وقلما يخرج الإمبراطور ليراه الناس، وإن حصل ذلك أغلقت جميع النوافذ على جانبي الطريق؛ حتى لا ينظر إليه أحد من عَلٍ! ويصطف الناس وعيونهم إلى الأرض، ولا يجرؤ أحدهم النظر إليه مهما علت مرتبته! ويقف البوليس وظهره إلى الإمبراطور، ويجب على مصلحة الصحة أن تطهر الطريق كلها قبل مروره. وقلما يحضر الإمبراطور بنفسه الولائم

والحفلات الرسمية التي تقام في القصر ويحضرها كبار الأجانب وسفراؤهم، ويغلب أن ينيب عنه أحد الأمراء. وقد يطلع عليهم وهم وقوف في صف ويرفع لهم يده، حتى قيل: إن غالب السفراء لا يطيقون ذلك رغم أنها من تقاليد البلاد.

فليس بعجيب إذن أن يخلق هذا حكومة مركزية مدعمة الأركان في أمد وجيز، فإلى سنة ١٨٦٨ كانت اليابان مقسمة إلى إقطاعات تحت إمرة «الديميو»، الذين كان يرأسهم «الشواجن»؛ أي الحكام العسكريون، وهم حكام اليابان الحقيقيون. وكانت أسرة «توكوجاوا» هي السائدة خلال ٢٥٠ سنة، وكانت من قبل من أسرات «الديميو». أما الإمبراطور فكان في كيوتو كأنه سجين لا دخل له بالسياسة. وفي منتصف القرن التاسع عشر، بدأت حكومة الشواجن تضمحل بسبب سوء الحكم وبَدْءِ تدخل الأجانب الذين هددوا استقلال البلاد مذ أرغموهم على فتح ثغورهم للأجانب سنة ١٨٥٤، فبدا جليًّا «للساموراي»؛ مديري المقاطعات من قِبَل زعماء الإقطاع، أن تغيير الحكومة واجب إذا أرادوا المحافظة على استقلال اليابان، فأغروا الزعماء من الدايميو الذين كانوا حانقين على «الشواجن»، فثاروا جميعًا بزعامة أسرتي «تشوشو، ساتسوما»، الذين ناشدوا رجال الحرب أن يخلعوا نِير الشواجن ويعيدوا للإمبراطور سلطته، فنجحوا وبدأ العصر الجديد سنة ١٨٦٨، حين تسلم الإمبراطور «ميجي» الأمر بعدما حُرِمَتْهُ الأسرة تسعمائة سنة. وفي ١٨٧١ زال حكم الإقطاع تمامًا، وسلم الدايميو بلادهم، ثم تنازلوا عن جميع امتيازاتهم المالية الموروثة بمحض اختيارهم، رغم عدم وجود موارد أخرى لهم. وهنا تبدو متانة الخلق الياباني في التضحية والإخلاص؛ إذ تركوا صوالحهم الذاتية وتعاونوا على معاضدة النظم الجديدة لصالح اليابان. أما الشعب فلم يقم بشيء إيجابي قط.

ولكي تتمشى البلاد مع الدول العظمى، شعروا بالحاجة للجيوش، والأساطيل الحديثة، والنهوض بالصناعة ووسائل النقل والتعليم. وقد وقع جل هذه الأعمال على عاتق أسرتي «تشوشو، ساتسوما» الذين أتَوا بالمعجزات لإنقاذ البلاد من المخاطر التي كادت تحيق بها، ولم يروا لازمًا أن يقلدوا أوروبا في كل شيء؛ بل في تنظيم الحكومة ووسائل الإنتاج. وقد نقح الأمير «أيتو» الدستور سنة ١٨٨٩، على أساس دستور ألمانيا، وعين غالب زعماء الإقطاع «الدايميو» أعضاء في المجلس الأعلى، «والساموراي» في المجلس الأدنى، وخُصَّت أسرتا «تشوشو، ساتسوما» بالحربية والبحرية، وكان لهم الرأي الأعلى حتى بدأ يناوئهم بعض الهيئات الأخرى، فلجئوا إلى تشكيل هيئة أسموها Genro؛ أي جماعة السياسيين المحنكين؛ لتقوم بوظيفة المستشار الإمبراطوري، وهم الذين يقترحون تعيين رئيس الوزراء، وينصحون للإمبراطور بكل التصرفات، ووزيرا الحربية والبحرية يُختاران من بين رجالها؛

فالحكومة اليابانية نوع من الألجاركية، لكنها مصلحة تعمل للرأي العام حسابًا. والرأي العام في اليابان قوي جدًّا؛ فلمجرد احتجاجه على تصرفات الوزارة سنة ١٩١٤ استقالت هي، وكذلك التي تبعتها سنة ١٩١٨، حين احتجوا على وزارة «تيروشي» الذي كان ينتمي إلى «الجنزو». ويومئذ قام الناس باعتصاب الأرز الذي أسقط الوزارة لوقتها. وفي سنة ١٩٢٣ استقالت وزارة «ياماموتو» على أثر اغتيال حياة الأمير نائب الملك؛ الأمر الذي عدَّه الشعب دليلًا على عجز الوزارة أن توطِّد الأمن في البلاد. وكلما حدث اعتداء من هذا القبيل، أسرعت الوزارة أو رؤساء الشرطة بتقديم الاستقالة، كما حصل في يناير الماضي، حين حاول شاب ثوري من كوريا أن يغتال الإمبراطور بقنبلة انفجرت فأصابت أحد خيل المركبة، فاستقال مدير الشرطة وكبار البوليس؛ اعتقادًا منهم أنهم المسؤولون عن ذلك، وكذلك انتحار الأميرال شنوازادي؛ قائد أسطول اليابان، في مياه شنغهاي؛ لما أن عزل بسبب سوء تصرفه هناك في الحرب الحالية بينها وبين الصين.

على أن جماعة الجنزو؛ ممثلي عهد الإقطاع اليوم، بدءوا يشعرون بمناوئ قوي اليوم؛ هو نفوذ رجال الأعمال التجارية والمالية والصناعية، خصوصًا في طوكيو؛ المركز المالي، وفي أوزاكا؛ المركز الصناعي، وكثير من أولئك من سلائل الساموراي وأسرة «متسوي»؛ أغنى الجميع، وهي تشتغل تحت إرشاد الحكومة. وقد بدأ نفوذها يؤثِّر في الحكومة، ويسود رجال الهيئة العسكرية؛ لذلك بدأت تنتعش سلطة المجلس الأدنى الذي يستمد المال من تلك الهيئات الصناعية لمناهضة رجال الحرب، وقد نجحوا في إسناد الوزارة إلى «كاتو»؛ من نصرائهم، سنة ١٩٢٤؛ لذلك كان يطلق عليها «حكومة متسوبيشي». هذا وقد أدى نمو الصناعة إلى الدعاية الاشتراكية لصالح العمال، وبدأ يظهر أثر هذا في التحفز للإضراب وفي النزاع الذي بدأ بين المزارعين والملاك، على أن الحكومة تقاوم كل ذلك مقاومة فعالة، خصوصًا وأن غالب الصناعة ووسائل النقل تحت إشرافها المباشر.

وتمتاز طوكيو بمتنزهاتها الكثيرة. زرت فيها متنزه «هيبيا» عظيم الاتساع، وفير الزهور، وبخاصة «الأزاليا»، ويجد القوم فيه مكانًا صالحًا للنزهة واللعب؛ ولذلك ترى أدوات اللعب كالصوالج والأراجيح وما إليها منثورة في أرجائه الفسيحة، كذلك متنزه «شيبا»، ويشتهر بمدافن أسرة طوكوجاوا من الشواجن، وبعضها فاخر النقش في الخرط الياباني الغريت، وأغشية الذهب والفضة في إسراف لا يفوقه سوى مدافن نكو.

ولعل أكبر المتنزهات وأجملها «وينو»، تزينه أشجار الكريز بزهرها الجميل، وفي داخله كثير من الملاعب، إلى ذلك حديقة الحيوان المتواضعة، ودار الكتب، والمتحف الفني،

والمتحف الإمبراطوري؛ وهذا أهمها وإن بدا صغيرًا قليل المعروضات بالنسبة لمتاحف أوروبا، ومجاميعه في الطابق الأعلى رسوم خيالية مطرزة على ستائر ثقيلة، ثم منتجات اللاكيه المرصع بالصدف وجدائل الذهب في إتقان كبير. وفي الطابق الأسفل تعرض الأدوات النحاسية والخشبية، ثم الزجاج والخزف والأحجار الملونة، ثم تماثيل كبيرة لبوذا وحراسه وعفاريته، بعضها من ذهب وفضة، والبعض من خشب. إلى ذلك بعض الأسلحة القديمة والنقود، على أن الفن يعوز غالبها، وفقر المعروضات لا يكشف للقوم عن ماضٍ مجيد قط؛ فهم لم يرثوا عن آبائهم من عظمتهم الحالية شيئًا؛ مما يزيدهم إكبارًا وفخرًا.

الطريق التجاري إلى معبد «أساكوسا» بجوانبه الخشبية وسيل المارة الدافق.

قصدت إلى متنزه «أساكوسا»، وفي مدخله معبد شعبي لآلهة الرحمة، نصل إليه وسط طريق صفت على جانبه الحوانيت بمعروضاتها اليابانية الجذابة، ومصابيحها الورقية الملونة، وشرفاتها الخشبية، وأنت تذهل هناك لسيل الناس الجارف صباحًا ومساءً، وكلهم في أرديتهم القومية الجذابة، والمعبد فاخر. وأعجب ما رأيته هنالك لفائف ضخمة من شعر آدمي جُدل في حبال بالغة الطول والسمك، تبرع به فتيات ذلك العصر؛ كي يعاونوا على سرعة إقامة المعبد بعمده الضخمة التي لم تقوَ الحبال العادية على رفعها، وفي ذلك مثل لميلهم الشديد للتضحية، خصوصًا وأن الشعر أكبر ما تعتز به الفتاة اليابانية وتتجمل بمرآه. وهذا المعبد هو المكان الوحيد من ذاك الحي من طوكيو الذي لم يحترق على أثر

نكبة الزلزال الكبرى سنة ١٩٢٣، فعزا القوم ذلك إلى قدسيته! وعجيب أن ترى خلف المعبد مباشرةً أكبر مناطق طوكيو للمجون والملاهي الشعبية؛ تلك التي يعدها الجميع خير مكان للتسلية؛ لذلك لا تهدأ حركة المتنزه ولا تخبو أضواؤه الخاطفة طوال الليل.

في المساء، طلبت إلى صاحب النزل أن يدلني على دار للتمثيل الياباني القديم، وهو أحب أنواع التمثيل لديهم، فأرشدوني إلى «تياترو شمباشي»؛ من أفخم دور التمثيل في طوكيو، وما إن وصلت الباب وهممت بشراء التذكرة حتى تقدمت إليَّ فتاة تجيد الإنجليزية تقول: أأنت يا سيدي المستر ثابت النازل في لوكاندة شوو؟ فدهشت وقلت: نعم! فقادتني إلى داخل المكان بعد أن رفضتْ بتاتًا أن أدفع ثمن التذكرة، وأحلتني مجلسًا فاخرًا وقالت بأن التياترو ملك لشقيق صاحب النزل، وقد أعطانا إشارة تلفونية أن نكرم وفادتك، فغمَرتْني تلك الأخلاق الجميلة، وظلت الفتاة تشرح لي بالإنجليزية كل مشاهد التمثيل طوال الوقت حتى برحت المكان!

أما التمثيل فغاية في الإتقان، ومناظر المسرح رائعة. وكلما أُريد تغيير مشهد دار المسرح كله على كبره حول نفسه فبدا منظر جديد. والرواية كانت قصة لفتاة زوَّجها أبواها من صبي لا تحبه وهي طفلة، كعادة اليابانيين قديمًا — ولا يزال للعادة أثر إلى اليوم — وكانت تحب فتًى آخر جنديًّا لم يسعها إلا أن تسير إليه مخالفةً أبويها، فتلاقي الفتى مع غريمه، وكان معه أعوان كثيرون، بارزهم جميعًا وغالبهم فصرعهم عن آخرهم. وأجمل ما راقني منظر «خمارة» ضمَّت القوم وهم يرقصون ويهللون، وقد أخذ «الساكي» بلبهم جميعًا بشكل يدل على أن الإدمان كان ديدنهم — ولا يزالون يكثرون من تناول الخمر — وختمت الرواية بفصل المبارزة التي يفاخر بها القوم ويجلُّونها إلى اليوم. وكان المتفرجون يُصفِّقون بحدَّة؛ تشجيعًا لهم، وبقدر التكلُّف في نعومة اللفظ، والتدلل من جانب النساء، كانت غلظة الرجال في حديثهم وانتحالهم وجوهًا مقطبة، وهم يتكلمون في نغمة الآمر المستبد، ولأقل سبب كانوا يستلُّون سيوفهم. وهذا النوع من التمثيل يسمونه «نو»، وتقام له أكبر دور التمثيل في جميع البلدان، ويتسابق القوم لاقتناء تذاكره في تهافت عجيب.

زرت بعض معابد المدينة وأفخرها معبد ميجي؛ خالق النهضة اليابانية. مداخله ممتدة تتخللها البوابات الخشبية الشامخة — وهي تتقدم مداخل المعابد كلها — وفي قراره مقصورة الهيكل؛ يسجد الناس أمامها ويلقون بقطع النقود تقربًا وزلفى، ثم زُرتُ معبد «سنجا كوجي»، ويشتهر بمدافن جنود «الرونين»؛ أي فاقدي الرئيس، ولهم قصة عجيبة؛ إذ كانوا أتباعًا لرئيسٍ لحقته إهانة من غيره فهَمَّ بطعنه، لكن حيل بينه وبين رغبته،

أحد مشاهد التمثيل القديمة أحب أنواعه لديهم.

وقُضي عليه بالانتحار كعادتهم، فهام أتباعه هؤلاء — وكانوا ٤٧ — لا يهنأ لهم عيش حتى يأخذوا بثأر سيدهم. ولما حققوا أمنيتهم أسرعوا إلى قبر سيدهم، وأعلنوا أنهم أدَّوا الأمانة، ثم انتحروا جميعًا بجواره؛ خشية أن يحكم عليهم بالموت بشكل غير مشرف؛ لذلك أقام اليابانيون لهم معبدًا؛ لأنهم يقدسون الشجاعة والوفاء ولو في مظهرها الوحشي!

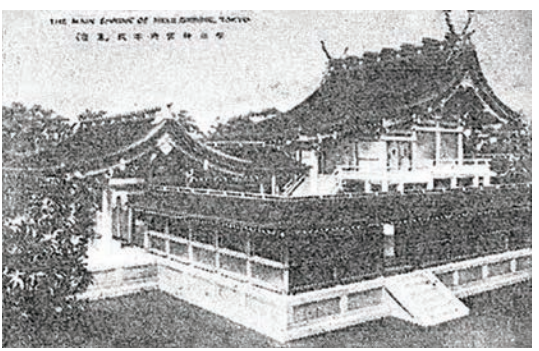

داخل معبد ميجي في كامل روعته.

والأخذ بالثأر كان لديهم مقدسًا لمحو العار، فإذا أهان أحدهم غيره قتله، لكن يعود القانون فيحكم على القاتل بالانتحار، وإلا قتل نفسه قبل ذلك، فإن نفذ فيه الحكم ظل

الثأر في رقبة أتباعه الذين لا بد أن يأخذوا بثأر سيدهم يومًا ما. وعجيب أن كان قانونهم يبيح ذلك، وكان يحتم على المنتقم أن يبلغ الأمر للمحكمة لكي تحدد له ميعاد الانتقام، وإذا احتمى القاتل في الأشراف، أو أصبح جنديًّا؛ سقط عنه القصاص، وقيل إن تلك التعاليم أخذت عن «كنفوشيوس»! والانتحار أشرف لديهم من الإعدام؛ لذلك كان يفضل القاتل أن ينتحر أمام الناس بيديه! وكان القانون يعطي للمجرم الحق في الانتحار أمام الناس، أو ينفذ فيه الإعدام، ويؤثر المنتحر أن يموت بسيفه الخاص Hara Kiri. وهاك وصف حادثة انتحار حدثت أمام جمع من الأوروبيين:

حكم على الأمير تاكي زنزا بورو بالانتحار ترضية للأجانب؛ لأنه هو الذي أمر بضرب النار عليهم سنة ١٨٦٨، فدعا الميكادو الأجانب إلى أحد المعابد واصطف الجند، وجيء بالمنتحر ومعه اثنان من أعز أصدقائه ليساعداه على قتل نفسه إن خانته قواه، وتسلم الخنجر المدبب ماضي الحدين، وجلس القرفصاء كعادة اليابانيين، ثم رفع الخنجر فوق رأسه شجاعةً واحترامًا، وأخذ يعترف بجريرته في جرأة وإقدام، وطلب معذرة الحاضرين وسألهم أن يُسبغوا عليه شرف مشاهدتهم إياه وهو يبقر بطنه، ثم انحنى مرات احترامًا، ورفع قميصه ومال إلى الأمام قليلًا مخافة أن يقع على ظهره ساعة انتحاره وهو عارٌ لا يُمحى، ثم أخذ يرمق الخنجر بنظرات العجب والتيه، وطعن به جانب بطنه الأيسر، وطفق يشقُّه محركًا يده إلى الجانب الأيمن، وهنا اجتذبه إلى أعلى إمعانًا في الشجاعة والجلد. وهو خلال ذلك كله لم يمتقع وجهه. بعد ذلك انحنى إلى الأمام ساجدًا، وفي لمح البصر هوى سيف صديقه على رأسه ففصلها عن جسمه، ثم مسح الحسام بورقة وأعاده إلى غمده بعد أن انحنى وانسحب!

منظر مزعج، لكنه يدل على مبلغ ضبط النفس، ورباطة الجأش، وهدوء الأعصاب في المنتحر وأصحابه! وعجيب أنهم يعدون ذلك أكبر فخر، خصوصًا إذا قام أقرب المقربين بالإجهاز على حياة صديقه. وهذا يقدِّسه جميع اليابانيين، لدرجة أن بعضهم عرض على البرلمان سنة ١٨٦٩ إلغاء الانتحار، فرفض اقتراحه بأغلبية ٢٠٠ ضد ٩؛ بحجة الإخلاص للمبدأ والشعور القومي وحفز الفضيلة! وعجيب أن «أونو سيجورو»؛ وهو الذي اقترح هذا الإلغاء، مات بالطريقة نفسها بعد ذلك بزمن يسير! هذا ورغم تحريم القانون ذلك اليوم، نرى الانتحار منتشرًا هناك حتى لمناسبات تافهة!

تفقدت بعض المحال التجارية الكبرى، وأخصها «متسوكوشي»؛ شبيه لافاييت بباريس وشكوريل بمصر، إلا أنه أفخم بناءً، وأعظم امتدادًا، حوى كل شيء حتى الطيور والفاكهة

والمطاعم والمقاهي، إلى جانب مستلزمات النساء والرجال جميعًا. وفوق سطحه بعدَ الطابق السابع حديقة يابانية أشبه بالحدائق المُعلَّقة؛ ينمو شجرها، ويتفتح زهرها، وتتوسطها النافورات والصخور. وترى المقاعد صفَّتْ للمتريضين، وأراجيح الأطفال وملاعبهم منتشرة خلالها، وأمثال تلك الحدائق تعلو غالب المباني، وتسمى بالحدائق السماوية. وفي أقصى أركان الحديقة هيكل يقام لإله النجاح يزوره الجميع؛ لكيلا تنسيهم المادة واجبهم المعنوي. وللمحل عدد كبير من السيارات الضخمة الفاخرة تنقل رواد المكان إلى محطة سكة الحديد ومنها بدون مقابل.

إلى نكو: مصطاف ملكي ساحر صافي السماء؛ ومن ثَمَّ سُمِّي نكو؛ أعني ضوء الشمس، يقع وسط الجبال المعقدة تفصل ما بينها وديان متلوية سحيقة تغص بالشلالات والخوانق، وغابات الصنوبر تكاد تكسو المدينة كلها. وصلتها في ثلاث ساعات بقطار الكهرباء، فبدت مناظر الطريق في قسمه الأول سهولًا يكسوها الأرز الذي يخطط الأرض في تماثُل جميل، وبين آونة وأخرى تبدو منابت الكتان والخضر. وعلى مقربة من نكو ظهرت الرُّبى والغابات، وأخذنا في الصعود حتى حللنا القرية ببيوتها الخشبية اليابانية التي يستخدم ظاهرها لعرض المنتجات اليابانية الدقيقة. وأهم جانب هنالك ناحية المعابد؛ فهي عديدة لا تحصى، وغالبها جميل الهندسة، موفور الطلاء، سلكنا سبلنا إليها صعدًا، ومررنا بجانب قنطرة مقوسة صغيرة في لون أحمر جذاب تقع على نهر دايا المقدس، ويسمونها القنطرة الإلهية، ولا يجوز أن يعبرها غير الإمبراطور وأسرته فحسب. وأفخر المعابد طرًّا معبد «أيياسو»، ومدفنه وهو مؤسس أسرة شواجن طوكوجاوا (١٦٠٠–١٨٦٨). بناها حفيد أيياسو ثالث الشواجن سنة ١٦٢٤، وظل العمل ١٢ سنة، يبذله من العمال ١٥ ألفًا كل يوم، حتى قدرت نفقاته بمليوني جنيه. أخذنا نجتاز بوابات من خشب باسق في خرط ياباني تطوقها رقائق النحاس البراق، وطلاء الذهب الخاطف، وتلفت النظر بنوع خاص البوابة الثانية التي تبهر النظر لكثرة زخرفها وبريقها، ولا يكاد يفوقها جمالًا سوى «تاج محل» في الهند. وفي داخلها تقوم المقبرة في هرم مدرج من نحاس يضم الرماد المخلف من احتراق جثة أيياسو، وعندما تم بناؤه خشي مهندسوه حسد الآلهة وحنقها على الإمبراطور من فرط جمال البناء؛ لذلك أقاموا نماذج مصغرة للبناء فوق بعض الأعمدة وهي منكسة؛ دفعًا لذلك واتقاء غضب الآلهة! وأغرب ما يذكره القوم عن أيياسو أنه أباح للزوج الطلاق بغير مبرر، كما أباح اتخاذ أي عدد من الخليلات مع الزوجة، على أن يكون أولاده منهن جميعًا شرعيين، لكن ابن الزوجة هو الوارث وإلا ورث أخوه أو أقرب الناس إليه. وإذا لم

تعقب الزوجة سوى الإناث، تبنى أحد أفراد عائلة أخرى. ولا يجوز لمن دون ١٦ سنة أن يتبنى غيره إلا إذا كان على فراش الموت؛ خشية انقطاع حبل الأسرة. وكان يبيح للزوج قتل زوجته مع خليلها، فإن قُتل أحدهما عُدَّ مذنبًا. وحول المكان معابد لا تدخل تحت حصر، وبجانبه «باجودا» تمثل برجًا يابانيًّا من سبعة طوابق، وتعد من أجمل منتجات الفن الياباني، وترى في مداخل أغلب المعابد، خصوصًا البوذية، تماثيل حفظة المكان وقتلة الجن في أشكال مزعجة منفرة لا تسيغ لك نفسك النظر إليها، ويُسمِّيها بعضهم «يأجوج ومأجوج». وكنت ألاحظ الزائرين اليابانيين يبصقون عليها قطعًا من ورق يمضغونها، فإن التصقت لبابة الورق بالتمثال كان خيرًا، وإلا دلَّ على غضب الآلهة وعدم قبول الصلاة!

حديقة معلقة فوق الطابق السابع من محل متسوكوشي التجاري في طوكيو.

وللمدينة مدخل رائع بين صفين من شجر Cryptomeria السامق الرهيب الذي يكاد يتعانق من أعلاه، ويخط طريقًا قاتمًا رائعًا يمتد ٢٢ ميلًا في تماثل جذاب. أقيمت أشجاره سنة ١٦٤٨ فبلغت ٤٠ ألفًا، وهي اليوم ١٨ ألفًا. والسير في الطريق يذهب بخيال المرء كل مذهب، بحيث يترك في المخيلة أثرًا لا تمحوه السنون. هنا أقلتني سيارة وسارت

البوابة الفاخرة في معبد أبياسو.

صعدًا بين الربى والشلالات والنقائع فوق طريق ليَّاته من الأعاجيب، عددت منها ٣٥ ليَّة. وكانت السيارات تسير كأنها متوازية تمامًا، كل رجة من الطريق تعلو الأخرى، وكلما علونا بعُد غور الوديان وفتر منظرها، لكن ظل دوي مائها يتردد في أرجاء الربى من حولنا في شدة رهيبة. وبعد ساعة كاملة في ذاك الصعود، وقفنا إلى جانب شلال كوجون وغور مسقطه ٣٣٠ قدمًا. وقد أعد القوم قبالته مشرب شاي جميل. أخيرًا وصلنا منبع النهر من بحيرة «شوزنچي» على علو ٤١٩٤ قدمًا، تنعكس على صفحتها اللجينية الآسنة الرُّبى السندسيةُ. ومنظرها من داخل المعبد الذي أقيم تقديسًا لها ساحر جدير بعبقرية الشعراء التي تستطيع ترجمته للناس في جلاء وسحر بيان. ويقيني أن نكُّو جمعت بين جمال الفن الأثري والإبداع الطبيعي؛ فهي مقام هانئ لمحبي الفنون، ورواد الهدوء، وواسعي الخيال. ولليابانيين الحق في مثلهم السائر: لا تقل نكو Neko — أي فخم — إلا بعد أن ترى نكُّو Nikko. على أني لاحظت افتقار مناظر اليابان الطبيعية لطوائف الحيوان على اختلاف أنواعه؛ فهي لا تلائم الصياد قط، فقلما يسمع المرء فيها تغريد طائر؛ فأحراشها وغاباتها ساكنة سكون الموت؛ مما يجعلها موحشة رغم جمالها الساحر.

في مدخل معابد نكو ومن ورائنا البرج القديم.

قمتُ بجولة على ضفاف نهر «سوميدا» في طوكيو، فهالني منظر المصابيح الملونة من الورق تصفُّ على جانبي النهر، وعلمت أن يومي هذا صادف حفلة يُسمُّونها: عيد المصابيح، حين تُحرق سيقان جافة من الكتان في مدفن العائلة، وقبل خُمودها يُشعل فيها مصباح المدفن، ومنه يُضاء مصباح آخر يُنقل إلى البيت ويُضاء منه الهيكل. ويزعمون أن هذه النار توقظ أرواح الأجداد فتسير على هديها إلى البيت! لذلك يقدِّمون القرابين من المأكولات أمام الهيكل في كل بيت، ويركعون للآلهة! وفي نهاية الليل تعود الأرواح إلى مقرها بعد أن تبارك الذرية وتكفل لها السعادة طوال العام! وفي غالب البلاد تضاء مصابيح لا حصر لها في شكل طيور الماء، وتعوم في اليم إلى المصب وسط تهليل القوم في الضفاف والزوارق في مشهد غريب.

ندخل نكو من طريق تحفه أشجار «الكربتوميريا» إلى مدى ٢٢ ميلًا.

وأمثال تلك الحفلات يقيمونها في كثير من المناسبات، من بينها: حفلة رأس السنة القمرية؛ لأن حسابهم القديم كان وفق التقويم القمري،[١] فتقام شجرة أمام كل بيت تدخلها الآلهة في زعمهم! فإن حسن استقبالها كانت سنتهم سنة خير وبركة؛ لذلك يقطع الجميع الشجرة المقدسة قبل نهاية السنة بأربعة أيام، وتغطى بالعشب في زاوية من البيت، ويقدم «الساكي» حولها. وفي ليلة رأس السنة تزرع أمام الدار، ومنها تصنع عصي الأكل

[١] لا يزالون يقسمون اليوم إلى ١٢ ساعة مزدوجة يرمز لكلٍّ بحيوان، فمن منتصف الليل إلى الثانية صباحًا ساعة الفأر، تليها ساعة الثور، ثم النمر، ثم الأرنب، ثم التنين، ثم الأفعى، ثم الحصان، ثم الجمل، ثم القرد فالديك فالقنفذ فالثعلب، فيقول لك أحدهم: سأزورك ساعة الأفعى؛ أي بين العاشرة والثانية عشرة، وهكذا.

المصابيح الملونة تلقى في اليم وهي تتلألأ فيذهب بها التيار بعيدًا وسط تهليل القوم.

التي تُستخدم في حفلات السنة كلها، وبعد أسبوعين تُقتلع هذه الأشجار وتُحرق خارج المدينة وسط تهليل الجماهير؛ توديعًا للآلهة. وفي هذا العيد، يؤدي كل مدين دينه وإلا فقد شرفه بين الناس؛ لذلك يحاول دفعه، فإن عجز عرض بعض ما يمتلك للبيع ويحاول اجتذاب المشترين؛ ولذلك تكتظ الأسواق في الأسبوع الأخير من السنة بالباعة والمشترين؛ لوفاء ديونهم. وعجيب أن يُحل بعضهم السرقة لسد دينه؛ لأنه يرى في عدم الوفاء بعهده جرمًا أكبر من السرقة! ولهذا كانت أغلب الجرائم هناك في هذين الأسبوعين. وأعجب من ذلك أن الدائن لا يأخذ صكًّا على مدينه، بل يقول له: إن لم تدفع في الميعاد قلت الأمر لجيرانك، وفي هذه الفضيحة الكبرى.

ومن أجمل حفلاتهم: حفلات الأطفال؛ فحفلة الفتيات «هيناماتسوري» تقيمها كل عائلة عقبت فتيات، ويكون ذلك يوم ٣١ مارس؛ وهو موسم أزهار شجر الخوخ، ويشترك فيها جميع أوانس الأسرة، ولا يشترك فيها الذكور قط، فتقوم دميتان كبيرتان تمثلان نبيلًا وزوجته، ومن حولهما دمى كثيرة تمثل الخدم والأتباع، ويلبس الجميع ثيابًا فاخرة، وتعرض بجانب الدُّمى سائر أدوات المنزل في حجم صغير دقيق، وبعض تلك يتطلب نفقاتٍ باهظةً؛ لذلك قامت مصانع لإعداد ذلك. وفتيات الجيران يدعون لتناول الطعام في تلك الآنية الصغيرة، وإلى جانبه شراب مخفف من «الساكي». وبعد ذلك يلعبن ويعزفن ويغنين. وقبل بزوغ الفجر، تُلف كل تلك المعروضات لكي يعد ذلك فألًا بزواج الفتاة المبكر، ويقولون: إن تلك العادة خرافة قديمة نُقلت عن تفاؤلهم بالبنات؛ لأنهن بشير إنتاج الأرض الوفير؛ لذلك كانوا يكلفون البنات بعمل الدُّمى لتدفن في الحقول، ثم تطورت إلى الاعتقاد بأن الدُّمى

شجرة رأس السنة أمام الدار.

تمائم تقي الفتيات الشر. وكان من عاداتهم القديمة أن تحلق الفتاة يوم الزفاف حاجبيها، وتخضب أسنانها باللون الأسود؛ علامة الوفاء؛ لذلك تراهم يمثلون ذلك في الدمى المعروضة في هذا العيد.

أما الفتيان: فيقيمون لهم حفلة «تانجونوسكو» كل معروضاتها من دروع وحراب وأعلام وأردية عسكرية، يقدم أمامها الساكي والحلوى، ويأكل الأطفال كعك الأرز تكسوه أوراق الشجر. وفي هذا العيد يستحم جميع الأطفال في ماء ساخن جدًّا تعطره أوراق شجر خضراء، ويقيمون أعمدة تطير فوقها مقاصيص الورق وكأنها الطير أو السمك يسبح في الهواء.

إلى هاكوني: قطعنا ٥٢ ميلًا إلى ضاحية تسمى ميانوشيتا؛ أعني أسفل الجبل، في مناظرَ لا تقل سحرًا عن مناظرِ نكو، وبها من المقاهي والأنزال الشيء الكثير. حللت أفخرها على نهر «هايا»، وحول النزل كثير من الينابيع التي قد تبلغ حرارة بعضها ٧٥°م، يؤمُّها

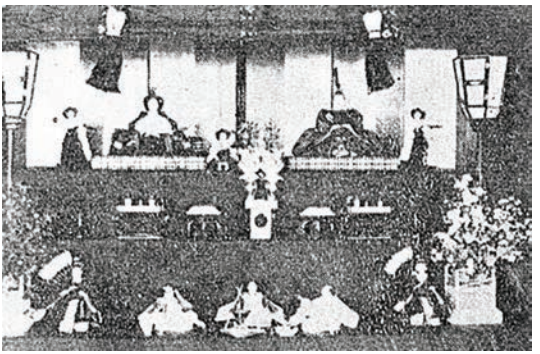

عيد الفتيات يجتمعن فيه حول الدمى الكثيرة ويقدمن مختلف الطعام والشراب.

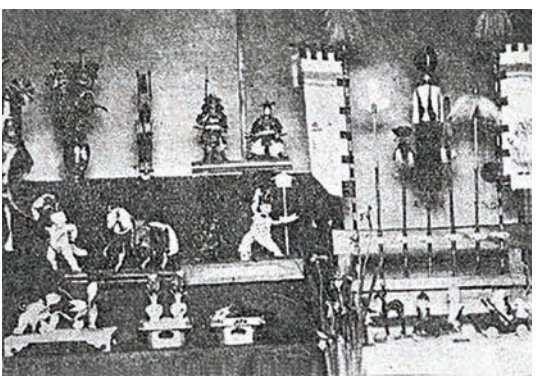

عيد الصبية وتعرض فيه الحراب والدروع والخيول والأجناد.

القوم للاستحمام والاستشفاء، ومن هنالك أقلتني سيارة إلى بحيرة هاكوني التي تبعد بنحو ٨ أميال فوق الربى. هنالك بدت صفحة من فضة ينعكس عليها «فوجي ياما»؛ أروع مناظر اليابان وأعلاها ذروة وأسماها مكانًا، حتى عدَّه الجميع خير الجهات المقدسة قاطبةً، ويحج إليه الجميع في مواسمَ معينةٍ بمصابيحهم وقرابينهم، ويتسلقون مخروطه

القاتم تجلله خطوط الثلج الوضاء، وهو أبدًا يرتسم على محيا البحيرة حتى في ضوء القمر؛ لذلك أسماها القوم بحيرة «ساكاسافوجي»؛ أعني فوجي المزدوج، على أن يومنا كان غائمًا كثيف الضباب غزير الأمطار؛ لذلك أخفى عنا جانبًا من روعة المناظر. ولم أكد أرى من فوجي إلا قبسًا ضئيلًا لم يشفِ غلة، فكأنه آلى إلا أن يحرمني الاستمتاع به كاملًا؛ لأني غريب عن أهله، مارق عن مذهبه، على أني في عودتي من طوكيو إلى أوزاكا كنت أراه بكامل روائه طوال الطريق.

عدت إلى طوكيو ورغبت في زيارة بعض دور العلم بمعاونة صديق ياباني هو «المستر يوكوياما»، أقام في مصر سنتين في رياسة المعرض الياباني، وهو كما بدا لي من أحاديثه من المحبين لمصر والمصريين، ولا يذكر بلادنا إلا بالخير؛ مما حببني فيه، وقد عاونني في ارتياد كثير من نواحي العاصمة وضواحيها. ولقد كان واسطة التعارف بيني وبين أحد أساتذة الجامعة من الأمريكان. ولم يسعدني الحظ بزيارة المدارس؛ لأنها كانت في شهور العطلة، غير أني لم أحرم فائدة ما قصَّه عليَّ من أنباء التعليم في تلك البلاد الناهضة التي نقلت غالب نظمها في التعليم عن أمريكا. ولقد نشط التعليم منذ سنة ١٨٦٩ حين أقسم الإمبراطور أنه سيعمل على نشر التعليم حتى لا تبقى عائلة جاهلة، ولا يبقى عضو أمي من أية عائلة كائنة ما كانت. ولقد نجحوا في ذلك حتى لم يبقَ من الأميين اليوم ما يبلغ الواحد في المائة. وللطلبة هناك — شأنهم في بلاد الشرق طرًّا — احترام شديد، وتأثيرهم في الرأي العام كبير، وكثيرًا ما يتدخلون في شئون الدولة نفسها، ولهم ملابس خاصة شبيهة بالملابس العسكرية؛ وتلك نقلت عن ألمانيا. وجميع المدارس تحت إدارة حكومية، ونظام التعليم هناك ديمقراطي لا يفرق بين أبناء الطبقات المختلفة. ويدرس التلاميذ في المدارس الابتدائية لغتهم وتاريخهم وشطرًا كبيرًا من علم الأخلاق. والكتب موحدة وترمي إلى حثهم على التضحية والولاء للدولة. والتعليم الابتدائي إجباري للذكور والإناث، ومدته ست سنين، ويليه التعليم المتوسط لمدة خمس سنين، ويحكي المدارس الثانوية عندنا، وهو مجاني هنا أيضًا، على أنه غير إجباري، وعند الالتحاق بتلك المدارس يجب على الطالب أداء امتحان مسابقة؛ لأن تلك المدارس لا تسع سوى ١٠٪ ممن أتموا التعليم الابتدائي. وهنا يبدأ تعليم اللغة الإنجليزية، ويلي التعليمَ المتوسط التعليمُ العالي لمدة أربع سنين. ومن أراد دخول الجامعة اقتصر في فرع آخر من المدارس العليا على ثلاث سنين، وفي الجامعة يظل ثلاث سنين أو أربعًا. وبذلك لا ينتهي الطالب من دراسته إلا في سن السادسة والعشرين على الأقل. ولعل سبب طول مدة الدراسة هكذا راجع إلى أنه يتلقى نوعين من الثقافة: اليابانية، والغربية، وكذلك قد تكون صعوبة اللغة اليابانية من الأسباب؛ فإنها تؤخر الطالب نحو

ثلاث سنين. ومن مزايا نظام التعليم في اليابان أنه يقوم على امتحانات المسابقة؛ فالكفاءة هي الشفيع الوحيد في دخول المدارس، وليست الجاه والمال — كما هي الحال في إنجلترا مثلًا — والطالب يجهد نفسه في التحضير لتلك الاختبارات من جهة، ولدروسه المدرسية من جهة أخرى؛ مما أثَّر في حالته الصحية. والتدريس هناك يقوم على المحاضرات في المدارس العليا كلها، وعدد الفِرق كبير جدًّا، ودروس الأسبوع ٣٥؛ مما لم يترك للطالب وقتًا كافيًا للاطلاع، فاعتمد على المدرس وما يُلقنه إياه، وفقد جانبًا كبيرًا من قوة الابتكار، رغم ما أوتي الياباني من توقد في القريحة وفرط في الذكاء يفوق أقرانه في سائر الشعوب.

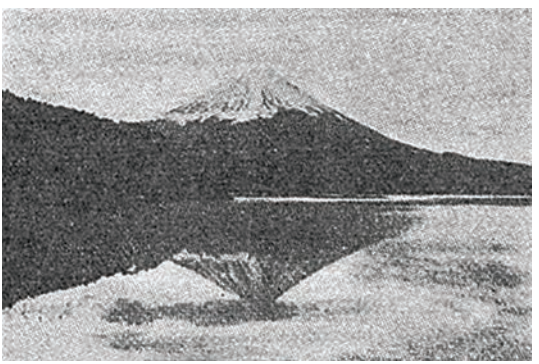

مخروط فوجي ياما الرائع ينعكس على صفحة بحيرة هاكوني.

ويلفت النظر ما للرأي العام بين الطلبة من الأثر على المدرس، فإن لم يرق الطلبة نقدوه علنًا، وطالبوا بتغييره، ويغلب أن يجاب طلبهم، ولا يعد المدرس ناجحًا إلا إذا استمال طلبته إليه؛ ولهذا أثره السيئ في تغافلهم عن التعمُّق في الدرس، وهم يحاولون أن يظهروا بمظهر العلماء، وفي هذا ما فيه من الغرور الأجوف، الذي زاده احترام أهل تلك البلاد للرقي العقلي والثقافة، أكثر مما يلاحظ ذلك في بلاد الغرب، التي لا تعطي للمتعلم ذاك الاحترام الكبير؛ لذلك يحاول المتعلمون طلاء أساليبهم في إغراب كبير، وقد يدخلون بعض الكلمات الأجنبية زيادةً في التنميق، وحبًّا في الظهور. حدث مرة أن قام وزير يخطب في دعاية دينية، فلما انتهى من كلمته في لغتها المتكلفة، التفت أحد الحاضرين إلى جاره وقال: أنا لا أفهم الإنجليزية! كذلك حدث لما زار أينشتين اليابان وحاضرهم في موضوع النسبية

أن كان يستمع له أستاذ ألماني، وتلميذ له ياباني تلقى عليه الألمانية لمدة نصف عام، فلما انتهت المحاضرة قال الطالب لأستاذه: أنا أفهم كل شيء بالألمانية، ولم تكن بنا حاجة إلى هذا المترجم، فقال له أستاذه: إذن فأنت أقدر مني في الألمانية؛ لأنني لم أفهم من الموضوع إلا القليل!

ومنذ عهد ميجي كان غرض التعليم هناك نقل المدنية المادية عن الغرب؛ لحفظ كيان الدولة، ولم تعترف اليابان بأن حضارتها ونظامها الاجتماعي دون حضارة الغرب مقامًا، فكان هَم الزعماء الوطنيين الجمع بين الاثنتين؛ رغم ما بينهما من تنافر؛ ففي أوروبا يرمي التعليم إلى ترقية عقل الفرد وخُلقه، بصرف النظر عن قومه وعائلته، لكن الياباني خاضع للأسرة وللدولة بحكم نظامه الاجتماعي؛ لذلك كان الغرض من تعليمه خدمة السياسة القومية؛ ومن ثم نجح التعليم هناك في تخريج طائفة قديرة من رجال الإدارة والجند، ورجال الصناعة والتجارة والأعمال المالية، وبفضل هؤلاء بلغت البلاد هذا المستوى من الرقي. أما النابهون المبرزون العباقرة فيندر وجودهم هناك.

على أن التغير بدأ يسود طوائف الطلبة منذ الحرب الكبرى؛ فقد تدفقت عناصر الحضارة الغربية تلك التي قوَّت روح النقد لتصرفات القدماء، وأصبح موقف الشبان هناك شبيهًا بموقف شباب إيطاليا عهد النهضة حين ثملوا بخمر ما داهمهم من حضارة الغرب، خصوصًا في الفن والموسيقى والنظام الاجتماعي والسياسي، فبعد أن كان يلقن الطاعة للآباء، والولاء للدولة، والخضوع لتعليم الدين الشنتوي، أخذ يدرس في الجامعات الحرية الشخصية والحكومات النيابية، مما يثيره على النظم القديمة، فتراه اليوم حائرًا أي السبيلين يسلك؛ مما أضعف إيمانه، فلم يرمِ لغرض واحد ذلك الذي كان خير كفيل بتقدُّم اليابان الأخير. وقد أحس بافتقاره لوسائل التسلية التي يتمتع بها نظيره الغربي، وكذلك أحس بضيق فسحة الفراغ التي تساعد الاطلاع والبحث.

ولا يزال ينقد الأجانب نظام المدارس؛ لكبر الفصول وحداثة عهد المدرسين، ذاك الذي لا يوجد التعارف الشخصي بين المدرس وطلبته، ويزيل التأدب الظاهر، ويحل الحب المتبادل والإخلاص محله. ولا يزال المدرس الذي يمتزج بالطلبة عرضة للإهانة هناك. وقد أخذ الآباء يتهمون النشء بنقص في الوطنية، يبدو جليًّا في نفورهم من التجنيد. وأوضح ما يظهر ذلك في كراهية الطلبة للضابط الذي يُخصص لتعليم الطلبة النظم العسكرية في جميع الكليات، على أن الفرنسيين عمومًا، والإنجليز خصوصًا، يرون أن نظام التعليم الياباني على ما به من عيوب أفضل من نُظمهم؛ لأنه يسوي بين الطبقات جميعها، فلا

يفضل طالب لجاهه أو ثروته، بل لكفاءته؛ مما ساعد الحب المتبادل بين أفراد جميع الطبقات، فكان لذلك أثره القومي الجليل.

إلى كيوتو (ومعناها عاصمة العواصم): أخذت القطار السريع فوصلتها في عشر ساعات. أسست سنة ٧٩٤، وظلت عاصمة البلاد إلى ١٨٦٩، حين انتقلت إلى طوكيو؛ العاصمة الشرقية، وهي تقع وسط سهل تحوطه الربى من جوانبَ ثلاثةٍ. وقد كانت ولا تزال مقر الحضارة والفنون اليابانية البحتة، وتكاد تعد خير المدن اليابانية التي لم تمسسها يد التجديد قط؛ فغالب مبانيها خشبية واطئة كسائر القرى اليابانية، أثاثها قليل؛ تفاديًا من أخطار الزلازل التي يبلغ متوسط هزاتها الشديدة ثلاثًا في كل يوم، حتى أثر ذلك على مجاري صرف المياه والأوضار، فأفسدت رائحة بلادهم وحقولهم حتى اتهمهم الأجانب بضعف حاسة الشم! والعجيب أن البحث الطبي أثبت ضعف الشم والسمع والبصر في المتوسط هناك. ولعل للمناخ أثرًا في هذا. وحدائق البيوت نسقت على النمط الياباني. والحديقة اليابانية نموذج مصغر لما يحوطهم من مناظرَ طبيعيةٍ، فرغم صغرها توهم بوجود الجبال والبحيرات. وقد يخيل للمرء أنه يرى شلالات على بعد، رغم عدم وجود المياه، وقد يعبر المرء صخرة أو قنطرة صغيرة تشعر بنهر، وترى بقاعًا مهملة عليها الحصى والرمل كأنه جزء من شاطئ بحر، وكثيرًا ما يقلد البستاني منطقة طبيعية معينة. وتقع حدائق البيوت غالبًا خلفها، تطل عليها الحجرات الهامة؛ لأن الحديقة ملجأ العائلة في سرورها وراحتها وتعبُّدها، وفيها نوع من العزلة والحجاب. وقد تكون الحديقة جبلية نقلًا عن منحدرات الجبال، وقد تكون مبسوطة نقلًا عن مرج أو وادٍ، وبحيرات الحديقة يجب أن تشعر ببحر صغير بسواحلها الرملية الخشنة، وصخورها المنثورة وسطها. ولا تخلو الحديقة من العيون الدافقة. ولكي توحي بالجمال الطبيعي، وجب أن تقام المصابيح من الحجر؛ لتتمشى مع الصخور والأشجار، وقد كان الغرض منها الإضاءة، وأضحت اليوم للزينة. ويراعى في ترتيب الشجر والنبت الاندماج وعدم التماثل مع الجمال الفتَّان. وينتقي نحو أربعة أخماس الشجر من دائم الخضرة. أما النفضي فقليل، ومن ذوات الألوان التي تشعر بالدفء في الربيع والخريف. ولا تخلو حديقة من شجرتي البرقوق والكريز ذوات الزهور الساحرة. أما الشجر المزهر فلا حصر له. ولا بد أن تبعثر الأشجار المزهرة خلف الدائمة الخضرة؛ لكيلا يخلو الزهر من الخضرة حوله، ولكيلا تشعر بعض فصول السنة بشيء من الجدب والجفاف. ولا يكاد يخلو الماء من زهر السوسن والبنفسج. ذاك نموذج من حدائقهم التي تحكي الطبيعة، زرت بعضها في الميادين، وأخرى في البيوت. وهناك

جلست في مقصورة الشاي التي يغلب أن تقام في كل بيت، ومن تحتنا الحشيات (الشلت) من الحرير المبرقش البراق. وللشاي عندهم غرام عجيب يقدمونه في أوانيهم الثمينة من الخشب المزركش بالذهب و«اللاكيه»، والفتيات يقدمن الكئوس، ونحن نقدم لهن كئوسهن مجاملةً وأدبًا، ويقيمون له حفلات في مواسمَ خاصةٍ، ويعتقدون أنه من أكبر العوامل على تعليم القوم أدب الاجتماع، وهو الذي نهض بكثير من صناعاتهم الدقيقة؛ كالتصوير واللاكيه والخزف، وتنسيق الحدائق، وتنميق الزهور. وقد أصبحت أواني الشاي لديهم من النفائس، وقد نقلوا ذلك عن الصين منذ القرن السابع. وكان شرب الشاي إذ ذاك قاصرًا على القسس، ثم انتشر بين الخاصة. وكان يشرب مسحوقًا كالبن، وقيل: إن الموسيقى كانت تعزف عند سماع صوته وهو يسحق؛ احترامًا له! وشاع بينهم أن شربه يطيل العمر. وقد كشف الأستاذ سوزوكي سنة ١٩٢٥ أن الشاي الأخضر الياباني يحتوي على مقدار من الفيتامين «ج» أكبر مما في الفاكهة والخضر، وهو ينشط الأعصاب؛ لذلك يستهلك القوم ثلاثة أرباع ما يزرعون، وهو مائة مليون رطل. وأول ما نقله الأوروبيون عنهم سنة ١٥٦٥ بواسطة «المايدا» البرتغالي، ويقصون أن بعض عظمائهم مد سماطًا للشاي بلغ ثلاثة أميال تكسوه الآنية الثمينة الفاخرة، وحضره ٣٦٠ من المدعوين في كيوتو، وعن هذا النظام نقله الفرنسيون.

ومن المتنزهات ذائعة الصيت في كيوتو: «مارويامًا».

قضيت في جناته طويلًا، ثم عرجت على زيارة معبده الكبير. وأعجب ما هنالك نار يقوم الجميع على إشعالها أبدًا، ومنها يأخذ الناس قبسًا في خيوط يبتاعونها من القسس، ويذهبون مسرعين إلى بيوتهم لإشعال نار مستهل السنة؛ كي تظل بركة النور المقدس تحل في البيت، وتستطيع أرواح الأجداد زيارته. وبعد أن جبت كثيرًا من المعابد عرجت على القصر الإمبراطوري بأسواره الممتدة يحوطها الخندق. وهنا يتوج الإمبراطور إلى اليوم في حفل كبير، وبعده دخلت المتحف، ولعله أكبر متاحف اليابان؛ لكثرة معروضاته من مخلفات اليابان القديمة، على أنها — في نظري — لا تُشعر بماضٍ مجيد! وقد تناولت العشاء في فندق يقوم في بناء فاخر من خمسة طوابق شاهقة، ويطل على النهر، وكل طابق مقهى أعد على نظام يُغاير الذي يليه في التنسيق، وفي نوع الطعام والشراب، وفي الألوان والأضواء، فتخيرت أعلاها؛ لأن منظر المدينة من دونه بأضوائها الخاطفة ساحر لا أنسى روعته.

أمانوهاشداتي (أعني الجسر السماوي): إحدى آيات الطبيعة الثلاث في اليابان؛ وهي: مياجيما؛ جزيرة المعبد، وماتسوشيما أو جزائر الصنوبر، وعددها ٩٠٨، تكسوها

حفلة الشاي المنزلية وما يحوطها من مراسيمَ.

الأشجار اليابانية. وهاشداتي وَهدة تتغلغل في جوانبها أجوان البحر الشمالي، وتنتثر جزائره الصغيرة. وصلتُها في ست ساعات خلال طرقٍ متلوية وفيرة النبت والغدران والشلالات؛ شأن كل أرجاء اليابان. وهنا يظهر جليًّا أن الطبيعة جادت على اليابان بجمال وتنسيق بخلت به على سائر بلاد الدنيا، فكأن اليابان آية ما أبدعته يد الطبيعة، فأينما سرت تباغتك الطبيعة بسحرها الخلَّاب. وقد سميت بالجسر السماوي؛ لأن هناك جسرًا نحيلًا طوله ميلان، وعرضه يتراوح بين ٤٠ و٧٠ مترًا يشقُّ الماء، وتكسوه أشجار الصنوبر. تسلقت في أحد طرفيه ربوة بواسطة ترام كهربائي هوائي على قمتها معبد، ومن حافة الربوة وقفتُ كسائر الحجاج وظهري للماء والجسر، وانحنيت حتى أوشكت رأسي أن تدخل بين فخذيَّ. وهنا دهشت؛ لأني رأيت بركة الماء من دوني وقد انعكس عليها صفاء السماء، فبدت هي سماء لألاءة، والجسر كأنه القنطرة النحيلة قد بدت فوق لُجَّتها.

إلى نارا: وهي إحدى العواصم القديمة التي ظلت زهاء ثلاثة أرباع القرن حاضرة اليابان قبيل كيوتو. بدت على كبرها كأنها متنزه واحد وسط غابة ممدودة تتخللها المساكن والمعابد والمقاهي. يؤمُّها الحجاج في زرافات، وتراهم منكبين على تناول المرطبات، وبخاصة

الفتيات يقطفن أوراق الشاي الأخضر في مزارعه الشاسعة في اليابان.

«الثلج المبشور» في غير طعام ولا شراب. ويظهر أنه أحب المرطبات لديهم؛ لأني كنت ألاحظه أينما حللتُ، ويليه أيسوكوريمو (جيلاتي)، الذي يلتهمه الجميع بِشَرَهٍ زائد. ولعل شهرة نارا اليوم في معابدها، وأجلُّها تمثال بوذا النحاسي؛ وهو أكبر تماثيل اليابان طرًّا، وإن أعوزه الجمال والفن عن تمثال «كاماكورا». يعلو في الجو ٥٣½ قدمًا، ويزن خمسمائة طن. وفي معبد آخر ناقوس ضخم زنته أربعون طنًّا، وهو أكبر نواقيس اليابان، يدقه المتعبد ساعة أن يُلقي نقوده أو قرابينه للآلهة؛ ليوقظها، فترعاه وتكلؤه. ولصوته المزعج الرهيب دوي تردده الربى طويلًا. وأبنية المعابد كلها من خشب ضخم تكسوها السقوف المتحدرة تتقوس أطرافها إلى السماء؛ دفعًا لغوائل الجن. وترى آثار بوذا الذي يوصي بالرفق بالحيوان جلية في كثرة الحمام الأليف يبتاع له القوم الحب المقدس، فيتهافت الطير علينا في زرافات تختطف ما بأيدينا منه، وما بأفواهنا وجيوبنا، في ألفة عجيبة، وكذلك أسراب الظباء المقدسة التي تمرح في أرجاء الغابة كلها، نبتاع من أجلها أقراصًا من خبز «البازلاء» المقدد، فتلتف حولنا وتلتهم الخبز من أيدينا في هدوء واطمئنان. وعند الأصيل يضرب الرجل بناعورته، فتفد إليه من أقاصي الغابة ليطعمها، ثم يقودها إلى حيث تنام. ومجموعها اليوم سبعمائة. وفي شهر أكتوبر من كل عام تُقصُّ قرونها؛ كيلا يؤذي بعضها البعض. وفي أقاصيصهم أن أحد الآلهة أتى هذا المكان يمتطي ظبيًا ليتعبد في معبد نارا الكبير، ودعا إليه إلهينِ جاءاه على متون الغزلان، فأصبحت الغزلان لذلك مقدسة إلى اليوم!

متنزه مارورياما في كيوتو وهو مثل من الحدائق اليابانية.

إلى يمادا إيسي: وصلتها في أربع ساعات، وهي مقر ديني ومتنزه بديع. وفي طريقي إليها عرجتُ على قرية «توبا»، وبها صخرة فرتامي أورا المقدسة، وهي من حجرين وسط الماء تشرق الشمس من بينهما في مشهد جميل. ويحج الناس إليها لزعمهم أن إحدى الآلهة جلست فوقها، وكانت تستقبل شمس الصباح؛ لذلك تعلوها بوابة صغيرة مقدسة. وفي يمادا، زُرنا معبدين رائعين يعتقد القوم أن أرواح البراطرة تحل فيها؛ لذلك ترى العناية بهما فائقة في النظافة والتنسيق، ولا بد من هدمهما وإعادة تجديدهما كل عشرين عامًا. وفي المداخل كلها يقف ضباط البوليس في خشوع كأنهم يَصدعون بأمر أرواح البراطرة. والإمبراطور نفسه والأمراء يزورون المكان لإبلاغ وحي أجدادهم كل أمر جلَّ أو صغر؛ فعندما ولدت للإمبراطور بنته الأخيرة ذهب فأبلغ الأمر لروح أجداده! كذلك لما

الجسر السماوي وترى الآنسة قد أطلت من بين فخذيها لترى الجسر وكأنه القنطرة.

عاد أخ الإمبراطور تاكاماتسو وزوجته من رحلتهما حول العالم ذهبا توًّا إلى المعبد وأعلنا الأجداد بحضورهما! والمعابد هناك كلها شنتوية؛ لذلك خلت من التماثيل؛ فليس بها سوى البوابات الفخمة في غير تقوُّس — كما هي حال البوذية — والمقاصير العديدة التي تكاد تخلو من الأثاث. وفي الهيكل، يتدلى ستار أبيض من خلفه مرآة تمثل روح الله، ويسجد القوم أمامها في خشوع. ولا تكشف المرآة إلا ثلاث مرات في العام في مناسبات دينية كبيرة، ويكثر أن يعلِّق القوم حول المعابد قصاصات من ورق، وقيل: إن السبب اتفاق كلمة ورق باليابانية مع اسم للآلهة. وطالما كنت أرى دمية من قش دقتها إلى شجرة المعبد زوجة هجَرها زوجُها، وهي تعتقد أنها كلما أكثرت من دق المسامير فيها، أنقصت الآلهة من عمر زوجها الخائن، وهي تعِدُ المعبد أن تقتلع كل ذلك بعد موت زوجها؛ لأن في بقائها جرحًا للشجرة المقدسة، ومضايقة للآلهة! وأمثال تلك الخرافات تُعزَى إلى قسوة عوامل الطبيعة تلك التي توحي بالأوهام وخشية القوى الخفية والجن؛ ولذلك كثر السحرة والعرافون بينهم، على أن الطبيعة رغم ذلك هدَّأت طباعهم بجمالها الفتَّان، فعقائد اليابانيين كانت تبدو في نظري ساذجة بسيطة، مبناها الخرافات التي يتمسك بها القوم جميعًا في عصبية لا تتفق وتقدمهم العصري المدهش. وكنت كلما ناقشتهم لم يستطيعوا الإقناع، بل أحالوا الأمر إلى تقاليدهم التي يجب عليهم تقديسها. وكان البوذيون — وهم عامة الشعب — يقولون بأن بوذا هو الله! كان إنسانًا في الأرض، ثم صفت نفسه وصعد إلى السماء! وهم يؤمنون بالبعث والجنة والجحيم على عكس الشنتويين — الذين يمثلون الطبقة الممتازة —

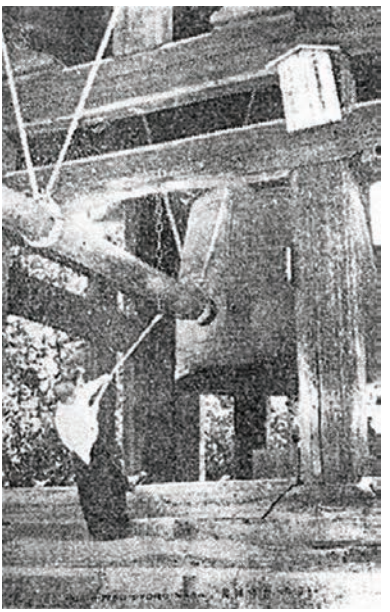

أكبر نواقيس اليابان يدقه المتعبد؛ إيقاظًا للآلهة!

فهم يرون أن الموت النهاية الطبيعية للحياة لا بعث بعدها، ويعتقدون أن الله روح عليا في سماء اليابان فحسب! وأفراد الديانتين يقدسون الأجداد، ويرون أن أجداد الإمبراطور من سلالة الآلهة! ولست أعرف في العالم المتحضر اليوم ديانة تسود أذهان ذويها في العقيدة والقومية معًا، وتوحد بين الروح الديني والزمني مثل الدين اليهودي؛ لذلك شهر أهله بالتعصب، فشُتِّتوا وبغضهم الجميع. ولعل اليابانيين اليوم كذلك؛ فالدين الشنتوي لديهم هو رباط الوطنية غَالَبَ الزمن والمبشرين جميعًا وظل كما هو، فهو ليس عقيدة فحسب؛ بل رباط قومي قوي يؤثر على الياباني في جميع نواحيه، وهو في لبابه عبادة الطبيعة. ورغم أنك لا ترى مظهرًا للتعصب؛ فإن العقيدة راسخة دعمت قوميتهم مُذ كانت أساس الطاعة والوطنية، وملتقى فضائلهم من الشجاعة والتأدب وشرف النفس؛ فروح الشنتوية التقوى والطاعة البنوية وتضحية النفس في سبيل المبدأ في غير تردد ولا مناقشة؛ فقد أضحى الدين حافزًا خلقيًّا متوارثًا، وهو من أكبر العوامل في التوحيد بين الناس، والتأليف بين قلوبهم،

الغزلان المقدسة تأكل أقراص البازلاء من أيدينا.

فليس فيه ما يدعو للجدل والنزاع، كما نرى بين مذاهب الديانات الأخرى، والشنتوية لا تعتمد على عقيدة معينة، ولا كتاب مقدس، ولا معبود خاص، ولا شعائرَ محددةٍ حتى، ولا رجاء في الآخرة؛ لذلك لم تقع بينهم حروب دينية قط. وأخص ما ترمي إليه الشنتوية عبادة الطبيعة، واحترام الموتى والآباء. وهنا سر إخلاصهم لبلادهم، فالطبيعة هناك جديرة بالعبادة في اختلاف مناخها، ومناظرها الساحرة، وثمارها الوافرة؛ لذلك أقيمت البوابات المقدسة حيثما تفيض الطبيعة بروعتها. ولو أن في البلاد كثيرًا من البوذيين، إلا أنهم لم ينزعوا من قلوبهم الشنتوية مُذ عرف الجميع معناها في الوطنية والإخلاص لبلادهم؛ لذلك لا يقوم خصام بين الشنتوية والبوذية، فترى المعبدين متجاورين، وقد يكون القسيس مشتركًا بين المعبدين. وكل القواعد التي شذَّ فيها الدين البوذي عن الشنتوية مهملة غير مرعية من الجميع، فالبوذية تعاون على نشر روح التشاؤم. ورغم ذلك فإنك ترى التفاؤل والانتعاش النفسي هو السائد بين الشعوب اليابانية، على عكس أهل الصين — ويحض بوذا

على السلام والوئام والدعة، لكنك ترى الياباني من أشد المحاربين مراسًا؛ فالبوذية عندهم سطحية، رغم ما يبدو من إسراف في تشييد معابدها، وكثيرًا ما كنت أرى الرجل الواحد يؤدي الصلاة بالركوع في معبدين متجاورين؛ أحدهما شنتوي، والآخر بوذي!

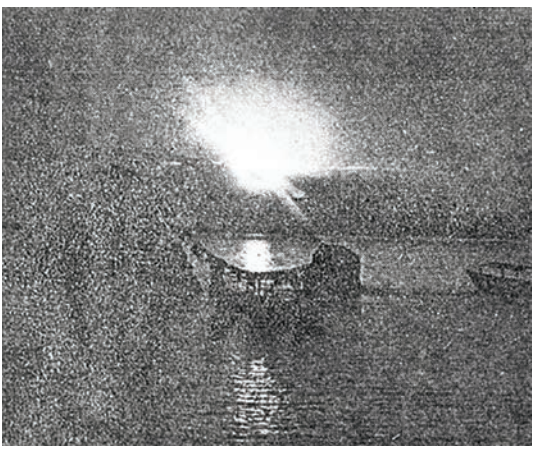

صخرتا فوتامي أورا المقدستان تشرق الشمس من بينهما.

وإذا مات أحدهم أقبل أصحاب الفقيد يُقدِّمون بعض الهدايا من كعك ونقود وطعام وزهور، وفي اليوم التالي يحضر القسيس، ويضع الجثة في حوض تحفه الزهور العبقة، ثم تلف في قماش أبيض، ثم يحمله قوم في أردية بيضاء يتقدمهم بعض المرتلين، ومن ورائهم المشيعون، وإذا ما وصلوا المعبد وضعت الجثة على المحراب، وقرأ القوم بعض الآيات، وأخذ يمر المشيعون أمامها فرادى وهم يركعون ويلقون ببعض البخور في كور متقد، ثم توضع الجثة في التنور حتى تصير رمادًا تحت مراقبة المشيعين، وهم خلال ذلك يأكلون ويشربون ويتحادثون عن فضائل الفقيد، وكلما تم الاحتراق عاجلًا، كان ذلك مدعاة للتهنئة، منظر رائع لا محالة، لكنَّا إذا علمنا أن عقيدة الياباني في الموت، أنه النهاية الطبيعية للحياة لا يعقبها ثواب ولا عقاب زال العجب، وكثير منهم يحمل ما تخلف من رماد في زجاجة تدفن في مدافن الأسرة، ويقام عليها شاخص باسمه، وقد تدفن الجثة بغير حرق، وإذا كانت المتوفاة آنسة قصَّ شعرها وحُفظ في البيت تذكارًا لذويها.

اليابانيون شديدو التمسك بدينهم، لكنهم بعيدون عن التعصب، والكل يركع أمام المعبد حتى الأطفال.

إلى أوزاكا: قمنا بقطار الكهرباء؛ ذاك الذي يكاد يشق جميع بلاد اليابان، مما يدل على أنهم استغلوا منحدرات مياههم الكثيرة استغلالًا جعلهم في مقدمة بلاد الدنيا استفادةً بالكهرباء. وترى غالب الخطوط الحديدية مزدوجة بين أمهات المدن، سكة البخار إلى جوار سكة الكهرباء. أما بلاد الريف فيغلب أن تتصل بالسكة الكهربائية.

ويلفت نظر السائح هناك أن كثيرًا من القاطرات، خصوصًا الريفية، ذات مقاعد جانبية، يجلس عليها القوم القرفصاء يواجه بعضهم بعضًا؛ لأنهم يكرهون الجلسة وأرجلهم مدلاة إلى الأرض مثلنا، ويقال: إن السبب قصر قاماتهم التي تجعل أرجلهم معلقة؛ مما يؤلمهم كثيرًا.

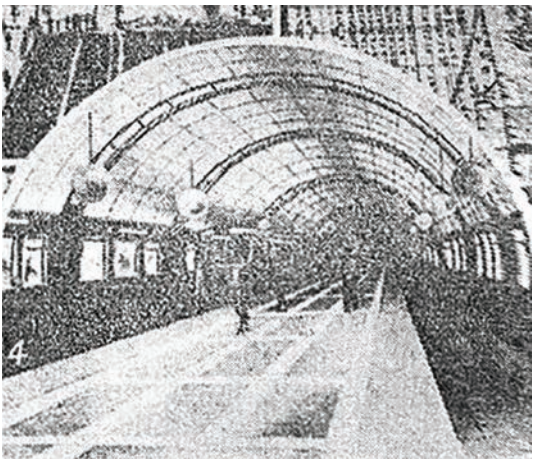

سكة حديد الكهرباء التي تسير تحت الأرض في أوزاكا.

دخلنا أوزاكا في أقل من ساعة، فبدت غاصَّة بالحركة، مكتظة بالسكان؛ لأنها أغنى المناطق الصناعية، وبخاصة في النسيج، حتى أطلقوا عليها اسم منشستر اليابان، وهي أكثف المدن سكانًا؛ لذلك لا تروق السائح كثيرًا، وأجمل مسالكها شارع «دوتومبري» التجاري قليل الاتساع، عظيم الامتداد، أضواؤه في الليل تبهر النظر بأشكالها اليابانية المكورة عديدة الألوان، تتخللها الإعلانات والأسماء باللغة اليابانية في حجم كبير، وسيل الجماهير يثير الدهشة، فهو لا يكاد يسمح بالمرور إلا والأكتاف متلاصقة. وأجمل ما بدا منظر ذاك السيل الآدمي من قنطرة نهر أوزاكا التي تشرف على الشارع من وسطه. وترى زوارق الرياضة في النهر وقد علقت بها مصابيح النور المُلوَّن إلى مد البصر، ويتقاطع مع ذلك الشارع آخر للملاهي والمراقص في أضوائه الخاطفة، وزخرفه وأثاثه الياباني العجيب. آويت ليلتي إلى نزل ياباني صميم، وما إن حللت بهو النزل حتى رأيت حواجز الخشب والورق تزلق من حولي. وفي لحظة حُصرت في غرفة ضيقة، وأحاطني القوم بأدبهم الجم، وكرمهم المعروف، وبعد أن قدموا إليَّ شاي الاستقبال، والقطيلة (الفوطة) المعقمة، عرضوا عليَّ الحمام فرفضته — ولا يلدغ المؤمن من جحر مرتين — ثم أقبل رب النزل يسألني: أتريد جيشات؟ وتلك طبقة من السميرات المحترفات لها مدارس خاصة في سائر بلاد اليابان، فيها

تتعلم الفتيات وسائل السمر وإيناس الأضياف، بما في ذلك الغناء والعزف على الشامسين والكوتو، ولا يخلو منهن مجلس قط. ويحتقر اليابانيون جميع الأوروبيين الذين يصادقون الفتيات ويغازلونهن على قارعة الطريق. وحقًّا لم ألاحظ شيئًا من هذا في الطريق قط، رغم اختلاط الجنسين، عكس ما كنت ألاحظه في جميع بلاد أوروبا؛ إذ ليس للشبان هناك من عمل يقتلون به فراغهم سوى المغازلة للفتيات على قارعة الطريق. أما اليابانيون ففي ظنهم أن الرجال أكبر مقامًا من النساء؛ لذلك لا يصح التريض معهن على قدم المساواة، وهم لا يرون رأي الأوروبيين في أن الجنس اللطيف حياة المجالس وروحها؛ لذلك كثيرًا ما كنت أرى جماعات النساء يقصدن إلى الرياضة في غير صحبة الرجال. أما الرجال فيغلب في رحلاتهم أن يستحضروا الجيشات السميرات. وكثيرًا ما ترى حلقة من الرجال يجلسون القرفصاء إلى جانب غدير أو شجرة مزهرة يشربون الساكي، وفي وسطهم السميرة ترقص لهم وتغني، وترى بعض المارة ينضم إليهم، ويندر أن يخاصرها في الرقص رجل؛ لأنهم يستنكرون رقص النساء مع الرجال على النظام الأوروبي. وفي الحفلات والولائم لا بد من وجود الجيشات. وأجورهن غالية بين جنيه وثلاثة جنيهات في اليوم. وكلما أُقيم معرض أو انعقد مجلس في إحدى المدن الكبرى كثر الطلب عليهن جدًّا، ومن بينهن الممتازات بأسمائهن مثل «كوهاروسان، رين جوسان». وكلما علا صيتهن دلَّ ذلك على زيادة في إكرام الضيف. ويقدم الأشراف لأمثال هؤلاء هدايا قيمة؛ من ذلك ماسة قيمتها ٨٥٠ جنيه قدَّمها نبيل للجيشا «ساكا كوسان»، فامتدحت الجرائد كلها تلك السميرة، وأطرت المدرسة التي أنجبت مثل هذه الجيشا التي أصبحت من الشخصيات الممتازة في طوكيو. وفي الولائم الرسمية، يجلس الجيشات أمام الجمع ركعًا، ويملأن أكواب الساكي كلما فرغت، وبين آونة وأخرى يلعبن دورًا موسيقيًّا. وبعد نهاية الطعام يقمن بألعاب بسيطة مع الرجال. أما في الحفلات الخاصة العائلية فيرفع التكليف، ويمتزج الجميع امتزاجًا تامًّا. ويجب على الضيف أن يملأ كأسه بيده بين حين وآخر ويقدمه للجيشا، وتظل شاخصة أمامه حتى يفعل ذلك. وكثيرًا ما يغفل الضيفان ذلك، فيظل الفتيات مكانهن في مضايقة شديدة، ويُرمى الضيف عندئذ بقلة الذوق. وعلى الضيف أن يأتي على زجاجة الساكي بأكملها كي تملأ ثانيةً، وإلا عُدَّ ذلك شؤمًا على المكان. وليس لأحد أن يطيل النظر للسميرة التي تجانب زملاءه؛ إذ يجب أن يلاطف السميرة الخاصة به، ويغلب أن تكون أشهر الجميع؛ لأن أدبهم يقضي بأن يُخص الضيف بأكبر المزايا، على أنه لا يشترط أن تكون أشهر السميرات أجملهن وجهًا؛ بل أذكاهن

وأقدرهن على التسلية، ولا يكاد يخلو مطعم أو مقهى من الجيشات. وأكثر ما يعنون به من التزين الملابس «الكيمونو»، وتنظيم الشعر، وطلاء الوجه بالمحسنات البيضاء. أما الحلي من أقراط وعقود وسوار وخواتيم فلا تجد من ذوقهن قبولًا. ورشاقة الفتيات بالغة رغم ما يعوزهن من جمال؛ إذ لا تزيد نسبة الجميلات على خُمس فتيات اليابان جميعًا في سن النضارة، وهي ما بين الثالثة عشرة، التاسعة عشرة، وبعدها يبدو الهرم عليهن عاجلًا؛ كالمصريات والإيطاليات وسائر فتيات البلاد التي يقصر فيها أمد الشفق؛ إذ لوحظ أن جمال السيدات يظل طويلًا كلما طال زمن الشفق.

إحدى السميرات وهي ترقص على الطريقة اليابانية.

وأمر النساء في اليابان يثير الدهشة والنقد من عدة وجوه، فإنهم يبيحون للفتيات ما دُمن غير متزوجات كامل الحرية في التريض والمصادقة. وقد ناقشت بعضهم فكان منطقه أن العزوبة أمر غير طبيعي، فإن لم يكن للفتاة زوج فخليل، وهم لا يعتدون بالبكارة والعرض اعتدادنا به في الفتيات، على أنها إذا تزوجت أصبحت مثال الوفاء لزوجها. والعجب أنها لا يصح لها أن تظهر الغيرة على زوجها من غيرها! وكثيرًا ما تخاطب زوجها عند

مثل من الجيشات سميرات اليابان.

أوبته من رحلته قائلة: أرجو أن تكون قد استمتعت ليلتك الفائتة! فيقص عليها نبأ ما كان يحوطه من فتيات وجيشات وصويحبات سرين عنه كثيرًا!

وأعجب من ذلك وأنكى أنهم يحترمون العاهرة احترامهم للزوجة، فالأب هو الذي يتخير لها الزوج، كما أنه هو الذي يدفع بنته إلى الدعارة إن أعوزه المال؛ لأن في عوزه هذا هدمًا للعائلة، ويجب تلافيه؛ وإلا انهار ركن قومي يؤثر على كيان الدولة والوطن! وهم يطلقون على العاهرة اسم «أوجوروسان»؛ أي العاهرة العظيمة. حدث مرة أن اقترض نجار خمسين جنيهًا من دار جيشات مقابل ارتهان بنته الجميلة في سن الحادية عشرة لمدة خمس سنين، بعدها يدفع الدين ويتسلم الفتاة، فأصبحت تلك الفتاة من كبريات الجيشات فأكبرها الجميع. وإذا احتاج الرجل المال وكانت بنته كبيرة فوق السابعة عشرة دفع بها إلى بيت الدعارة! فإن هربت ساعده البوليس على إرجاعها إلى بيت الدعارة حتى يتمَّ سداد

دينه؛ لأنها ملزمة بذلك قانونًا مذ قبلت الدين عن والدها! تصرُّف نراه همجيًّا وحشيًّا، لكنهم يبررونه بأن واجب الأبناء طاعة الآباء، والعمل على إنقاذهم من الشدائد؛ لأن في ذلك معنى الإخلاص للأسرة وللدولة التي يُضحى في سبيلها كل شيء! ويتهافت الشبان على الزواج من أمثال أولئكن؛ إكبارًا لهن، وتفاخرًا بهن! منطق لا تسيغه عقولنا البتة.

أضف إلى ذلك أن من أخص وسائل إكرام الضيف أن يقدم المضيف السميرات لضيفه، وهل هذا في زعمهم إلا واجب طبيعي؟! وقد كانت العادة فيما مضى أن يبالغ المضيف في إكرام ضيفه، فيقدم له زوجته. ولا خطر هناك من اختلاط النسل؛ فكلهم أبناء الإمبراطور ابن السماء! ولم يقلعوا عن تلك العادة القبيحة إلا تفاديًا لمرارة النقد الأجنبي، وأنهم لا يطيقون أن ينقد بلادَهم أحدٌ قط!

تناولت العشاء ورغبت في النوم، وسرعان ما تقدَّم الفتيات إلى وسط الغرفة يفرشن لي حشية (مرتبة) قصيرة تتناسب مع قاماتهم القصيرة، وإلى ناحية الرأس وسادة من خشب عليها غشاء رقيق من قماش يحشوه القش، وشُدت «ناموسية» خضراء في حجم الغرفة كلها إلى الأركان، ووضع إلى جانب الفراش الشاي الذي يحسن شربه قبل النوم؛ ليطهر الفم، ويساعد الهضم، ثم قدمن المبخرة وأشعلت بها فتائل خضراء حلزونية تظل متقدة طوال الليل؛ طردًا للبعوض، على أني لم أطق رائحته المنفرة، فمددت جسمي وكانت قدمي تتدليان خلف «الفراش» إلى نصف الساقين، ورأسي لا تكاد تستقر على وسادة الخشب القاسية التي لا يلذ لهم النوم إلا عليها، فترى الرقبة مشحوذة عليها، والرأس يتدلى من طرفها الخارجي غالبًا! ويظهر أن الباعث عليها شدة محافظة السيدات على تنسيق شعر الرأس؛ مخافة أن تعبث به الوسائد الأخرى، ويقولون: إن نساء اليابان امتزن بجمال الرقاب الممشوقة غير المجعدة؛ وتلك نتيجة النوم على هذه الوسائد. ويغلب أن يوضع بجوار الفراش مصباح من ورق ملون، على أني لم أنم إلا غررًا. وكنت أدهش لهم إذ ينامون نومًا عميقًا رغم قعقعة أخشاب الغرفة ومصابيحها، وطنين البعوض والفراش، ويكاد يخيل للمرء أن الدار ستنهار أمام شدة الرياح؛ فهي ترتجف أبدًا وكأنها الخيام المؤقتة. إلى ذلك أني كنت أسمع كل همس يقع في الحجرات الأخرى.

وفي صبيحة اليوم التالي، قصدت القصر الإمبراطوري القديم وكأنه القلاع العاتية بصخوره التي أذكرتني بجلاميد الكرنك في ضخامتها، على أن مقاصيره كلها تتوج بالخشب في الخرط الياباني في شيء من الضخامة في غير علو، ومن حوله خندق كأنه النهر العظيم تخترقه قناطر عدة. ومن أشهر ما يزار في أوزاكا ملهى الدُّمى (تياترو العرايس)،

النوم في اليابان على الحشيات (الشلت) والوسائد الخشبية يجاورها مصباح الورق والمبخرة.

وهو الوحيد من نوعه في العالم، ويسمى (بونراكو). وقد كان القسس في الزمن القديم يستخدمون الدمى واسطة بينهم وبين الآلهة، ويبلغون الناس رسائل الآلهة على لسانها؛ كي تشعرهم بأنها ليست آدمية مثلهم! ثم انتقلتُ فيما بعدُ إلى الملاهي، هناك ترى جمعًا من الدمى الكبيرة في ثلث الحجم الآدمي، تظهر على المسرح يحركها أناس بمهارة تشعر بأنها أقزام بني آدم، فتمثل الدمى رواية كاملة، وتنظم حركاتها على أنغام الموسيقى، والعازفون يتكلمون ويغنون بدل الدُّمى التي تؤدي الحركات فحسب. والعجيب أن عيون الدمى وشفاهها وأصابعها تتحرك في دقة مدهشة، وكل دمية يحركها ثلاثة رجال من خلفها يلبسون أردية سوداء، وتكسى وجوههم بنقاب خفيف. وهو من أحب الملاهي الشعبية لديهم. وقد قمت بجولة في الحي الصناعي من المدينة، فراعني ما رأيت من دوي المصانع وعظيم امتدادها؛ فهي التي لعبت الدور الهام في تطور البلاد الصناعي؛ ذاك الذي أعده خير مثل نحتذيه إن أخلصنا في نهضتنا الاقتصادية الحاضرة.

النهوض الصناعي: خالفت اليابان في نهوضها الصناعي سائر بلاد الدنيا من قبل؛ ففي إنجلترا مثلًا كانت التجارة والصناعة خاضعة لقوانينَ حكوميةٍ إلى القرن الثامن عشر، حين نهضت الصناعة على أساس المجهود الفردي، والمنافسة الحرة؛ وتلك تغلبت على ملاك الأراضي ونزعت منهم نفوذهم الحكومي، وأصبح تدخل الحكومة في الصناعة أمرًا غير مرغوب فيه، وعلى ذلك لم تقم الصناعة في إنجلترا على التعاون العام، ولا على الإشراف الحكومي؛ بل على مجهود الفرد ومزاحمته لغيره. أما في اليابان فقد قامت الصناعة على

كواهل الدولة؛ ذلك لعدم وجود طبقة من أغنياء التجار الذين أمدوا الصناعة الإنجليزية بالمال. إلى ذلك احتقار طبقة التجار في اليابان عندئذ، وقلة خبرتهم؛ بسبب عدم احتكاكهم بالأجانب كثيرًا. فبينا نجد النهوض الصناعي في الغرب هو الذي أثر في النظم السياسية إذا بالأمر على النقيض من ذلك في اليابان؛ حيث كان الانقلاب الصناعي نتيجة مباشرة لتغيير نظام الحكم؛ فالدولة هي التي فتحت المصانع ولا تزال تديرها، وهي التي أوفدت الطلبة ليتعلموا الصناعة والتجارة في الخارج، واستقدمت الخبراء من الأجانب، وأنشأت المدارس الحكومية، وفتحت الغرف التجارية، ولا تزال تمنحها الإعانات المالية، كذلك أقامت المتاحف الصناعية في كل البلدان، وهي التي تزود التجار بالمعلومات عن الأسواق الخارجية، وحتى المصانع التي انتقلت إلى أيدي الأفراد لا تخلو من الرقابة الحكومية. والحكومة تمون المصانع كلها بالقروض والإعانات المالية، وتراها تشرف على الهيئات التعاونية التي تفوق الألف، والتي تتعاون على تنظيم الإنتاج والتصدير وظروف البيع، ولهذه حق قانوني في فحص صادرات البلاد؛ محافظةً على سمعتها الصناعية في الخارج، ومما ساعد الصناعة في اليابان أنها نجت من مقاومة فئة المولين الأقدمين الذين تعرضوا في سائر الدول للخسائر الفادحة، فناوءوا الصناعة زمنًا. أما في اليابان فلم توجد تلك الفئة؛ ذلك لضعف مالية الأفراد هناك. إلى ذلك أن النهوض الصناعي في اليابان جاء في عصر ظهر فيه فضل الإنتاج الكبير، الذي لا يقوى عليه الفرد، بل الجماعات والمتعاونات. وشعر الكثير بضرورة معاونة الحكومات وتدخلها في تحديد المزاحمة، ولا يزال للنظام القديم أنصار يقاومون تدخل الحكومات حتى في إنجلترا نفسها. أما في اليابان فالإشراف الحكومي منطبق على نظمها الاجتماعية التي تقضي على الأفراد بالطاعة للأسرة والولاء للدولة؛ فهم جميعًا يؤيدون التعاون بفطرتهم، ولا يثقون بالمجهود الفردي — رغم ما لهذا من أثر سيئ في القعود بقوة الابتكار — فإذا كانت إنجلترا قد ضربت المثل الأعلى للصناعة إبان القرن التاسع عشر، فإن اليابان هي المثل الأعلى في هذه الأيام.

ولتطور الصناعة في اليابان ثلاثة عصور؛ الأول: من بدء عصر ميجي ١٨٦٨ إلى انتصار اليابان على الصين في حرب ١٨٩٤. وهذا العصر امتاز بنشاط الدولة العظيم في بناء ما تتطلبه دعامات الصناعة؛ لذلك مد أول خط حديدي سنة ١٨٧٠. وفي ١٨٩٤، بلغت السكة الحديدية ٢١١٧ ميلًا، وفي سنة ١٨٧٢، تأسس أول مصرف (بنك) على النظم الحديثة، وأعقب ذلك نشر التعليم على أحدث النظم، وبدأت السفن التجارية تُبنى تحت إشراف الحكومة ومعاونتها، وأقيم كثير من المصانع سنة ١٨٧٠ للحرير والقطن والصوف

والورق والزجاج والآلات، ثم أعقب ذلك بناء مراسي السفن، ومناجم الفحم والنحاس، على أن هذا العصر لم يُغيِّر شيئًا قط من ميول الشعب الزراعية، وتبدو الحالة الاقتصادية جلية في تجارة البلاد الخارجية إذ ذاك؛ إذ كانت جل وارداتهم من المصنوعات، خصوصًا المعدنية والمنسوجات — وهذا شبيه بنا الآن — وجل الصادرات كانت من الخامات، وبخاصة الحرير؛ ذاك الذي كان إنتاجه ضعيفًا عهد الإقطاع لما أن كان الحرير قاصرًا على ملابس الطبقة الحربية والأرستقراطية، وحرم على غيرهم؛ لذلك كانت زراعة القطن أكثر انتشارًا، وكان ينسجه الكل في بيوتهم، لكن عقب انقضاء عهد الإقطاع وردت المنسوجات القطنية من الخارج رخيصة، ثم أُسِّست مصانع القطن في البلاد، فزاد الطلب على الخام من القطن الأمريكي والهندي والصيني؛ ذاك الذي كانت تزرعه تلك البلاد بنفقات أقل من زراعته في اليابان، وسرعان ما زاد الطلب الأجنبي على الحرير الياباني، فأحال الفلاح الياباني أرضه القطنية إلى أرض للتوت؛ لتغذية دود القز. وساعدت رقي إنتاج الحرير ملاءمة الأرض له، ومهارة اليابانيين في القيام بشئونه المتعبة. واليوم نرى الحرير الخام أكبر صادرات البلاد، كما أن القطن الخام من أكبر الواردات. ويلي الحرير في الصادرات الشاي والنحاس ومنتجات المصانع الصغيرة.

يخص الفلاح قسمًا من أرضه بزراعة التوت في شجيرات قصيرة يقطف الفتيات ورقها لإطعام دود القز.

وعلى أثر حرب الصين، زادت خبرة البلاد الصناعية، واستطاعت محو القيود الأجنبية على الواردات. وتلك القيود كانت ترغم اليابان ألا تزيد الضرائب على الواردات على ٥٪. وتلك الخطوة شبيهة بما اتخذناه في مصر في العام الفائت. وقد ساعد هذا النهوض الصناعي هبوط سعر الفضة التي كانت أساس التعامل هناك إلى سنة ١٨٩٧؛ مما رخص أثمان المنتجات اليابانية فزاد الطلب عليها، وتشجعت صناعاتها (هبوط الجنيه في مصر اليوم شبيه بذلك).

وعقب حرب الروس سنة ١٩٠٥، ضمَّت اليابان لها كوريا وجزءًا من منشوريا، هذا إلى فرموزا، ولوشو التي أخذتها من الصين من قبلُ. وتلك البلاد تطلبت القيام بمشروعات اقتصادية كبرى؛ كالسكك الحديد والمصارف والمتاجر؛ مما شجع الصناعة اليابانية التي أمدت تلك المنشآت. إلى ذلك تنشيط استغلال الكافور وقصب السكر في فرموزا، والبنجر في كوريا ومنشوريا؛ ذلك يصح اعتباره الطور الثاني للصناعة، وفيه بدأت تسلم الحكومة المصانع التي ثبتت أقدامها للشركات تعمل تحت إشرافها، وظلت الصناعة الرئيسية إلى آخر القرن الماضي: السفن والنسيج. أما المعادن فظلت متأخرة؛ لذلك وجهت الحكومة همها إليها هذا القرن، لكنها لا تزال متأخرة لنقص حاجاتها في البلاد؛ فالحديد نادر ويستورد من الخارج، وبخاصة من الصين، والفحم رديء النوع بعيد عن مناطق التعدين.

فتطور اليابان الصناعي لم يظهر فعلًا إلا في الفترة بين حرب الصين والحرب الكبرى؛ أي في عشرين عامًا، ولم تبدأ النظم الغربية في البريد والسكك الحديدية والسفن والمصارف والقضاء والإدارة إلا سنة ١٨٩٤، وانتشر التعليم الفني وظهرت الآلات، خصوصًا في صنع القطن؛ فقد زاد عدد مغازله من ٤١٥ ألفًا سنة ١٨٩٣ إلى ٢٤١٤٠٠٠ سنة ١٩١٣، ثم ظهر رأس المال الأجنبي في استغلال المنحدرات المائية في الكهرباء، فبينا لم تكن اليابان شيئًا مذكورًا في العالم الاقتصادي إلى سنة ١٨٩٤، إذا بها تصبح عملاق الشرق الاقتصادي منذ سنة ١٩١٩.

أما العصر الثالث لهذا النهوض فمنذ الحرب الكبرى؛ ففي خلالها تضخمت صناعاتها بفضل غياب المزاحمة؛ خصوصًا صناعات الأصواف والكيماويات والحرائر والخزف، كذلك قد أفاد الطلب على الآلات الحربية والذخائر مصانع الحديد وتقوَّى أسطولها التجاري؛ إذ شغلت الحرب سفائن الدول الأخرى، فضوعفت السفن اليابانية خلال الحرب، وزاحمت الأقطان اليابانية المنسوجات الإنجليزية التي تراخت إبان الحرب، وصنعت اليابان الأقطان الراقية التي كانت احتكارًا للنكشير. وبين سنتي ١٩١٣، ١٩٢٤، ضوعفت المغازل تمامًا، وقد زاد الإنتاج الكبير الطلب على الفحم والكهرباء، فزاد إنتاج هذين كثيرًا.

على أن الكساد العالمي الذي بدأ سنة ١٩٢٠ كان صدمة خطيرة على المصانع التي لم تُدعم، وبخاصة الحديد والسفن والصوف، التي لا تزال تشكو مر الشكوى، وكان لزلزال سنة ١٩٢٣ أثر سيئ على نهوض الصناعة؛ إذ أتلف كثيرًا من الأرواح والأموال، فاستلزم ديونًا أجنبية باهظة.

ففي خلال الثلاثين عامًا الخالية، حصل انقلاب تام يبدو في أن غالب الواردات اليوم أضحت من الخامات، خصوصًا القطن والمواد الغذائية. أما الصادرات التي كانت من قبل من الخامات، فقد أصبحت من المصنوعات — إذا استثنينا الحرير الخام — كذلك التغير الذي طرأ على أسواق اليابان؛ ففي المقدمة اليوم شرق آسيا وأمريكا الشمالية؛ فأمريكا سوق الحرير الخام والخزف والشاي، ومورد القطن الخام والآلات والمعادن. وتصدر اليابان إلى شرق آسيا القطن والمصنوعات الصغيرة، مقابل القطن الخام من الهند، والأرز والخشب والحديد الخام من سائر بلاد شرق آسيا.

وخلاصة القول: ففي ٦٠ عامًا انتقلت اليابان من بلاد تعيش في القرون الوسطى إلى قوة اقتصادية خطيرة، وكان تطورها منظمًا للغاية في كل نواحيه؛ ففي السنين الخمسة والعشرين الأولى أقيمت الدعامات المادية للتقدم الاقتصادي تحت سيطرة الحكومة، وفي السنوات العشرين التالية ظهر النمو الصناعي، وعاونه النصر في الحروب، وسعة المستعمرات. وهنا بدأت تستقل الصناعة عن الدولة إلا في نوع من الحماية والعون المالي، وظهر تغلُّب الآلات على العمل اليدوي. وأخيرًا جاءت الحرب الكبرى التي أتمَّت هذا التقدُّم الذي أدهش العالم.

كيان اليابان الاقتصادي اليوم: ولا تُعدُّ اليابان مصنع آسيا بأكملها كما كانت إنجلترا مصنع أوروبا في القرن التاسع عشر؛ ذلك لأن الزراعة لا تزال أساس النشاط الياباني؛ إذ يشتغل بها نصف رجالها، رغم عدم ملاءمة الأرض كثيرًا للزراعة، وشتَّان بين المروج الخضراء التي يُهملها الإنجليز في بلادهم، وبين تلك الأرض الجبلية التي يستغلها الياباني إلى أقصى شبر منها، وتكتظ بجماهيره الكثيفة وقُراه المتعددة، فهو يزرعها بجهد وعناية فائقة، وبخاصة الأرز والشعير، ويشغلان ٩١٪ من الأرض المنزرعة،[٢] وفي بعض الجهات العالية يستنبت ثلاث غلات أو أربع، كل ذلك بطرقٍ يدويةٍ عتيقة ليس للآلات فيها دخلٌ

[٢] من مجموع أراضي اليابان: ٥٠٪ تكسوها الغابات، ١٥٪ للزراعة، ١٠٪ للمراعي.

ما، فهو في ذاك شبيه بالفلاح المصري، وحتى في معيشته لا يزال كما كان أجداده في الملبس والغذاء والأخصاص الخشبية والملاهي، وحتى رأس السنة لا تزال في الأرياف بالحساب القمري — تام الشبه بفلاح مصر — والمَزارِع هناك صغيرة؛ إذ يمتلك ½ ٥ ملايين عائلة نحو ½ ١٥ إيكرًا. وثلاثة أرباع أولئك لا تزيد ملكيتهم على ½ ٢ إيكر؛ فنحو ٣٠٪ من الزُّرَّاع من بين صغار المُلَّاك، والمستأجرون يقومون بالعمل مشاطرةً مع المُلَّاك الذين يقدِّمون السماد والبذور مقابل نصف المحصول؛ فالفلاح إذن لا الصانع هو مُمثِّل السواد الأعظم هناك، ويقوم بأعمال أخرى إلى جانب زراعته. وأخص تلك الأعمال تربية دود القزِّ؛ ذاك الذي يلقبونه «بالمهذب النبيل الصغير»؛ ففي أغسطس يكاد يشتغل أفراد العائلة جميعًا بقطف ورق التوت، ووضعه على صوانٍ خشبيةٍ، وإطعام الدود الذي تقوى شهيته للطعام إلى أقصى حد. ويسمع المرء صوت الدود وهو يقرضها في أزيز مختلط، ويقال: إن أية جلبة أو إزعاج من الناس حوله تضايق الدود، فيُفسد هذا من محصول الحرير وجودته. والحرير يقوم بنصف دخل الفلاح تمامًا. يضاف إلى ذلك بعض الصناعات العائلية البسيطة؛ كالأنوال اليدوية للقطن الذي يمدُّهم بجميع الملابس الريفية، وصناعة صناديق الخيزران والورق تطلى باللاكيه. كل ذلك يُصنع في البيوت، ويُسلَّم للمتعهدين من التجار. فأين المغزل اليدوي المصري للقطن فيَسد الفلاح حاجته منها بعمله في وقت فراغه الطويل؟

تشغل الزراعة في اليابان نصف السكان، ويعمل النساء في الحقول إلى جانب الرجال.

المكان الخاص بتربية دود القز في بيوت الفلاحين جميعًا.

ويشتغل من الناس ١½ مليون بصيد السمك، عماد غذائهم الحيواني؛ تلك هي المهن التي لا تزال تُبقي على القديم، وتُغالب المؤثرات الأجنبية. وأنت ترى طوال الطريق تلك الصناعات اليدوية تمارس في نوافذ المساكن بنشاط عجيب، ولم يؤثِّر عليها ما يجاورها من مصانعَ زُوِّدت بأحدث الآلات. وقد تعجب لبقاء تلك الصناعات رغم مزاحمة الإنتاج الحديث لها، لكنك إذا علمت أن غالبها متعلق بالغذاء والملبس والمسكن، وهذه لها نظامها الخاص المختلف عن سائر بلاد العالم زال العجب؛ فسلع الأجنبي لا تجد لديهم قبولًا، وحتى قماش «الكيمونو» يلائم النسج اليدوي؛ لأنه صغير العرض. إلى ذلك أن الياباني لا تروقه إلا الأدوات الدقيقة الفريدة في لونها ونظامها. ولم تنجح الآلات الضخمة إلا في الأشياء الغريبة عن البلاد التي تصنع للتصدير لا للاستهلاك الداخلي. ولعل في انتشار الكهرباء هناك ورخصها خير معين على بقاء تلك الصناعات الصغيرة إلى جانب الإنتاج الكبير؛ ذلك لسهولة استخدامها حتى في البيوت لإنجاز العمل بنفقات زهيدة. ومن العجيب أن الإنتاج الصغير هو السائد في اليابان، ومع ذلك فقد قامت مصانع على نظام الإنتاج الكبير تفوق في نظامها نظائرها في أوروبا — كمصانع الخزف، آلات الموسيقى، النسيج — أما من جهة توطن الصناعة، فيبدو جليًّا في أوزاكا وكوبي؛ بفضل ما كان لهما من حرية نتجت عن بُعْدهما عن أثر السلطة العسكرية عهد الإقطاع؛ مما شجع روح الابتكار فيهما.

ونلاحظ أن الصناعة مركزة في جنوب جزيرة هندو؛ لسهولة الاتصال بالبحار، لكنها بعيدة عن مناجم الفحم — فأغلب الفحم في كيوشيو وهوكايدو؛ وهما زراعيتان — لذلك اعتمدت الصناعة هناك على الكهرباء. وهذا له الفضل في أن مصانع اليابان أضحت أحدث مصانع الدنيا نظامًا؛ فهل لمصر أن تبادر باستغلال المنحدرات في أسوان والقطارة فتنتشل البلاد من شر الاعتماد على الزراعة وحدها؟[٣]

ويلاحظ أن ستين في المائة من عمال المصانع الكبيرة من السيدات، وهذا يفسر رخص المنتجات اليابانية من جهة، وعدم نجاح الصناعات التي تتطلب مهارة الرجال كصناعة الآلات. أما النسيج الذي لا يحتاج إلى مهارة العامل بقدر احتياجه إلى حسن الإدارة، وإلى جودة الآلات، فقد نجح تمامًا. ويُعزى افتقار اليابان في مهرة العمال إلى حداثة عهدها في الصناعة، وقلة خبرتها بها.

ولقد دعا إلى استخدام النساء أن المصانع منذ البداءة أقيمت في القرى؛ لرخص أثمان الأراضي بها، فلم تجد من العمال كفايتها؛ وتلك صعوبة تعترض الصناعة حتى في مدنها الكبيرة؛ لذلك لجأ أصحابها إلى العائلات الريفية يُغْرونها على إرسال فتياتها يتعلمن في المصانع، ويشتغلن مقابل أجر معين يستقطع منه جانبٌ نظير المسكن والغذاء الذي يقدِّمه لهن صاحب المصنع.

وغالب مصانع الإنتاج الكبير في يد هيئات اقتصادية كبرى تتصل بالحكومة، حتى عدها البعض نصف حكومية. وإلى تلك الشركات كانت الحكومة تُسلم كل مشروع اقتصادي أقامته بعد نجاحه. وبفضل ذلك تشرف الحكومة على الصناعة تمامًا. ولتلك الشركات أثر

---

[٣] صناعة النسيج في مصر شبيهة بموقفها في اليابان من عدة وجوه:

(١) لأنها تستورد الآلات كلها من الخارج.
(٢) بدأت ولم يكن للعمال هناك بها خبرة قط، فاستعانوا بالخبراء الأجانب.
(٣) كان الوقود من الفحم في اليابان نادرًا، وكانت أجور العمال — ولا تزال — رخيصة جدًّا.
(٤) لم يكن لليابان شركات ملاحة تخدم تلك الصناعة، فبدأت نواة الأسطول التجاري مع بدء صناعة النسيج.
(٥) كانت الحكومة تُقدم لها الإعانات المالية والتسهيلات بسخاء!
(٦) فرضت رسومًا كبيرة على الواردات؛ لتحمي صناعة النسيج صارفة النظر عن المجاملات التي تفوت عليها مصلحتها.

في أحد مصانع الحرير في أوزاكا. ومصانع اليابان أحدث نظامًا من نظائرها في الغرب.

كبير في سياسة البلاد. ولعل من أجمل مزايا هذا النظام زوال المزاحمة الذي سببه الإشراف المركزي الشامل، والتضامن الإنتاجي المتين. فهل لحكومتنا أن تتولى النهوض الصناعي مُترسِّمة خُطى اليابان التي تلائم حالتنا؟!

فذاك النجاح العجيب للصناعة اليابانية يرجع الفضل فيه إلى الضرائب الباهظة التي فرضوها على الواردات، وإلى بُعد المزاحمة الأوروبية، وإلى النظام الاجتماعي الذي يؤيد بفطرته التعاون ويقاوم الفردية، وإلى بدء الصناعات الكبرى بوساطة الحكومة التي لا تقوى مالية الأفراد الضئيلة على مزاحمتها. وذاك التعاون لا شك عامل عظيم على تخفيف وطأة الأزمات وتقلُّب الأسعار؛ لأن الجماعة هناك تنقذ العاطل منها على عكس أوروبا. فلمجرد طرد العمال من المصانع في أوروبا ينقصون من مشترواتهم، وهذا يزيد الأزمة سوءًا. كذلك فإن طبقة المأجورين هم الذين ينكبون على المشتروات عند انخفاض بسيط في الأسعار، فيزيد هذا في الارتباك المالي؛ لذلك أنشئت هيئات التأمين ضد البطالة في أوروبا. أما في اليابان فلا داعي لها؛ لأن العاطل يلجأ إلى عائلته، وقد يستأنف الزراعة وهي لا تزال أهم الأعمال في البلاد. ويساعده على ذلك استخدام الدراجات مطيةً يذهب بها العامل يوميًّا إلى قريته، فيعيش وسط أهله دون أن ينفق على مسكنه ومأكله شيئًا يذكر. وهذا هو السبب في نقص العمال العاطلين في اليابان عنه في جميع الدول — لم يبلغ مائة ألف.

وقد ساعد على عدم تقلب الأسعار — إبان الحرب العظمى صعودًا وبعدها هبوطًا — في اليابان منتجاتها الخاصة التي لا تؤثر فيها المزاحمة الأجنبية. إلى ذلك العادة التي قضى بها العرف عندهم؛ وهي أن كل عامل يستغنى عنه يمهر بين ثلاثة أشهر وستة على سبيل المكافأة. وهذا قلل خطر البطالة، لا بل وساعد أصحاب العمل ألا يلجئوا إلى الطرد إلا عند الضرورة القصوى، على أن هذا النظام الذي يساعد على تجنُّب الأزمات يعاكس الكفاية؛ لأن الأزمات هي التي تستأصل غير الأكْفاء من حلبة الإنتاج.

أما إضراب العمال هناك فنادر؛ لأن الرأي العام — وهو قوي جدًّا هناك — يقاومه كُلَّ المقاومةِ، كذلك تُوقفه روح التضحية التي تنتشر بين العمال أنفسهم؛ فقد حادثت بعضهم عن سبب رضاهم بالأجر القليل والساعات الطويلة، فكان جوابهم أنهم راضون بذلك؛ خشية أن يؤثر اعتصابهم على مركز المنتجات اليابانية في الأسواق الخارجية، على أن التمرد بدأ اليوم يظهر بينهم. وقد تشكَّل اتحاد العمال لتحديد ساعات العمل، وبعض الأجور، ورعاية صوالح العمال، لكن لا تزال ساعات العمل تزيد عنها في جميع البلاد الأخرى — بين ٥٧ و٦٠ ساعة في الأسبوع — ولا تزال هذه الهيئات تناضل كي تعترف الحكومة بحقوقها. ولعل ضعفها ناشئ عن قلة العمال في المصانع الكبرى؛ فهم ٢½ مليون فقط، والباقي موزع في المصانع الصغيرة. إلى ذلك أن غالبهم من النساء اللاتي ينظر الجمهور إليهن نظرة هي دون نظرهم إلى الرجال.

خطر السكان: ولقد أثبت الإحصاء الأخير أن عدد السكان ضوعف تمامًا في خمسين عامًا مذ بلغ مجموع سكان الإمبراطورية ٩٠ مليونًا، وأن الزيادة تبلغ مليونًا في كل عام في الجزائر الرئيسية وحدها؛ ففي القرن التاسع عشر تضخَّم عدد السكان بالقدر الذي تسمح به البلاد، وزاد هذا التضخم عدم الهجرة وقلة الحروب، على أن مستوى المعيشة ظل في حدود التقشف الشديد حسب أوامر الأسرة؛ لذلك ظلت البلاد تموِّن نفسها رغم ازدياد السكان، على أن سكان المدن والطبقات الفقيرة بدأت تتغير حالهم اليوم وتزيد نفقاتهم. ومن العجيب أن أرض اليابان لا يصلح للزرع فيها سوى السُّدس. وهذا هو الذي يموِّن نصف السكان تمامًا. ولقد ازدادت حركة نزوح أهل الريف إلى المدن جريًا وراء الصناعة وزيادة الأجور؛ تلك التي رفعت كلف المعيشة في اليابان كلها. ويظهر أن طول عزلة اليابان عن العالم ونظامها العائلي المحكم أفهم الياباني ضرورة اتِّكاله في الغذاء على إنتاج أرضه، فظل كذلك إلى اليوم؛ لذلك لجأ إلى طريقة الزراعة الاستغلالية القصوى، حتى ضاعف إنتاج الأرض من الأرز، وهو عماد الغذاء، لكن رغم ذلك أخذت تتحسن معيشة

الفرد، ويزيد استهلاكه؛ فأضحت مشكلة التموين اليوم حرجة؛ ولذلك بلغ الوارد من الأرز الأجنبي عشر المستهلك في اليابان، وأضحت أثمان الأرز — وهو عماد غذاء الفقير — عرضة للتقلب الشديد.

لهذا كله أضحت زيادة السكان هناك خطيرة، يزيدها خطرًا أن نظامهم الاجتماعي يحرم تحديد النسل؛ فهو يساعد الزواج المبكر، كما أن الأبوين لا يشعران بمسئولية الأولاد؛ لأن رعايتهم فرض على الأسرة بأكملها. إلى ذلك أن الدين الشنتوي يحض على النسل، وينفر من الزواج العقيم، كذلك المرأة اليابانية تعد نفسها خادمة أولادها، ولم ترق إلى مستوى المرأة الغربية التي قل نسلها بسبب ثقافتها وشعورها بمسئولية تربية الأولاد، واشتغالها مع الرجل جنبًا لجنب. والنساء هناك لا يعرفن الطرق الحديثة التي يتبعها الغربيات في منع النسل؛ ذاك الذي أضحت قلته خطرًا في إنجلترا وأمريكا. وفوق الجميع فإن الحكومة اليابانية لا تسمح بنشر أية دعاية تحضُّ على تعطيل النسل؛ وذلك دفاعًا عن الناحية العسكرية، فكأن كثرة النسل في اليابان يكفلها الدين، والعادة، والحكومة، والنظام الاجتماعي. ونصيب اليابان من الهجرة قليل يناهز نصف مليون في الخارج فقط؛ لأن دول أمريكا قيدت الهجرة إليها، وكذلك أستراليا. أما أسيا حيث المجال متسع للهجرة، فإن فيها من وفرة السكان ورخص الأجور ما يسد الباب على مزاحمة الياباني.

لذلك كان لزامًا أن تبتلع المصانع في اليابان كل زيادة في السكان، فيجب زيادة تنشيط الصناعة والاعتماد في الغذاء والخامات على الواردات.

ومشكلة السكان عندنا شبيهة بها في اليابان، وخير السبل لابتلاع الزيادة في السكان إنهاض الصناعة.

ومن المشاكل التي تقلق اليابان شعورها بالاعتماد على غلتين رئيسيتين؛ وهما: الحرير الخام ٤٥٪، والقطن المنسوج — ٢٠٪ من الصادرات — فهما ثُلُثا مجموع الصادرات. وقد زادها شعورًا بالخطر أن خير أسواقها لتصريف المنسوجات الصين. وقد بدأت تشجع الصناعة الوطنية وتقاطع اليابانية خاصةً، وكذلك الهند. أما سوق الحرير فأمريكا؛ وهي تعرف بسرعة التحول في الأذواق والأزياء عن سائر الممالك، على أن المتفائلين يرون في قرب اليابان من بلاد الخامات والأسواق والاستهلاك في الشرق الأقصى، وفي زيادة الثروة في أستراليا وأمريكا، وفي نمو القوة الكهربائية في اليابان ما يقلل من تشاؤم «ملتوس» في خطر تكاثر السكان، وإن كان ذلك لا يتم إلا على حساب شخصيتها الفذة، وعاداتها

الجذابة التي سيقضي عليها اندفاعها وراء التقدم الصناعي، والعمل على توحيد استهلاكها مع الاستهلاك العالمي كله.[٤]

ويتساءل الكثير عما إذا كانت المدنية الغربية ستكتسح تقاليد اليابان ونظمها. ونحن نلاحظ أن روح الإقطاع لا تزال تسود النظم السياسية، وأن النظام الاجتماعي والاقتصادي سيظل شرقيًّا بتحوير بسيط، فدعامات المدنية لا تزال هناك شرقية بحتة؛ لأن اليابان لا تثق بفلسفة الغرب وأخلاقه واجتماعياته ودينه وسياسته. ولا يزال الناس يحافظون على مساكنهم وملابسهم ومعابدهم وألعابهم. ومن أحبها لديهم المصارعة التي ورثوها عن آبائهم، والتي يتمرن عليها الجميع حتى السيدات، وتعقد لها الحفلات الرسمية. أما طرق المواصلات ونظم المدارس والمصانع والمصارف وما إليها فأضحت غربية بحتة؛ لذلك نلمس هناك التصادم بين المدنيتين في أشياء كثيرة.

وهذا التناقض الذي يجمع به الياباني حسن الذوق وتقدير الجمال إلى جانب القدرة الإنتاجية المادية هو الذي يحار فيه الغربيون، فكأن اليابان تريد أن تحترم حاضرها وماضيها معًا، وترغب في أن يحترمها الغرب كدولة عظمى دون أن تتنازل عن شخصيتها الماضية.

ولقد كانت اليابان حكيمة في نقل عناصر تقدمها؛ فهي لم تعتمد على دولة معينة، بل استمدت المعونة من عدة دول، كلٌّ فيما امتازت به؛ فالجيش نقلته عن فرنسا إلى سنة ١٨٧١، ثم عن ألمانيا لَمَّا ظهر لها فضل الجيش الألماني على الفرنسي، والأسطول عن بريطانيا، والنظام المالي عن أمريكا أولًا، ثم عن فرنسا وألمانيا آخرًا، والسكك الحديدية عن إنجلترا، والنظم السياسية عن ألمانيا. ولعل ألمانيا هي أولى الدول التي نقلت اليابان عنها؛ لأنها أقرب الدول شبهًا باليابان، وبخاصة في النظام الاجتماعي والسياسي. نخص من ذلك القدرة على التنظيم والتعاون؛ فلقد كان للحكومة في المملكتين سلطان كبير، وكلاهما له

[٤] في سنة ١٩٢٨ قُدِّرت شرانق الحرير ٥٥ مليون جنيه، الحرير الخام ٨٥ مليونًا؛ ٧٠ في المائة منه يُصدَّر، ٥٠٠ مليون جنيه منسوجات حريرية. غزل القطن أقل نشاطًا من نسجه، ومع ذلك يُستنفَد بنحو ٥٠ مليون جنيه من القطن الخام سنويًّا، وهو أرخص من الإنجليزي؛ لأن مصانعه أحدث نظامًا، ولأنه في يد أربع شركات كبيرة غنية تشتري الخام كلما لاءمها الثمن، وساعدها انخفاض أجور العمال، وأجور السفن اليابانية التي تعاونها الحكومة بالمال، ولقلة الوسطاء، ولطول ساعات العمل؛ فالمعامل تشتغل ١٧ ساعة في اليوم على دفعتين.

تقاليد عسكرية خاصة، ونساء الفريقين بينهن شبه قريب. ولقد نُقلت الفنون عن فرنسا. ويظهر أن الجنس السكسوني يجتاح اليابان اليوم في التعليم والتجارة واللغة الإنجليزية، المنتشرة في أسواق الشرق وفي شرائط السينما، التي يرد غالبها من أمريكا، وفي كثرة المبشرين من الأمريكان، على أن الدعاية للدين المسيحي ليست ناجحة؛ لأن الياباني يرى في الغربي شخصًا غير متدين لا يتورع أن يرتكب الخطايا جهارًا؛ فهو في نظره مستهتر بدينه، وهم يرون في دينهم خيرًا؛ فهم لا شك أكثر من المسيحيين عطفًا على الغير، وتضحية للصالح العام، وتسامحًا في الخلق، وتقديرًا للجمال الطبيعي الإلهي. أما الأوروبي فصادق نظريًّا مارق عمليًّا. ويرى البعض أن اليابان هي الدولة الوحيدة التي تجمع بين الطهارة والجمال، فهناك ترى حب الجمال إلى مستوى ذوقي ممتاز، وهناك يقوم الولاء للعشيرة إلى جانب تقدير المسئولية الاجتماعية؛ فهي الدولة الآسيوية الوحيدة التي صدَّت عدوان الغرب عنها، وأعدت نفسها بوسائل الدفاع الحديثة بدون أن تُضحِّي تقاليدها الاجتماعية أو السياسية، وهي الوحيدة التي أجادت فهم الحضارتين: الشرقية، والغربية، وألفت بين الشرق والغرب. فيا حبذا لو نسجت مصر على منوالها! فهي أقرب إلينا من نواحٍ عدةٍ؛ فلنُوفد إليها طائفة من طلبتنا وتُجَّارنا لدرس الوسائل الاقتصادية والخُلقية التي كانت خير عون لهم على ذلك التقدُّم العجيب. ويظهر أن تيار المدنية والرقي والسلطان متجه اليوم نحو المحيط الهادئ، وأن سيكون نهبًا مقسمًا بين اليابان وأمريكا إن هما تعاونتا ووثقتا عُرَى الصداقة بينهما.

الخلق القومي والنظام الاجتماعي: كنت أعجب كثيرًا كلما ناقشت أجنبيًّا لاقيته في اليابان أو في طريقي إليها؛ إذ كان يكيل التهم لليابانيين ويرميهم بالنزعة الحربية والغدر، وحب المادة، والتجرد عن الضمير، وبعضهم كان يرى في نزعتها الحربية أكبر الخطر على العالم. والغريب أن بعضهم كان يعد إخلاص الياباني الشديد وتفانيه في عمله بنشاط فائق خطرًا على العالم! على أنه تبين لي أن تلك التهم عارية عن الصحة؛ فالأجانب يسيئون فهم نظام اليابان الاجتماعي؛ ذاك الذي نفهمه نحن — المصريين — على حقيقة؛ لقربه من نظامنا؛ فمثلًا إذا ما أردت أن توجِّه نقدًا لأحدهم يجب — طبقًا لآدابهم — ألَّا تصارحهم به في شكل جارح؛ لأنهم يعدون ذلك حطًّا من شأنهم؛ فالواجب أن يوجَّه النقد تلميحًا، وفي تعبير رقيق. أما صراحة الغربيين، فتعد هناك جفاء وغلظة، وإذا ما أردت أن ترفض لأحدهم طلبه، أو تبلغه خبرًا سيئًا، وجب أن تصوغ ذلك في عبارات رقيقة ملفوفة التعابير؛ حتى في الأعمال التجارية. ومن هنا كثر سوء التفاهم بينهم وبين الأجانب؛ فكلاهما يتهم

أخاه بالنقص الخلقي. إلى ذلك يضاف أن أغلب الأجانب الذي كتبوا عن اليابان لم يَخبروا إلا سكان السواحل، وهؤلاء قد أفسدهم اقترابهم بسفلة الأجانب؛ فهم لا يمثلون عامة اليابانيين؛ يؤيد هذا أن اليابانيين كانوا يعدون طبقة التجار منحطة؛ فهم لديهم دون طبقة العمال والزراع؛ لفساد خلقهم بسبب احتكاكهم بأولئك النزلاء من الأجانب الذين كانوا ساقطي الأخلاق. ومن أسباب سخط الأجانب عليهم سرعة تقليدهم لمنتجات الغير ولشاراتهم التجارية، ولإدخال الغش أحيانًا على بعض السلع، على أن ذلك يكثر في بدء التطور الصناعي لكل أمة. وقد كانت أوروبا كلها كذلك عقب الانقلاب الصناعي هذا. وقد بدأت الحكومة اليابانية منذ الحرب الكبرى تراقب السلع الصادرة لدفع تلك التهم؛ فشكَّلت لجانًا لفحص الصادرات. ولا يصح اتهام عامة اليابانيين بالخيانة والغش؛ فكثيرًا ما كنت أرى حانوتًا فرديًّا تركه صاحبه مفتوحًا تعرض به السلع وعليها بطاقات الثمن، فيجيء المشتري وينتقي ما يشاء، ويضع الثمن في صندوق مغلق بدون محاسب ولا رقيب. ومن أخلاق اليابانيين أنهم يفضِّلون سرعة التراضي والاتفاق بين المتخاصمين، ويثورون ضدَّ من يتمسك بمطلبه للنهاية؛ حتى ولو كان عادلًا، وذلك أثر من آثار استنكارهم للمجابهة القارصة والمصارحة الجافة، عكس الأوروبي الذي يصر على حقه كاملًا للنهاية وبكل جرأة؛ فالياباني شبَّ قادرًا على إخفاء مشاعره وميوله تحت وجه باسم هادئ؛ لأن الظهور بالوجه المقطب — كائنًا ما كان الباعث — عنوان فساد التربية لديهم. وهذا هو الذي جعل قدرتهم على ضبط النفس في حالة الغضب وعندما تلحقهم إهانة مضرب الأمثال؛ ومن هنا جاء احتقارهم للأجانب الذي يعرفون بسرعة التهيُّج والغضب؛ وبخاصة بعدما أثر عليهم جو آسيا المُجهد الذي جعلهم عصبيين لحدٍّ كبير. أما أدب اليابانيين فلم يختلف فيه أحد، فلا يمكن أن يلفظ أحدهم بالشتائم، ولا يلجأ في حديثه إلى الحلف والقسم؛ بل يعلم منذ نشأته لغة التأدُّب الشديد؛ فلا يقول مثلًا «أنت»؛ بل «المحترم»، وبدل أن يقول لك «ادخل البيت» يقول «تنازلْ وشرِّف منزلنا الذي هو دون مقامك»، وإذا قال «اجلس» آثر عليها «تنازل لتستريح وتستمتع.» على أن الأجانب يدَّعون بأن أدبهم هذا ظاهري ليس غير؛ وكأنه أدب القردة، ويستدلون على ذلك بسلوكهم الذي يظهر في المقاهي وقُطُر سكة الحديد، وفي معاملتهم للسيدات، وفي تدخُّلهم بالاستعلام عن كل شيء لدرجة هي الفضول بعينه، لكنهم لو أنصفوا لعلموا أن تلك عاداتهم التي لم يفهمها الغربي؛ فكيف لنا أن نعيب على الياباني مثلًا أن يرتشف الشراب من الكأس بصوت ينفر الغربي من سماعه، أو أنه لا يقف للسيدة، بل للطفل والرجل المُسنِّ — وهو أقرب إلى المعقول؟ وقد كنتُ ألاحظ

في الترام أن غالب الواقفين من النساء، ولا يصح أن يقف الرجل للمرأة، بل بالعكس؛ رأيت رجلًا دخل العربة فسلَّم على صاحب له كان يجلس بجواري، وإلى يساره سيدة يغلب — على ظني — أنها زوجته، فوقفت هي وتنحَّتْ له عن مكانها، فجلس بعد أن شكرها، وظلت هي واقفة!

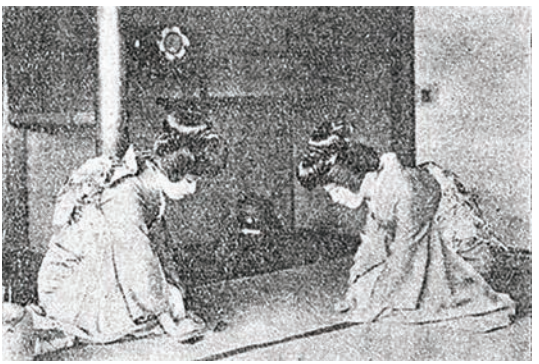

أدب اليابانيين أضحى مضرب الأمثال، وتلك الانحناءات تحية واجبة ومتبادلة.

ويصعب جدًّا على الغريب أن يعرف الياباني حقَّ المعرفة؛ لأنه حذر جدًّا في معاملة الأجانب؛ فهم يستقبلونه بأدب ورقة وعطف، لكنهم لن يتقبلوك قط كصديق. ولعل ذلك أثر من آثار عزلتهم في جزائرهم النائية عن العالم كله؛ وتلك صفة تلاحظ في أهل الجزائر عمومًا، وإلى حد واضح. إلى ذلك أثر عصر الإقطاع فيهم؛ ذاك الذي كانت تأبى فروسية أهله أن يظهروا ما تكنُّه أفئدتهم من مشاعرَ، فالياباني يكلم الأجنبي وهو يذكر أنه يمثل اليابان فيزيد حذره، وساعد على ذلك اعتزازه الشديد بقوميته؛ لا بل وقبيلته وأسرته التي يجب عليه احترامها اجتماعيًّا ودينيًّا. ولقد خلف هذا أثره في ضعف الاستقلال الذاتي وقوة الابتكار. ويزيد في ذلك ما يحوط الطفل منذ نعومته من الرعاية التي تجعله مدللًا حساسًا لأقل المصارحات — بعض ما نعانيه نحن في مصر — وكذلك افتقار الياباني في تفهم الفكاهة والمزاح؛ فهو يأخذ ذلك مأخذ الجد في كل المناسبات؛ لذلك شب رقيق الإحساس لدرجة تجعل النقد البريء في نظره إهانة؛ فهم لا يحبون أن يقبلوا النُّصح من الأجنبي؛

مخافة أن يعد ذلك اعترافًا بالعجز من جانبهم! واليابان تعوزها تلك الروح الرياضية التي امتاز بها الإنجليز والأمريكان على غيرهم، وهؤلاء أقدر الشعوب على الجمع بين الخصومة الحادة في القول إلى جانب الصداقة في القلب. أما اليابان فتعدُّ الهزيمة حتى في الألعاب الرياضية انكسارًا مخزيًا شائنًا؛ فكثيرًا ما حدث في المباريات الدولية للكرة أن انفجر لاعبوهم يبكون بحرارة؛ لأنهم دحروا في اللعب، ويحاول نظار المدارس هناك ألا يشركوا أولادهم في اللعب حتى يكفلوا فوزهم فيه. وهذا ما كنا نلمسه في مصر إلى أمد قريب.

ولعل أجل خلالهم التضحية للصالح العام؛ تلك التي يُعزى إليها سحر تقدمهم خلال ستين عامًا؛ فاليابانى أسبق الناس للتضحية بنفسه في سبيل رفع شأن أمته، وفي تاريخ اليابان مثل عليا لذلك. نذكر منها حادث الفارس الذي قتل زوجته وبنيه قبل الذهاب إلى ميدان القتال؛ مخافة أن يتعلق بهم في غيبته فتفتر قوة الدفاع فيه! ثم حادث الجوالة السبعة والأربعين الذي انتقموا لسيدهم ثم انتحروا؛ لكيلا يعيشوا بعده وفاءً له! ثم حادث الجنرال «نوجي» الذي مات وزوجته شر موتة؛ ليسجل احتجاجه على إغفال بعض بني قومه تمسكهم بالقديم، وعلى جريهم وراء التجديد الأوروبي! ثم حادث الياباني الذي انتحر ببقر بطنه أمام السفارة الأمريكية هناك؛ ليرد الإهانة التي لحقت باليابان على أثر قانون تقييد الهجرة الذي أصدرته أمريكا سنة ١٩٢٤، وآخر ما حدث ما قرأناه في حربهم مع الصين الآن من أن بعض جنودهم لفَّ نفسه بالمواد المفرقعة ليجري بها إلى الأسلاك الشائكة، فتنفجر وتنسفه هو والأسلاك؛ كي ينفسح الطريق لتقدم الجيش.

أما حبهم للجمال فمثلى يبدو جليًّا في مدائنهم ودساكرهم؛ ففي حفلاتهم وأعيادهم يدهش المرء لقدرتهم على خلق الجمال بأبسط الوسائل؛ فمصابيحهم المنثورة، وأوراقهم الملونة، وأشجارهم المبعثرة مصدر جمال كبير، كذلك أوانيهم الخشبية وأثاثهم وأرديتهم وما هي عليه من نقوش جذابة، كذلك زخرفة منازلهم رغم بساطة بنائها؛ إذ ترى الأرض تُكسى بالحصر من القش يزينها في جوانبها إطار أسود، وفي المحراب تعلَّق صورة متقنة الفن، غالية الثمن. وترى الياباني يعنى بجمال المسكن ويهمل جانب الراحة فيه، على عكس الأوروبي. وكنت أعجب لهم كيف يطيقون المكث في بيوتهم شتاءً على وهنها، وصفير الريح في جوانبها، وقعقعة أخشابها طول الليل، وحتى بيوت الطبقات الوسطى فإنها تكلفهم كثيرًا بسبب العناية بتجميلها. وهو لا يبالي أكانت مريحة أم لا؛ لأنه شب متقشفًا، ودُرِّب على تعشق الجمال وتقديس الطبيعة التي يفهمونها حق الفهم، ويقرءون في الشجر والزهور والتلال معاني لا نفقهها نحن؛ وذلك بسبب طبيعة أرضهم؛ فهي حديثة العهد

الجيولوجي، ليس بها من جبال ولا سهول تمتد إلى قصارى مسارح النظر، كلا ولا جبال مهشمة الذرى، بطيئة المنحدر؛ ففي البلاد الأخرى يقارب المرء الجبال والبحار تدريجًا، لكن جلال الجبال وروعة المناظر تباغت الإنسان أينما سار في اليابان؛ فمن كل سهل أو وهدة هناك تبدو النجاد رائعة من كل جانب؛ مما جعلهم يتعرفون من الذرى والغدران والجنادل والصخور الشيء الكثير. وهم يعدونها ملاجئ للآلهة؛ لذلك يحج الجماهير إليها في الصيف في أردية بيضاء. وفي مساء ٣١ يوليه، يروقك منظر آلاف الحجاج في «الكيمونو» البيضاء يغتسلون في البحيرات التي تحيط بـ «فوجي ياما» المقدس من أسفله، ثم يبدءون الصعود إذا انتصف الليل وبيدِ كلٍّ منهم مصباح مضيء، فتبدو جموع المصابيح وكأنها عقود النجوم تتلألأ صُعدًا على جوانب الجبل. وفي الذروة يفترش كلٌّ حصيره حتى الصباح لاستقبال الشمس المشرقة. وفي البلاد كثير من أندية الحج يكتتب فيها الكثير؛ تشجيعًا لزيارة تلك الأماكن المقدسة. وحفلات استعراض الزهور ومراقبة القمر من أمتع ما نراه في تلك البلاد.

ولقد ذكرت رحلتي في أوروبا العام الفائت؛ تلك البلاد التي هجرت تقاليدها وعقائدها، ولم يصبح للعادة بين أهلها من أثر؛ فهُم أحرار يأتون ما يروقهم في غير قيد. هناك كنت أرى الفرد مطلق الحرية يوكل أمره إلى شعوره بالمسئولية الأدبية، حتى إن حكومته لا تلزمه بالتجنيد إن أرهقتها الضرورة لذلك، وتظل رهينة اختياره وتطوعه. أما في اليابان فعلى النقيض من ذلك، كنتُ أراها تجلُّ تقاليدها، وتتمسك بقوميتها التي تتلاشى أمامها حرية الفرد؛ ذاك الذي يعدُّ نفسه خادمًا للجماعة، خاضعًا لنداء الدولة في كل آنٍ؛ فالعائلة أساس المجتمع وليس الفرد، وللعائلة حقوق على أفرادها واجبة الأداء، وعلى الفرد أن يضحي صالحه الذاتي في سبيل الحرص على صالح الأسرة، فهي التي تتصرف في زواجه وتعليمه ومستقبله. ومن لم يخضع حرم حق الانتساب إلى الأسرة، فينبذه جميع الناس، ويكاد لا يوجد بينهم الولد العاق مطلقًا، على أن زعماء الأسرة ليسوا مستبدين برأيهم؛ بل الرأي شورى بينهم، فتراهم يعقدون مجتمعاتهم لبحث ما يعرض لهم في هدوء. والعائلة هناك تخفف كثيرًا من أعباء الدولة؛ لأنها تقوم بالفصل في شئون عائلية هي من نصيب الدولة في بلاد العرب. ولعل أظهر ما يبدو الفرق بين العائلة اليابانية والغربية في الزوجية، وميول الإنسان الجنسية؛ فالغربي يرى أن الحب أساس الرابطة الزوجية، وعليه يتوقف صالح المجتمع كله، لكن الياباني يرى أن هذا الحب لا ينطبق على المثل الأعلى، فله خطرُه وأثره المُتلف المدمِّر. وهو يرى أن العلاقة الزوجية لا يصح أن تُبنى على رأي الفرد بل

المجتمع؛ فهي إذن ليست عملًا فرديًّا، فاليابانى لا يرى في امتزاج الفتيات بالشبان ذاك المعنى الذي يراه الأوروبي، وهو يحتقر ذلك، فلا يرقص الذكور مع الإناث، ولا يختلطون بهن طويلًا، وإذا اعتزم الزواج اختار له ذووه بعد أن يقصُّوا عليه نبأ الفتاة؛ فإن قَبِل اتفقا على المواجهة Miai في حضرة فريق من أقربائهما، فإن أقرَّها أُنجزت مراسيم الزواج، وإن لم توافقه فلعائلته حق الفصل في الرفض أو إرغامه على القبول، على أنه كثيرًا ما يعشق الصبي فتاة، لكن ظروف العائلتين تأبى الزواج فيلجأ الاثنان إلى الانتحار Shinju. والغريب في أمر الزواج هناك أنه بعد أن يتم في المعبد أو البيت يترك بدون تقييد رسمي لمدة سنة، فإن ظهر عدم الوِفاق خلالها صح الفراق إن رضي أهل الزوجين، وإلا لجئوا إلى القانون — والطلاق يبيحه القانون — فإن رُزقا بمولود خلال تلك السنة تتبناه إحدى العائلتين، أو عائلة أخرى لم تعقب! والتبني شائع في اليابان لضرورة وجود ممثل للعائلة إن أعوزتها الذرية. وأعجب ما يُرى نظام التبني هناك بين الرجل وأكفأ موظفيه الذين يعاونونه في العمل، فهو يسارع إلى تبنيه؛ كي يكفل نجاح العمل باطِّراد. ولقد كان للعائلة حق فصل الزوجين رغم ما بينهما من إخلاص؛ وذلك إذا تعارض هذا الحب مع صوالح الأسرة. ولقد بطل ذلك اليوم، لكنك ترى أثره في احتقار القوم للزوج الذي يتفانى في حب زوجته أو يرافقها في ملهًى عمومي؛ حيث يصبح موضع تقريعهم وسخريتهم جميعًا.

وقد يخيل للغريب أن المرأة محتقرة هناك، والحقيقة أنها في دائرة اختصاصها؛ أعني تدبير المنزل وتربية النشء، ذات سلطة مطلقة واحترام كبير. أما فيما يختص بالمعاونة العلمية والفكرية فليس لها نصيب؛ لأن وظيفتها زوجة فحسب، عليها أن تطيع زوجها وتحترمه، فإذا سارا في طريق لا يصح لها أن تتقدمه، وليس لها أن تشاطره وإخوانه مجلسه، بل تقدم إليهم ما يطلبون ثم تنسحب.

وعلى الرغم مما خلفه خضوع الأفراد لأوامر العائلة من ضعف الاستقلال وقوة الابتكار، فإن هذا النظام العائلي يحتِّم أن يأخذ الكل بناصر من أصابه ضَير من أفرادها، حتى ولو تطلَّب ذلك جميع أموال العائلة؛ لأن عجزها عن إنقاذ أحد أفرادها خزي كبير؛ لذلك لم تكن اليابان بحاجة إلى ملاجئ أو شركات تأمين ضد البطالة. ولقد صرح المستر «سوزوكي»؛ رئيس اتحاد عمال اليابان، بأن نقابة العمال هناك قوية، رغم افتقارها للرصيد المالي الذي تنفق منه النقابات في ظروف الإضراب؛ ذلك لأن الأعضاء يستمدون المال من عائلاتهم إذا ما أضربوا، وخير ما يبدو هذا التعاون عند حلول نكبات عامة، كما حدث في فاجعة زلزال سنة ١٩٢٣، حين تهافت جميع العائلات على تقديم المساعدة لذراريهم

عروس في زي الزفاف.

الذين كانوا يقطنون طوكيو، فسهلوا بذلك وسائل الإنقاذ والتعمير؛ فالعائلة سند قوي لليابابي يكفل له بعض رخائه. وهذا ما جعل الياباني أقدر الناس على تنظيم التعاون على أساسه القويم؛ وهو الشعور منذ الصغر بأنه جزء من المسئولية الاجتماعية. ويظهر ذلك النظام جليًّا في المدن والقرى، وبين الهيئات الصغيرة، وفي الأعمال التجارية، والوظائف العامة؛ فالموظف يشعر بأن العمل على إنجاح المشروع الذي يخدمه من أقدس واجباته الاجتماعية، وفي نجاحه فوز له وربح كبير من الناحيتين: المادية، والأدبية. وقد كنت ألمس ذلك بنفسي بين موظفي القنصلية المصرية في كوبي؛ إذ كان تفانيهم في العمل وانكبابهم على إنجازه فائقًا كل حد، وطالما كانوا يشغلون وقت فراغهم فيه، رغم عدم تكليفهم بذلك، ورغم مرتباتهم الضئيلة.

فالياباني خاضع لرؤسائه الذين تجب الطاعة لهم ولأنداده؛ لأنه فرد منهم، ولمن هم دونه مقامًا؛ مخافة الرأي العام، فكثيرًا ما يتنازل عن حقه مراعاةً لذلك؛ لأنه يُؤثر أن يحسن جيرانه الرأي فيه على أية فائدة مادية. حدث مرة أن دعا أحد وجهاء قرية صديقًا أجنبيًّا؛ ليقيم عنده أيامًا — وهم يكرمون الضيف ويقدرون الوجاهة والفخفخة قدرًا كبيرًا (يشبهوننا في ذلك) — فكان كلما خرج في نزهة خلوية معه يتحاشى أن يستأجر من العربات أو السيارات ما يدل الناس على إسرافه في غير مبرر، وكان يركب الترام إلى قرية أخرى لا يعرفه أهلها، وهناك يستأجر ما يشاء من السيارات إكرامًا لصاحبه؛ وذلك مخافة سخط أهل بلدته عليه. كذلك حدث أن أثير غضب القوم على غنيٍّ أقام حفلات باهظة بعيد ميلاده، فأمعنت الجرائد في نقده، وعدوا عمله هذا جرمًا اجتماعيًّا. ذلك مثل مما يوقف استبداد الغني بالفقير في اليابان، رغم أن البلاد لا تزال تعوزها النظم الديمقراطية.

وينقد البعض خضوع الفرد وما له من أثر في نقص الشجاعة الأدبية وقوة الابتكار، حتى إن سخط الرأي العام كثيرًا ما يوقف المصلحين أن يقوموا بالمنشآت القيمة التي لم تلمس سذاجة الجماهير مزاياها؛ ومن هنا افتقرت اليابان بالعظماء في الدين والفلسفة والآداب والعلوم. ولقد زاد هذا الرباطَ الاجتماعيَّ هناك الدينُ الشنتويُّ الذي يتلخص في عبادة الطبيعة وتقديس الأجداد؛ فعبادة الطبيعة زادت استمساكهم بأرضهم، وتقديس العائلة زاد الرباط القومي؛ فهم يقدِّمون قرابينهم لمعابد الآلهة؛ لتشترك أرواح الأجداد في استرضاء الآلهة؛ ففي عيد اسمه «أوبون» في أغسطس يعتقدون أن أرواح الأجداد تزور المعابد؛ لذلك يجتمع حولها أفراد العائلة، ويوقدون المصابيح والنيران؛ ليتعجلوا مجيئهم. ويشترك في العيد أفراد الديانات الأخرى؛ لأن الأمر مرتبط بالأجداد، وكذلك يذهب سماسرة السندات كل سنة إلى معبد هناك يزعمون أن الآلهة تدلهم فيه على أسعار الأوراق الجديدة. وفي إحدى المدارس الكبرى للبنات يصلي الفتيات لآلهة «الأبر» التي حطموها طوال عامهن، وقبل أن يُبنى البيت الجديد يُطهر القسيس الأرض ويباركها. كذلك تعلق الحوادث السياسية الكبرى أمام معبد «إلهة الشمس»؛ جدة الأسرة المالكة. وفي كل سنة يذهب رجال المطافئ إلى معبد «إيسي» الشهير؛ ليتوسلوا للآلهة ألا يصيبوا البلاد بالحريق، كذلك تراهم يحجون زرافاتٍ إلى ذرى الجبال لآلهة المياه والصخور وما إليها.

ولا تزال عادة تقديس الأبطال شائعة لديهم؛ فمثلًا إذا ضحَّى رجل نفسه كي يساعد ذويه في كارثة نزلت بهم؛ يعده أهل القرية إلهًا حتى في مدة حياته إذا نجا من الموت؛ فالجنرال «توجو»؛ بطل الحرب الروسية اليابانية، يعبدونه في إيسي، وكثير من الناس

يحجون لزيارة روح الجنرال «توجي» وزوجته اللذين انتحرا سنة ١٩١٢؛ احتجاجًا على تقليد الغربيين بكثرة في اليابان! وحتى «تاكاموري»؛ زعيم ثورة سنة ١٨٧٦، التي قامت ضد الحكومة لأنها أدخلت النظم الحديثة الغربية؛ يجله القوم إجلالًا كبيرًا.

وللنظام الاجتماعي هناك أثر في ميلهم للألفة والاجتماع. ورغم أنهم حذرون في مخاطبتهم للأجانب، وعندما يرد موضوع اليابان في الحديث فإنك ترى الواحد مخالطًا لجميع أفراد عائلته يقفون جميعًا على أسراره كلها؛ لذلك كثيرًا ما يتضايق الأجانب عندما يفاجئهم بعض اليابانيين بالاستعلام عن أشياء شخصية أو عائلية لا تعنيهم قط. وهم يعدون ذلك من قلة الذوق، مع أن الياباني يعده اهتمامًا منه بشأن من يخاطب.

ولا يزال للطبقات عندهم أثر رغم التطور الذي أُحدث، إلا أنك تعجب إذ ترى عطف الممتازين على الطبقات الوضعية بالغًا حده. وكانت طبقاتهم أربعًا: رجال الحرب؛ ويشملون الدايميو أو اللوردات، والساموراي أو الفرسان، ثم طبقة الزراع، تليهم طبقة الصناع فطبقة التجار، ولا تزال ترى في البطاقات التي يملأ خاناتها نزيل النزل فقرة لكتابة الأسرة وطبقتها إلى اليوم. وكانت هناك طبقة دون هؤلاء جميعًا أشبه بطبقة المنبوذين في الهند تسمى «أيتا»، ولا يزالون يُحتقرون هناك إلى اليوم، ويُظن أنهم في الأصل سلائل الأينو، وهم سكان اليابان الأصليون، ولا تزال منهم بقية تمارس المهن الوضيعة، من بينها الاشتغال بالجلود والذبح والسلخ والإعدام. ولا يسمح لهم بالزواج إلا من طبقتهم. وكان لهم حاكم عنهم يتصرف في شئونهم. وسر دنسهم هذا الدين البوذي الذي يحرم القتل؛ لذلك عد من ينفذ الذبح أو الإعدام نجِسًا! وهم يكثرون في مقاطعات خاصة في الشمال اليوم، وقد تصل مشاحناتهم مع جيرانهم من الطبقات الأخرى حدًّا خطيرًا. ولا يزال المزارع عندهم في المرتبة الثانية كما كان قديمًا، وقد كان المزارع يدفع ضريبة الأرض أرزًا، وإذا وقع عليه حيف من الحاكم كان الزراع يوفدون جموعًا منهم لملاقاة حكام العواصم (الشواجن)، على أن الوصول إلى أولئك كان متعذرًا، فكان بعض الزراع يتجاسر ويضحي بنفسه في سبيل رفع الحيف. حدث مرة أن ألقى أحدهم بظُلامة في عربة «الشوجون» مخترقًا الحشد في الطريق، فأصدر الحاكم أمره بعقاب المتسبب في الظلم من الحكام أولًا، ثم أمر بصلب الرجل المتظلم هو وزوجته وأولاده؛ عقابًا له على تجاسره هذا، وردعًا لغيره. وكان في قانونهم أن صاحب الذنب الكبير لا تنجو منه عائلته! أما من اشتركوا معه في التدبير فيُنْفون من البلاد.

هذا مثل من نظامهم الاجتماعي الذي ظل في سواده سدًّا منيعًا في وجه عوامل التغير رغم التطور المادي، على أن الشباب اليوم مسرع في طريق التحول، وبخاصة منذ الحرب

الكبرى. ولقد شاطرت المرأة الرجل في الأعمال الخارجة عن دائرة المنزل. ولعل أخطر شيء يتهدد هذا النظام الاجتماعي المتين كثرة العمال؛ فاشتغالهم في المصانع يساعد على انحلال الروابط العائلية، كما أن سهولة وسائل الانتقال ستزيل تعصب الفرد لبيئته، وتخفف من عصبيته لقريته التي ظل محافظًا على تقاليدها.

سيدة من الأينو؛ سكان اليابان الأوائل، وهم كَلفون بتخضيب شفاههم.

إلى كوبي ثانيةً: غادرت أوزاكا؛ مقر الثروة الصناعية الناهضة الفتية، وعدت إلى كوبي، وهناك زُرتُ بعض متاجرها الكبرى الذي يعلو شامخًا في السماء، وفوق سطحه جلسنا قليلًا بين فوارات المياه والحدائق المنسقة، وهو شبيه أخيه في طوكيو، وقمتُ بجولة بعد الظهر في ضاحية «أريما» التي ركبنا لها المترو زهاء الساعة وسط الربى والمسايل والغابات تتخللها الينابيع الحديدية التي يؤمُّها القوم للاستشفاء؛ ولذلك قامت بها الأنزال على اختلاف طبقاتها، ويجري تحتها جدول كثير الليات والجنادل. ولا أنسى به مرآى

شلالين متجانبين أحدهما أظهر كبرًا. وهناك كان تزاحم القوم شديدًا؛ لأنهما في زعمهم يمثلان الذكر والأنثى! وهنا قابلت أحد جماعة السوريين الذين يقيمون في بلاد اليابان منذ زمان بعيد، ويحتكرون الوساطة التجارية بين مصر واليابان. وكم كان أسفي شديدًا لما أن علمت بأن جل التجارة اليابانية التي ترسل إلى مصر في أيدي طائفة من هؤلاء الدخلاء تدرُّ عليهم الأرباح الطائلة! وكان أجدر بالمصريين أن يبعثوا بمندوبيهم للشراء والاستفادة بتلك الأعمال التجارية التي تنمو على مر السنين نموًّا مضطردًا.

أشهر البوابات المقدسة في اليابان تتوسط مياه المد في معبد مياجيما.

إلى شيمونوزيكي: قمت من كوبي العاشرة والنصف صباحًا، فوصلتها منتصف العاشرة مساءً، والطريق كله جميل تتعدد أنفاقه، ويكاد يجانب شاطئ البحر في نصفه الأخير. وكان مشهد الجزائر المنثورة طوال الطريق رائعًا بديعًا، وكانت تبدو القرى في الوهاد أقل نظافةً ورقيًّا من بلاد الشمال، وأهلها أكثر سمرة، وأقل رقة. وكان غالب النبت

من الأرز والتوت القصير والخيزران والغابات. وقد مال الجو هذين اليومين إلى الحرارة بعد أن كان جميلًا متقطع السحب والمطر، وقد علمت أن موسم الحرارة المتوهجة قد أبطأ قليلًا عن ميعاده؛ إذ يتوقعه القوم في منتصف يوليه. وقد كان ذلك التأخير من حظي، وإن لم يكن من صالح الزراعة لديهم. وبعد ثلثي الطريق مرَرنا بمياجيما؛ إحدى آيات الطبيعة الثلاث الساحرة على البحر الداخلي. بدت بوابتها الحمراء المقدسة وسط لجة الماء وهي أجمل بوابات اليابان طرًّا. رأيناها وقت المد وكأنها معبد سابح. والمعبد نفسه فوق ذروة الجبل به قبة من نحاس دونها موقد تعلوه نار لم يخمد أوارها منذ ألف سنة! وعلى مقربة منها الغربان المقدسة تصفق لها فتجيء؛ لتأكل ما تقدمه لها وهي آمنة. وقد بلغ من قدسية المكان أن الحكومة كانت تحرم بقاء المرضى وذوات الحمل به؛ خشية أن يموت المريض أو تلد الحامل فيصيب المكان دنس أو رجس.

دخلنا شمونوزيكي ليلًا، ومنها ركبنا البحر في سابحة يابانية شبيهة أخواتها في بحار دنمركة، وظلت تمخر بنا عباب بحر اليابان طوال الليل. وكان هادئًا جميلًا، لكنه في الصباح فاجأنا بضباب كثيف أعقبه مطر وابل واضطراب غير مألوف أعاق سير السفينة، فتأخرت ساعة عن دخول مياه فوزان؛ ثغر كوريا، الذي بدا ثغرًا كثير الحركة، ممدود الأرصفة، غاصًّا بالسكان، يحكي ثغر بورسعيد عندنا.

كوريا

وتُسمَّى «شوزن»، ومعناها أرض الصباح الهادئ: قام بنا القطار صوب سيول؛ عاصمة كوريا؛ تلك التي وصلناها بعد عشر ساعات كاملات. وكان الطريق كله جبليًّا معقدًا تفوق ذراه تلك التي في اليابان، لكنها أميل إلى الجدب؛ إذ تكاد تكون عارية عن الشجر. وكنا نرى مسائح ممتدة مهملة. ويعزو اليابانيون ذلك إلى حكَّام البلاد الأوائل. وتربة البلاد فقيرة على وجه العموم، ويتخلل تلك الرُّبى وديان تتلوى في انحناءات عجيبة وتفيض بالماء. وفي كوريا ستة أنهار عظيمة طامية تفوق تلك التي في اليابان نفسها طولًا وعرضًا، وغالبها يجف موسم الجفاف عندما يقرب الشتاء. وفي بطون تلك الوهاد تقوم القرى في أخصاص تتجمع في تزاحم كثيف، ويُبنى هيكلها من الخشب تكسوه طبقة من الطين، والسقوف كأنها الأهرام أو النواقيس من قش الأرز. وهي فقيرة قذرة، والطرق بها رديئة لا تخلو من الأوحال. والبلاد عديمة السهول؛ فهي في جملتها وهاد على جوانب الوديان تزرع من الأرز والفول والتوت، والفقراء هناك يأكلون الذرة. أما الأرز فللأغنياء، وأهل كوريا أطول قامةً ووجوهًا من اليابانيين، وهؤلاء أخلاط؛ لأن سكان اليابان الأصليين كانوا من الأقزام، ثم جاء الأينو وطاردوهم. ولا تزال منهم بقية في جزائر كوريل تناهز الألف، وفي سخالين كذلك، وفي هوكايدو تناهز خمسمائة. وغالب الظن أنهم قوقازيون يعزز ذلك لونهم الأبيض وشعرهم الغزير، وهم زحفوا من الشمال. أما من الجنوب فوفد على اليابان شعوب الملايو؛ الذين يظهر أثرهم في نظام المساكن التي لا تزال تحافظ على هندسة الملايو، وكذلك في ميلهم للاستحمام بالماء البارد، وفي مهارتهم في السباحة. وإلى هؤلاء يُعزى ضعف أسنان اليابانيين؛ لأنهم كانوا — ولا يزالون — يأكلون فاكهة خضراء ضارة اسمها «بيزم»، وكانوا يخضبون الأسنان باللون الأسود؛ تلك العادة التي كان يتبعها اليابانيون إلى وقت قريب — أما الأينو فمن عاداتهم إلى اليوم تخضيب الفم لا الأسنان — ومن الغرب جاء المغول

عن طريق كوريا — ومن هؤلاء تعلَّم اليابانيون الاغتسال بالماء الحار — ومن كل أولئك نشأ الياباني الحالي. ويُعزز الصلة بأهل الملايو عادة اختلاط الرجال بالنساء؛ تلك التي تحرم في بلاد الصين. كذلك أثرها في اللغة؛ فاليابانية والكورية خليط من الملايو وغيرها. أما لغة الصين فلم تتأثر بها قط. وقد عثر الباحثون على كثير من مقابر شبه سويسرية في كوريا دون اليابان؛ مما يعزز علاقة الكوريين بأوروبا. ولقد ظلت كوريا بين ناري الصين واليابان وتعرضت لغزواتهما المتتابعة.

ظل القطار ينهب الأرض بين تلك الجبال المعقدة التي كان يشقها بأنفاق لا حصر لها، وكان جو يومنا جميلًا خفَّف من حرِّه وابل المطر؛ ذلك الذي يتأخَّر موسمه قليلًا عنه في اليابان. وغالب الجبال هناك حديثة العهد تمتد امتدادًا طوليًّا؛ مما يؤيد خضوع البلاد للضغط الشديد الذي تسببه أغوار البحار، التي لا تزال تزيدها قوة الخفض عمقًا من حولها إلى اليوم. وأخيرًا دخلنا:

سيول: وهي كلمة كورية معناها: العاصمة، ويسميها اليابانيون «كيجو»، ومعناها العاصمة أيضًا. والمدينة لا بأس بتنسيقها؛ بها كثير من المباني الفاخرة، والشوارع القيمة، وإن كان خير ما راقني سوقها الضيقة، كثيرة الأضواء، دائبة الجلبة كأنها أسواق البلاد اليابانية، على أني بدأت ألاحظ أن «الكيمونو» أخذت في القلة إلى جانب تغير السِّحن والأزياء. والأحياء الوطنية ضيقة قذرة تتصاعد منها الروائح المنتنة، والصبية يلعبون بالأوحال، وتُعرض كثير من المأكولات في شكل تعافه الأعين؛ من بينها شمام أصفر كأنه القثاء، وخوخ كبير الحجم تعوزه الحلاوة. وأهم بقايا سور المدينة القديمة بوابة «نانديمون»؛ أقيمت سنة ١٣٩٣، وكانت تُرى بقايا السور وهي تهبط الوهاد وتعلو النجاد وكأنها سور الصين. ومما استرعى نظري في ناحية من أمهات طرقها ناقوس عظيم ظل معلقًا في مكانه هذا تحت غطاء من خشب في الهندسة الصينية زهاء ٥٤٠ سنة، وكان يدق في باكورة الصباح فتفتح أبواب المدينة، وعند المساء فتوصد، وبعد الساعة التاسعة مساءً؛ ليسرع الرجال إلى إخلاء الطرق للنساء كي يتريضن، والويل لمن تخلف منهم! ولعل أجمل ما هنالك:

القصر الشمالي: شيِّد خلال القرن الخامس عشر، ثم احترق خلال الحرب اليابانية سنة ١٥٦٣، لكن أُعيد سنة ١٨٥٠ بأمر الأمير «تايوون كون» الذي أثقل كاهل الناس بالعمل ودفع الضرائب لإنجازه. ويحيط به سور من حجر وخشب في الخرط الصيني الجميل، وفي وسطه تنتثر المقاصير الأنيقة وأجملها ثلاث: مقصورة العرش، ومقصورة

بوابة «نانداىمون» القديمة في سيول.

الاجتماعات، ومقصورة الحفلات. وهذه تتوسط بحيرة تصلها بالبر قناطر جذابة؛ ولذلك سميت أحيانًا بمنزل الصيف. وفي حديقة القصر سُفك دم آخر ملكة لكوريا سنة ١٨٩٥ وأحرقت جثتها، وبجوارها المتحف التاريخي، ويحوي مجموعة صغيرة من آثار كورية القديمة من حليٍّ وأوانٍ وأسلحة وتماثيلَ. وأهم معابد المدينة:

معبد شوزن: فوق ربوة مشرفة اعتليناها بسُلَّم شاهق تحفه المصابيح الحجرية.

والمعبد أقيم على النظام الشنتوي، ويبدو منظر المدينة من دونه رائعًا؛ لأن «سيول» كلها في وهدة تحيطها الربى، ويطوق زُهاء نصفها نهر هان الصغير يطل عليه متنزه «نانزان» الجميل. ومن المباني التي يفاخر بها اليابانيون دار الحاكم؛ أقيمت من رخام كوريا المُجزَّع بديع النقش، وكذلك دار البريد، ودار البلدية.

وأول من اتخذ المدينة حاضرةً له مؤسس أسرة «يي»، فأحاطها بسور اشتغل فيه ١٩٠ ألف عامل لمدة شهرين في الربيع، ومثلُ هذا العدد من النساء في الخريف، حتى بلغ امتداده خمسة عشر كيلو مترًا، وعرضه ستة أمتار، وارتفاعه كذلك. وما فتئت المدينة تتضخم حتى ناهز ساكنوها اليوم ثلث المليون، وهم أخلاط من الكوريين واليابانيين والصينيين. وأظرف ما يسترعي نظر السائح أردية الرجال والنساء؛ فالأحذية من قماش أبيض يلتوي طرفها المدبب إلى السماء، وجواربهم بيض يعلوها «بنطلون» وصدار للرجال. وقد يرتدون فوق ذلك كله عباءة من قماش جامد منتفخ بما أشبع من «النشا»، ورداء النساء كذلك،

على شرفة مقصورة الحفلات في قصر سيول (كوريا).

ويزيد حزام ضيق في وسط الجسم. وقبعات الرجال مضحكة منفرة؛ فهي أشبه بقمع أسود مقصوص من أعلاه، وله حافة قصيرة كإفريز القبعة، وتحته قلنسوة تلبس مُحكَمة في الرأس فتبدو القبعة نفسها، ولا تكاد تستقر فوق الناصية لولا شريط يربطها بما تحت اللحية. والرجال المسنون يطلقون لحاهم وشواربهم في شعرها الخفيف الذي يطول فيتدلى إلى جوانب الفم، وتُرسل اللحية مدببة الطرف؛ مما يزيد أشكالهم سخرية. وقد كانت هذه أردية اليابان من قبل أن يظهر الكيمونو بشكلها الجذاب.

إلى منشوريا: منشوريا قطع شاسع تقارب مساحته مساحة القطر المصري بصحاريه، أو نحو ثمانٍ وعشرين مرة قدر مجموع أراضينا المنزرعة، وتربتها من أخصب أراضي الدنيا، وهي أكثر بلاد الشرق الأقصى ملاءمةً للزراعة؛ إذ لا تقل الأراضي الصالحة للزراعة عن نصف مساحتها؛ أي نحو سبعين مليون فدان. وأخص ما ينمو هناك اليوم نوع من الفول اسمه «صويا» عظيم المادة المغذية — ٤٠٪ بروتين — ولزَيته قيمة كبيرة. وقد

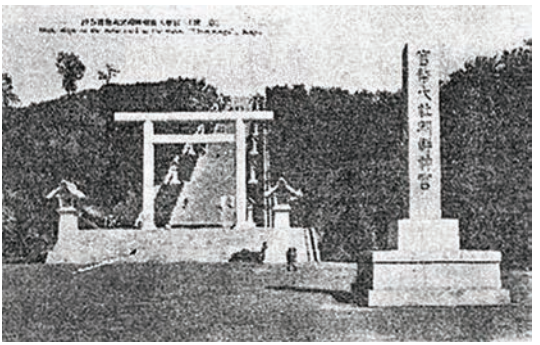

معبد شوزن أفخر معابد سيول.

أزياء الرجال في كوريا وأعجب ما فيها قبعاتهم.

فاق الصادر منه أخيرًا مليون طن في العام. ومن الغلات الهامة الحبوب الأخرى والطباق والكتان والحرير، ومراعيها لا تقل عن ١٥ مليونًا من الرءوس، وغاباتها تكسو ٢٥ مليون فدان. هذا إلى دفائنها المعدنية الهائلة؛ فالفحم يمتد في طبقات سميكة، وبعضها يعلو

إلى سطح الأرض، ويعمل المُعدِّنون فيه في الهواء الطلق. ولقد كان لسكة حديد منشوريا أثر عظيم في بدء التقدم الاقتصادي في تلك البلاد الغنية، التي أضحت مطمح أنظار كبار المُمولين من اليابان وأمريكا.

حسناء كورية في ردائها القومي.

وها نحن نرى ما جرَّته المطامع من حروب لا تزال مُسْتَعِرةً إلى اليوم. ومجموع سكان البلاد ٢٥ مليونًا، تسعون في المائة منهم من الصينيين. والنقود الصينية هي المتداولة في أنحاء البلاد عدا المنطقة اليابانية على طول الخط الحديدي، وفي مكدن العاصمة؛ حيث تستعمل النقود اليابانية والكورية.

ولا نعلم عن ماضي منشوريا البعيد شيئًا سوى بعض الغارات التي كانت تشنُّها القبائل تِباعًا هناك. وفي سنة ١٢٦٠ ضمَّ جنكيز خان البلاد للصين، وزاد نفوذ المغول وأسسوا دولة المانشو، وفي سنة ١٦١٦، قام أحد أبنائها «نولوهاشي» وفتح مكدن وحارب

الصين، ثم جاء خَلَفَهُ ففتَح كوريا وسمَّى أسرته «تسنج»؛ أي أسرة الأصفياء. أعقب ذلك اضطراب في الصين لم يسعها إزاءه إلا أن تطلب معاونة المانشو الذين فتحوا بكين، وآلَ المُلك إليهم سنة ١٦٤٤، وظل في أيديهم ٢٩٦ سنة، على أن الدم الصيني ساد أهل منشوريا بحيث لا يكاد يفرِّق المرء اليوم بينهم وبين الصينيين في السِّحن والعادات والأخلاق. وفي القرن التاسع عشر، امتد النفوذ الروسي إلى المحيط الهادئ، وأقيمت سكة حديد سيبيريا إلى ڤلاديڤستك. وعلى أثر حرب الصين مع اليابان تدخلت الروسيا ومُنحت امتيازًا بمد سكة حديد شمال منشوريا وقطعة من كوانتونج، وبعد ذلك بعشر سنين هزمتها اليابان فتنازلت لها عما تملك، فأضحى ما لليابان اليوم هناك ١٣٠٠ ميلًا مربعًا. يضاف إلى ذلك منطقة السكة الحديدية إلى بورث أرثر ودايرن إلى أجل ٩٩ سنة. وللشركات اليابانية هناك من السكك الحديدية ٦٨٦ ميلًا، إلى ذلك كثير من الفنادق والمصانع والمنشآت الاقتصادية. وهي بحجة المحافظة على كل أولئك تبرر موقفها ضد الصين في النزاع الذي نقرأ عنه اليوم.

قمت إلى مكدن؛ عاصمة منشوريا، فوصلتها في ثلاثين ساعة، وخلفتُ ورائي سيول بأزيائها المختلفة من يابانية جذابة، وكورية مضحكة، وصينية منفرة، فأخذ القطار يخترق أنفاقًا لا حصر لها وسط جبال معقدة تشقها الوديان تكسوها الخضرة. وكان يظهر على أهل البلاد الجهل المطلق والفقر المبيد في قذارتهم، وكثرة السابلة والمتسولين. وكنا كلما قاربنا منشوريا انفسحت السهول، وظهر نبات الذرة والفول، وندر الشجر. ولم تكد تغيب الجبال عن الأنظار إلا قرب مكدن، حين أضحت المناظر شبيهة بمناظر مصرنا الغالية. والسكان هنا أندر منهم في كوريا، وفي كوريا منهم في اليابان؛ يؤيد ذلك قلة القرى والمساكن التي كنا نجوزها. وبمجرد أن اجتزنا الحدود عند «شنجيشو» أخَّرنا ساعاتنا واحدة كي نتمشى مع زمن الصين، وهنا أقبل رقباء الجمارك وفتشوا الحقائب في رفق، ثم عبرنا نهر «يالو»؛ وهو الحد بين القطرين، وبدت بيوت منشوريا بالحجارة والطين. أما الخشب فنادر؛ لندرة الشجر هناك. أما المروج لمرعى الخيول والماشية فمترامية، وكان بعض القوم يحرثون الأرضَ بمحاريثَ تجرُّها الأبقارُ على الطريقة المألوفة في مصرَ، وأخيرًا عبرنا نهر كونجا من أكبر أنهار منشوريا، ثم دخلنا:

مكدن: ويسميها اليابانيون «فنجتين»؛ يفوق سكانها مائتي ألف، وهي ثلاثة أقسام: البلدة الحديثة أو اليابانية، وعددها ٩٠٠٠. وقد أقامتها اليابان على مقربة من محطة سكة الحديد التي أرغمت الصين على تركها لها بعد الحرب الروسية هي وما جاورها من الأرض، وتليها شرقًا المستعمرة الأجنبية، وتعدادها ستون ألفًا، وبها مساكن الأجانب وغالب القناصل، وإلى شرقها المدينة الصينية القديمة يحوطها سور عظيم له بواباته

العاتية التي لم تُفتح أبوابها للأجانب إلا سنة ١٩٠٦، وهي مسقط رأس أسرة المانشو التي سادت الصين لمدة ٢٩٦ سنة، حتى قامت اليوم على أنقاضها الجمهورية الصينية. وها قد أعلنت اليابان الجمهورية في منشوريا تحت حمايتها، وترأَّسها إمبراطور الصين السالف، فإن تم ذلك نهائيًّا انفتح المجال أمامها لاستغلال تلك البلاد المترامية. ويتوسط المدينة قصر عظيم الامتداد في هندسة صينية، وفي داخله متحف حوى بعض مخلفات تلك العصور، وطرق المدينة متربة قذرة، ودُورها واطئة متهدمة. وهنا أذكر أنني هممت بأخذ صورة للسور، وإذا بالجندي يقتادني قهرًا إلى دار البوليس. وبعد تحقيق طويل وحركة صاخبة في التلفون، تركت لهم عنواني، وأُفرج عني بعد أن أخذوا عهدًا ألَّا أعود للتصوير قط. وكان يخالني البوليس إنجليزيًّا، فلما علم أني مصري تسامح معي كثيرًا؛ وذلك يظهر مبلغ نقمتهم على الأجانب. أما المدينة اليابانية ففاخرة في مبانيها وطرقها. وقد أقاموا في أكبر ميادينها نصبًا تذكاريًّا لاحتلال اليابان للمكان. وتكاد تكون في هندستها ومتاجرها وأضوائها يابانية صرفة، حتى أسماء المتاجر وإعلاناتها تُكتب باليابانية. وهنا بدت النزعة الاستعمارية الجائرة التي تنتحيها اليابان. أما شبان الصين فحانقون أشد الحنق عليهم وعلى سائر الأوروبيين والأجانب، ولهم في ذلك الحق؛ لأن بقاءهم لا شك يخدش عزتهم القومية. وأظهر الأجانب في المدينة من الروس الذين يسهل مجيئهم عن سكة حديد سيبيريا. ومما راقني خارج السور برج صيني «باجودا» يرجع عهده إلى ألف سنة في اثني عشر طابقًا، وهو مائل ونصف متهدم، وترى على جوانبه بعض التماثيل الفنية لبوذا، وهي بارزة. ومن الأماكن الجديرة بالزيارة مدافن أسرة المانشو على ربوة تكسوها الأحراش، وأجلُّها مقبرة الإمبراطور تاتسونج؛ ثاني حكامها، يحوطها سور عظيم، وفوقها نُصبٌ نقشت عليه فضائل الموتى، وتقوم على شبه سفينة من حجر تحتها المدفن، وحولها عدة مقاصير وتماثيل لحيوانات مختلفة تُشعر بالرهبة خصوصًا إذا دخلنا الباب الأول، ثم ارتقينا منه إلى الثاني، ثم علونا إلى الثالث في مسافات مترامية.

والأحياء الوطنية قذرة تكسو طرقها طبقات من تراب تغوص فيه العجلات، ويثور فيطمر كل شيء، والناس في قذارة، والأطفال عراةٌ يعبثون بالأتربة والأوحال، والعاطلون في كل مكان، وسيماء الفاقة تبدو على وجوههم جميعًا، والمتسولون لا يحصون عدًّا.

البوابة الرئيسية في مكدن؛ عاصمة منشوريا.

سيدات منشوريا وأعجب ما في ملابسهم رداء الرأس.

الصين

بلاد العجائب والأسرار الغامضة

نبذة تاريخية: لم يدون لنا التاريخ شيئًا عن الصين قبل سنة ٧٧٠ق.م، لكنَّا نعلم من طريق الرواية والتقاليد أن أبناء هان حلوا الهوانج هو، وقام عليهم زعماء أشداء علَّموهم فلاحة الأرض ومبادئ الحضارة. وفي سنة ٢٦٩٧ق.م، أدخل إمبراطورهم الكتابة، واخترع الطباعة، وعلمهم بعض أنغام الموسيقى، ومدَّ نفوذه إلى البحار الشرقية شرقًا، وإلى اليانج تسي جنوبًا، وتبعه حاكمان «تاءوتي وستون تي» أقاموا الأسواق، وقاوموا الفيضان، ووسعوا نطاق الإمبراطورية، حتى إن كنفوشيوس قدَّسهما فيما بعدُ، وعدهما مثال الفضيلة والحكمة، وعد هذا العصر الزاهر «عصر الصين الذهبي».

أعقب ذلك عصر إرهاب ومظالم تحت أسرة هسيا لمدة ٤٣٩ سنة، تبعتها أسرة شانج التي أعادت النظام بعض الشيء وحكمت ٦٤٤ سنة، ثم جاءت أسرة شو التي حكمت ٨٦٧ سنة، فقام ووانج وقسم البلاد على أقربائه وقواده، ومنحهم ألقاب شرف عديدة. وهنا ازدهرت الفنون والآداب، وأصبحت البلاد زراعية، وانمحت آثار البدو كليةً. وهذا يعد عصر الأدب الصيني الذي اتخذه كنفوشيوس نموذجًا لمُثله العليا.

كثرت غارات البرابرة فاستقلت الإقطاعات عن الحكومة الإمبراطورية، وسادت الفوضى، وعم الفساد، فقام كنفوشيوس يبشر بفضائله سنة ٥٥١ق.م، وكذلك لاوتسي ومنشيوس.

وفي ٢٥٥ق.م قامت أسرة شو، فألغى الإمبراطور النظام الإقطاعي، وقسم البلاد إلى ٣٦ مديرية يديرها حكَّام يُعينهم هو. وهنا أقيم السور الأعظم ليردَّ البرابرة. وقد أحرقت

كتب الأدب وقتل مئات من أتباع كنفوشيوس لمعارضتهم لتلك السياسة، فأهاج ذلك غضب الشعب، وخلعوا تلك الأسرة، وأقاموا «ليوبانج»؛ مؤسس أسرة هان، فازدهر الأدب وامتدَّ سلطان البلاد، خصوصًا تحت الإمبراطور ووتي. وقد فُتحت المواصلات مع الهند لأول مرة، فدخلت البوذية سنة ٦٧ ميلادية، واستعيدت تعاليم كنفوشيوس ونُقشت على الصخور، وبدأ استخدام المداد والورق، وأقيمت المكتبات، ونبغ كثير من العلماء. وفي أُخريات تلك الأسرة ثار عليها ثلاثة قوَّاد حكموا البلاد وطوحوا بها إلى الفوضى، وسمي عهدهم «عصر الممالك الثلاث»، حتى جاءت أسرة تشن بين ٢٦٥–٤٢٠، وفي عهدها هدد الهون والروم البلاد، وأُوفد رسول من القسطنطينية إلى عاصمة الصين، وقيل: إن تسمية البلاد «الصين» ترجع إلى اسم تلك الأسرة، وهي أول من اتصلوا بالعرب والفرس والهند، وقال بعضهم: إن الاسم محرف عن «تسان»؛ أي الحرير أو أرض الحرير. وأعقب تلك عدة أسرات صغيرة

ظلت ٢٠٠ سنة، وآخرتها «أسرة سوى»؛ وهي التي حفرت القنوات العدة لتصل بين الأنهار المختلفة. وفي هذا الزمن نقل رهبان أوروبا صناعة الحرير لأول مرة إلى جنوب أوروبا، ثم جاءت أسرة تانج ٦٢٠–٩٠٧، وثاني ملوكها نشر العدالة والعلوم، وأصلح قانون العقوبات، وردَّ جنودُه البواسل هجمات البرابرة والأتراك. وفي مدتهم امتدت الصين من بحر قزوين إلى المحيط الهادئ، ووفد السفراء من الروم والفرس واليابان وكوريا، فانتعشت التجارة بينهم. وقد شجعت الطباعة بالحروف نشر الأدب، وبلغت الحضارة شأوها.

وتبع ذلك خمس أسرات ضعاف، جاءت بعدها أسرة سونج (٩٦٠–١١٢٧)، فكافح أول حكامها «تاي سو» عشرين عامًا ليوحد البلاد، وسُمي عهده «عهد أوغسطس الصين»، ولكن سرعان ما هاجمهم طوائف من التتار «تسي ثان»، وبعدهم «نوتشين»، ثم خضع الجميع لجنكيز خان الذي اجتاح المديريات الشمالية برجاله البواسل من المغول، فمهَّد السبيل لحفيده كوبلاخان؛ الذي أسس أسرة يوان سنة ١٢٦٠. وظل هؤلاء الأجانب حكام الصين لمدة ١٠٧ سنة، فوظفوا كثيرًا من الأجانب — من بينهم ماركو بولو؛ الذي أعطى أوروبا أول فكرة عن الصين — وأخضعوا الصين كلها وكوريا وجزءًا من الهند الصينية، وحاولوا فتح اليابان لولا عاصفة أودت بأساطيلهم، على أن الصينيين تخلصوا من هؤلاء الأجانب وأقاموا أسرة:

منج ming ١٢٣٠–١٣٦٧، التي أعادت النظام وعاضدت الفن والأدب، ونشرت مذاهب كنفوشيوس حتى جاءت أسرة تشنج ching من منشوريا تؤيد الأسرة السالفة، لكنها سلبتها الحكم (١٦١٦–١٩١٢)، واتبعوا نظم الحكم القديم حتى قامت الجمهورية سنة ١٩١٢ بقيادة الدكتور «سان يات سين»، الذي أهاج الشعب ضد المانشو، فقامت الثورة، ولجأ المانشو إلى بكين وتركوا أمر الحكم للجمعية الوطنية، فانتُخب الدكتور رئيس الجمهورية، وأشرك الإمبراطور وقائده يوان شي كاي في الحكم، لكن بعد استعفاء الدكتور تآمر الإمبراطور على استعادة مركزه، لكنه فشل بفضل مقاومة الشعب من جهة، والأجانب من جهة أخرى؛ خصوصًا تدخل اليابان وتقديمها مطالبها الإحدى والعشرين سنة ١٩١٥. وبعد موت يوان (١٩١٦) قامت الجمهورية في بكين، لكن الدكتور سان أقام حكومة معارضة لها في كانتون، وانضمت الصين للحلفاء في الحرب الكبرى (١٩١٧)، ونظير ذلك قاوم الحلفاء نفوذ اليابان في الصين، لكن حكومة الصين ظلت ضعيفة أمام القواد الحربيين الذين لا يزالون يقتتلون إلى اليوم، على أن الحكومة الوطنية أوشكت أن تتم انتصاراتها. ويزيد الشعور بالقومية يومًا فيومًا، والنفور من الأجانب بالغ أشده، وهم يطالبون بإجلاء

الأجانب كلهم عن بلادهم جميعًا. ومن الحوادث التاريخية الهامة التي حدثت في الصين حديثًا:

حرب الأفيون (١٨٤٠–١٨٤٢): حين قاومت الصين دخول الأفيون إلى بلادها، فأتلفوا ٢٠ ألف صندوق في كانتون، فتحرجت الحالة بينها وبين التجار، ووقعت لذلك الحرب بين الصين وإنجلترا، فهُزمت الصين وأُجبرت أن تدفع ستة ملايين من الريالات ثمنًا للأفيون، و١٥ مليونًا على سبيل الغرامة، مع ترك جزيرة هنج كنج لإنجلترا. وفي معاهدة نانكنج هذه أُرغمت الصين على فتح ثغورها للتجار الأجانب؛ خصوصًا كانتون وشنغهاي وفوشو.

حرب اليابان (١٨٩٤–١٨٩٥): قامت بسبب المنافسة على امتلاك كوريا، وكان النصر حليف اليابان، لكن الحلفاء وقفوا في سبيل مطامعها.

عصيان الملاكمين boxer (١٩٠٠): قام الصينيون بطرد الأجانب الذين هددوا الوحدة الصينية مذ امتلك الألمان كياوشاو، والروس بورث أرثر ودايرن، وبريطانيا واي هاي واي و٥٠٠ ميل في كولون تجاه هنج كنج، وفرنسا كوانج شاو وان تجاه جزيرة هينان، فهاجموا الأجانب وحاصروهم لكنهم هُزموا.

وفي حرب اليابان مع الروسيا (١٩٠٤–١٩٠٥) احتلت اليابان سكة حديد منشوريا وضمَّت كوريا نهائيًّا.

إلى بكين (ومعناها العاصمة الشمالية): حللتُ الدرجة الثانية من القطار السريع، فبدت قذرة منفرة، غالب ركابها من الأجناد والرعاع، ومقاعدها من خشب قاسٍ مُمض. وكان القطار يطيل الوقوف على جميع المحاط، وكنا نرى صفوف الجند شاهري السلاح طوال الطريق، وإلى جوار سائق القطار، وعند مدخل كل عربة، مما أشعرني بأن البلاد تتحفز لحرب حامية الوطيس؛ وهي تلك الحرب الطاحنة التي تدور رحاها اليوم في تلك البقعة من منشوريا. أما مناظر الطريق فظلت سهولًا طوال الطريق تكسوها منابت الذرة والفول، وكلما أوغلنا في البلاد زاد البؤس والشقاء. وكنا نرى صفوفًا من المتسولين يصيحون استجداءً في جلبة مزعجة كلما وقف القطار. وكان يلفت النظر استدارة أدمغة القوم، تلك التي بدت متحدرة الجباه، مشطورة الخلف بدرجة تثير الدهشة. هذا إلى تباعد بصيلات الشعر الذي ينمو في استقامة كأنه شوك القنفذ؛ ولذلك اضطر كل من يرسل شعره إلى استخدام الأدهنة الملينة حتى يبدو أملسَ براقًا. وتلك مميزات الجنس الأصفر المغولي.

وكم كانت تضايقني كثرة البصق والتجشي والتمخُّط في كل مكان، وبين كافة الطبقات، في شكل تشمئز منه النفوس! كذلك الخشونة التي كانت تبدو في طباع الناس. وشتان بين آداب اليابانيين السامِيَة وجفاء هؤلاء.

بكين أو بيبين Peipin، كما تسمى اليوم، ومعناها السهل الشمالي: بعد تمام أربع وعشرين ساعة، دخلنا بكين؛ عاصمة بلاد الصين، بعد أن اخترقنا سورين من أسوارها الشامخة التي أقيمت من الآجر الأسمر الكبير، وبدت بعض بواباتها الضخمة التي تتلاشى أمامها بوابة «زويلة والفتوح» عندنا. هنا أقلتني «ركشا» بحقائبي إلى النزل؛ لأني لم أكد أعثر على سيارة لنُدرتها في تلك البلاد؛ بسبب مزاحمة الإنسان في الجرِّ والحملِ لها. تفقدت خريطة بكين فإذا بها مدينتان: المدينة التتارية، والمدينة الصينية، يفصل بينهما سور ضخم، ومساحتهما معًا ٢٥ ميلًا مربعًا، يطوقهما سور من بناء أصم. سور المدينة التتارية يمتد ١٣ ميلًا، وعلوه ٣٧ قدمًا، وسمكه بين ٦٤ و٥٢. أما الصيني فأصغر قليلًا، وبين كل ١٨٠ قدمًا شبه قلعة، وتخترق الأسوار ١٦ بوابة، يواجه كل بوابة بناء نصف دائري تقوم عليه الأبراج السامقة بنوافذها المسلحة. وقد علمت أن كل مدنهم تقام على هذا الأساس. وهذا قسم خاص بالتتار من المسودين، وهم المغيرون من سلائل المانشو الذين كانوا يترفعون عن الاختلاط بالصينيين، وهم الرعايا الذين كان عليهم أن يأتمروا بأمر التتار ويُلقَّبون بـ «عبيد التتار». وعلى الصينيين أن يُموِّنوا أهل المدينة التتارية بالغذاء والضرائب، رغم أنهم قد يبلغون العشرين ألفًا. وقد عرف أولئك التتار أخيرًا بالخمول والكسل؛ فهم يحتقرون العمل ويرونه خاصًّا بمن هم دونهم مقامًا من الصينيين؛ لذلك كنا نرى بقاياهم يقتلون وقتهم جلوسًا أمام دُورهم يدخنون غلاييهم، وبيد كلٍّ قفصٌ يضم مهواته «غيته» المحبوبة من الطير، حتى النساء اللاتي يسرفن في التدخين، حتى في سن العاشرة، وقد قيل: إن متوسط ما تستهلكه السيدة من الطباق عشرون سيجارًا كبيرًا في اليوم؛ ذاك الطباق الحار القوي الذي يخلف أثره السيئ في صحتهن، وفي فساد رائحة أفواههن جميعًا.

ظل أهل الصين خاضعين لهؤلاء الدخلاء من سلائل المانشو من التتار خضوعًا مخزيًا يدل على انعدام روح المقاومة بينهم، تلك التي نشطت قليلًا أوائل القرن الحالي، وبدت في شكل ثورة سنة ١٩١١، حين هاجمهم الصينيون وأبادوهم، وذبحوا أبناءهم، وتخلَّصوا من نِيرهم؛ إذ كانوا يعيشون عالة عليهم.

والمدينة التتارية تقام في شكل «حدوة الفرس»؛ تقديرًا لخيلهم، وتفاؤلًا بها؛ إذ كانت مطيتهم التي أغاروا بها على البلاد لَمَّا أن وفدوا من صحاري القرغيز ومنغوليا. ويتوسط المدينة عادةً بيت القائد؛ تؤدي الشوارع الرئيسية إليه، وتنتشر حوله المعسكرات.

وفي بكين تتوسط المدينة التتارية مدينة أخرى يسمونها المدينة الإمبراطورية، لها سورها الخاص، وكانت مقر الأسرة والحاشية وكبار رجال الدولة. ومن داخل هذه أيضًا: المدينة المُحرَّمة؛ مركز الدنيا في زعمهم! يتوسطها عرش التنين ذائع الصيت؛ ذاك الذي جلس عليه ملوك المغول والصين والمانشو على التعاقُب، وحولها سُور من الخزف الأصفر البراق.

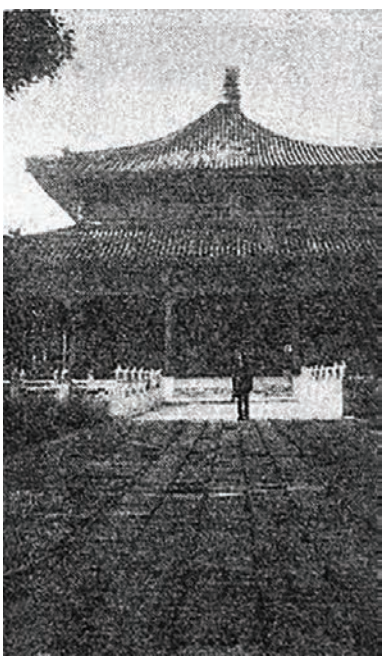

أمام مقصورة العرش في المدينة المحرمة (بكين).

بدأت جولاتي بالمدينة المحرمة وذرعها ٩٠٠ مترًا في ٧٠٠ ببواباتها الأربع التي تخترق السور البرَّاق، فتؤدي إلى مجموعة لا حصر لها من مقاصير في الهندسة الصينية الجذابة؛

تُكسى سقوفها المنحدرة المقوسة بالخزف الأصفر، ويتخلل حديقتها الفسيحة المتسعة قنوات عليها قناطر محدبة من رخام أبيض ساطع. بناها الإمبراطور yunglo في القرن الخامس عشر، واتُّخذت مقرًّا للإمبراطور وأسرته، وكانت محرمة على الجمهور إلى سنة ١٩٠٠ حين دخلها الأوروبيون عنوةً وأرغموا الصين على فتحها للجميع. وأفخر الحجرات حجرة العرش، وحجرة الولائم، وحجرة المعرض. تتقدمها جميعًا الردهات من الرخام نعلوها بسلم فاخر. وفي قلب الغرفة الوسطى عرش «التنين» المشهور في خرط من الخشب المرصع. والمقاصير الخلفية كلها كانت مسكن الأسرة والحاشية، وهي اليوم معارض بها من النفائس الفنية القديمة ما قدِّر بثلاثين مليون ريال، من بينها أشغال الخرط الممتازة، وتماثيل من أحجار كريمة، وساعات مرصعة، وخرط مطعم من العاج والخشب، وحروف الطباعة القديمة، وآلات موسيقية من بينها «بيان» كأنه «القانون» من أوتار سبعة؛ يرجع عهده إلى ١٥٧٣، ثم مجموعة من أسلحة ودروع وسروج، والمفروشات قيِّمة لدرجة تشهد للصين بالماضي المجيد، وتخلد اسمها في عالم الفن، وبخاصة أعمال الخزف رصعت بالمعادن وازدانت بالجواهر في زخرف وإتقان لا يكاد يصدقه العقل. وهناك قسم للتصوير والنقش على الورق والحرير والخشب، بعضه بالألوان، والبعض بالتطعيم إلى كثير من المخطوطات الصينية القديمة. ومما أدهشني معروضات الشبه (البرنز) التي ترجع إلى سنة ١٧٦٦ق.م، ورغم ذلك فهي تكاد تحكي إتقان عصرنا هذا.

قناطر الصين المحدبة.

وفي جانب من المكان حمَّام لخليلة الإمبراطور Chiang Lung وكانت مسلمة اسمها Hsiang Fei، وهو شبيه بالحمام التركي مقبى السقوف تحوطه مقاصير متداخلة، وكلها من الخزف البراق. وبالإيجاز فالمدينة ساحرة، جذابة الهندسة، جديرة بسكنى الجبابرة الأولين. وفي ركن من أركان المدينة المحرمة قسم كان يسكنه «كوبلاخان» نفسه، ويسمى «المدينة المستديرة». وخير ما هنالك تمثال لبوذا من حجر اليشب ناصع البياض، براق في حفر بديع، وتقاطيع جذابة، ويعد من المخلفات الفنية النادرة حتى قيل إنه وحده يبرر زيارة لبكين من أقصى الأرض.

معبد كنفوشيوس: عظيم الرحاب، وعديد المقاصير التي أقيمت للتعبد وطلب العلم والحكمة يتوسطها الهيكل، وبه لوحة نقش عليها اسم كنفوشيوس؛ أخص معبودات الصين، وتحوطها في جوانبها ألواح أخرى، عليها أسماء البراطرة الذين تعبدوا طوع تعاليمه. وقد أُلفتَ نظري في المدخل تسعة طبول ضخمة من صخر، عليها نقوش صينية منذ أسرة شو (١١٢٢ق.م). وفي فنائه الشاسع بهو الحكمة Hall of Classics بأعمدته الممتدة، وهناك ترى بقايا كتب كنفوشيوس نقشت على ألواح الحجر.

وكنفوشيوس فيلسوف عاش في الصين بين ٥٥٠ و٤٧٨ق.م، كثُرت في عهده الجرائم، وانحطت أخلاق الناس، فقام يبشر بالفضيلة، على أنه لم يدَّعِ أنه مكلَّف بتبشير رسالة إلهية، فجمع تقاليد أجداده وصاغها في قالب أدبي فلسفي. وكان يُعنى بصفة خاصة بالروابط الاجتماعية، ويحتم تقديسها، وكان يقول بأن المجتمع نظام إلهي يقوم على خمس: علاقة الحاكم بالرعية، والزوج بزوجته، والوالد بابنه، والأخ الأكبر بأخيه الأصغر، والصديق بصديقه. وكان يفرض في تعاليمه وجوب الطاعة في غير مناقشة؛ وبخاصة في العلاقات الأربع الأولى، كما يحتم على الحاكم العدل والرحمة والإخلاص. ولم يُشر في تعاليمه إلى إله خاص. وكان ينصح تابعيه أن يترفعوا عن التفكير في عالم الأرواح، وألا يتوقعوا شيئًا في الدار الآخرة. ولقد كان لتعاليمه كثير من الفضل على الصين من ناحية الأخلاق، لكنه قتل فيهم الطموح والنظر إلى المستقبل، وهو أسُّ النهوض، فخلف فيهم مدنية راكدة ظلت أجيالًا، ولم تخطُ إلى الأمام قط. ولا زال أساس التعليم هناك يقوم على وصاياه وكتبه الأدبية الفلسفية، وكان — ولا يزال — يستظهره الجميع حتى الأطفال المبتدئون، على أن عهد الجمهورية الحديث بدأ يُدخل شيئًا من التغيير على هذا النظام العتيق.

قصدت أحد المعابد البوذية، واسمه معبد «اللَّاما»؛ وهو أحد المذاهب البوذية الذي يستمد الوحي من المعبد الرئيسي في هضبة التبت. وكانت قد حلت البلاد منذ أسرة «يوان».

وكان القسس يلبسون الأردية الحمراء، لكن حوَّلها براطرة «المنج» إلى الأردية الصفراء؛ ومن هنا سميت أحيانًا بالديانة الصفراء. أما كلمة لاما فمعناها «سامٍ» في لغة التبت. وأول ما ظهرت الديانة البوذية في القرن الأول الميلادي مُحاوِلةً أن تتمَّ النقص الذي أهمله كنفوشيوس، وبخاصة جانب القيام بالشعائر، وجانب الرجاء في ثواب الآخرة. ولقد اعتنقها كثير من عامة الشعب. وترى معابدها في طول البلاد وعرضها، لكنها مهملة، والقسس فيها جهلة يحتقرهم الأغلبية، وبخاصة الطبقات الممتازة، وما هي في نظرهم إلا الشعوذة بعينها. دخلت المعبد — ويخالونه مقر روح بوذا — فبدت مداخله رائعة ممتدة، وتتوسط فناءه تماثيلُ لحيوانات بشعة غريبة، وفي الوسط تمثال لبوذا نُحت في جذع شجرة واحدة، وعلوه ستون قدمًا. ورأينا كثيرًا من المباخر من الحجر والبرنز، وعجلة التعبد النحاسية التي تدور بانتظام، وتعطي أصواتًا في فترات متساوية يمكن للمتعبدين أن يقرءوا أورادهم وراءها. وصادف أن كنا هناك الساعة السادسة مساءً؛ وهي ساعة الصلاة، فرأينا جموعًا غفيرة من الأطفال والشبان والكهول يخرجون من سرادبيهم وعليهم العباءات الصفراء، وفوق رءوسهم قبعات كأنها عرف الديك، أو منقار الببغاء، ثم أقبل رئيسهم وهم جلوس تحت أقدام بوذا، وأخذ يطوف بهم وبالتمثال ويصيح صيحاتٍ مزعجةً وهم يرددونها وراءه في مشهد رهيب. وأذكر هنا وأنا خارج أن أقبل قسيس يعرض عليَّ قطعة من حرير منقوشة ادَّعى أنها أثرية قديمة، وكان يخفيها بين طيات ثيابه مدعيًا أنه سرقها، ويرجوني الإسراع في البت في شرائها خشية أن يراه أحد، وهو زعيم ديني! فقلت: يا لله! إلى متى يعيش الإنسان في تلك الظلمات؟! طائفة من الدجالين يحتمون تحت ستار الدين، فيعيشون عالة على بسطاء العقول وهم السواد الأعظم من أهل البلاد. وأخص ما يسترعي نظر علماء الاجتماع في غالب عقائد الصين أنها تحتم الطاعة العمياء لرجال الأدب وللمتقدمين في السن، وبخاصة الآباء، حتى عدت أرواحهم مقدسة بعد مماتهم، فكان من سيئات ذلك أن هم كل فرد بالزواج المبكر؛ كي يلد أكبر عدد ممكن من الأبناء الذين يحيون ذكراه، ويوفرون لروحه السعادة بما يقدمونه من قرابين، ومَن لم يستطع القيام بذلك لفقره وجب على المحسنين أن يعينوه بمالهم حتى يستطيع أداء واجبه، ومن لم يعقب اضطر أن يتبنى من ذرية الغير؛ لذلك كثرت ذراريهم إلى درجة جعلت تنازع العيش بينهم ممضًّا؛ ذاك التنازع الذي أدى إلى سياسة الابتزاز الممقوتة التي عُرف بها أهل الصين جميعًا، فكل فرد يحاول ابتزاز المال ممن هو دونه، وكان مجال الرشوة لديهم في كل الأعمال فرضًا لازمًا، حتى ضاعت في سبيلها قوميتهم، وفترت حماستهم الوطنية. هذا إلى اعتقادهم في

العفاريت التي أثَّرت حتى في أبنيتهم، فلا يصح أن يعلو البيت جاره، ولا أن تقام القناطر إلا ملتوية محدبة، وأن تلتوي السقوف في أطرافها إلى السماء؛ كل ذلك دفعًا للجن! ولعل لذلك الخوف أثره في إهمال التعدين؛ خشية إزعاج الجن في بطن الأرض، ويرمي الأجانب أهل الصين بأنهم أسرى موتاهم؛ فالولد يجب عليه أن يعرض التابوت الذي سيدفن فيه والده بعد موته في أفخر ردهة من البيت، ولا يفتأ يزيد فيه نقشًا وترصيعًا، وكثيرًا ما يستدين الولد كي يفي بهذا الواجب المقدس! فإذا مات الأب اشترى له ماء الغسل من الخارج، وارتدى المشيعون القماش الأبيض، واستشير العرافون في تخير ميعاد يلائم الدفن، ولذلك فكثيرًا ما تبقى الجثة في البيت طويلًا! وإن حل بالعائلة سوء عزوه إلى سوء اختيار مكان الدفن وميعاده، وعندئذ يحمل التابوت عشرات من الناس يتقدمهم حشد يحمل كل لوحة نقشت عليها ألقاب المتوفى ومزاياه. ويجب أن يكون مظهر الجنازة فاخرًا مهما كلفهم ذلك، وإلا كان عارًا لا يمحى! ومن أعجب ما لاحظته بين المشيعين: طائفة تحمل طبولًا تقرع بشدة، وآخرون يحملون تماثيل بشعة لنساء ورجال تقرب من النعش؛ لدفع الجن عنه. أما النعش ففي لون أحمر براق تزينه أهداب القصب وترصيع الذهب الثقيل؛ مما أذكرني بعادة أجدادنا الفراعنة.

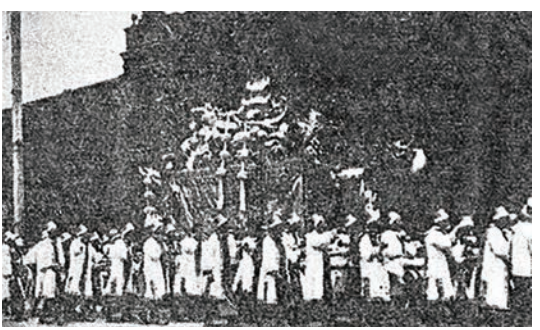

النعش المرصع يسير في حفل كبير.

على أن الصين أبعد الدول عن التدين، والصيني معروف بعدم العصبية الدينية، وهو ضعيف الإيمان والثقة بالآلهة! لذلك يغيرها كل يوم؛ لأنه يراها غير عادلة تنزل العقاب

جزافًا، ولا تستجيب دعاءه! وبلغ من احتقاره إياها أنه إذا تخلف المطر أوقف البخور لها! وقد يضربها بالسياط أو يلقيها في النهر! وكلما حلت نكبة ببلدة ما اتهم آلهتها بالعجز؛ فغيرت! وإن انتصروا في الحرب مجدوا إله الحرب! وأقدس آلهتهم إله الأدب! وقد يخدع الصيني الآلهة، فيقدم لها الورق المفضض والمذهب بدل النقود! وكثيرًا ما كنت أراه منظومًا في حبال تعلق داخل المعابد. حدث مرة أنهم حملوا الآلهة وطافوا الطرق في وقت انتشر فيه الوباء؛ فلما لم يُفد ذلك أغرقوها! وافترضوا أن بدء عامهم كان شؤمًا فيجب تغييره، فأقاموا حفلة بدء السنة من جديد! ويسود أذهانهم التفاؤل والتشاؤم حتى إنهم يحتاطون في الحديث خشية أن تبدو كلمة منفرة تتخذ نذيرًا للشؤم! على أن لدينهم الذي يقدس فلسفة الأجداد فضلًا عليهم مذ ساعد على حفظ كيان الصين، رغم ما أحاطها طوال العصور من عوامل الهدم والانحلال.

معبد السماء: وهو أفخر ما رأيته في بلاد الصين جميعًا، عظيم الرحاب، شاهق البنيان، دقيق الهندسة، تحوطه أسوار ثلاثة من خزف أزرق طول أكبرها ثلاثة أميال ونصف. بني سنة ١٤٢٠ على قسمين: معبد السماء، ويقوم على مساطبَ مدرجة دائرية الشكل ومن الرخام الوضاء، يحوط كل درجة سياج بأسنان باسقة، وفي وسط أعلاها يقوم المعبد من الخشب في شكل برج صيني «باجودا» بديع الخرط والنقش، تكسوه قبة من خزفٍ أزرقَ تقوم على أعمدة شامخة كأنها أعمدة الكرنك، لكنها من خشب مُطعَّم بـ «اللاكيه»، في إتقان عجيب. جيء بها من أشجار «أوريجون» الأمريكية كي تحتمل عبء البناء السامق فوقها. وفي وسطها موضع العرش تحوطه شواخص حجرية لذكرى تسعة من البراطرة. والقسم الثاني يسمى مذبح السماء، وهو كذلك في ثلاث مساطب مستديرة من رخام أبيض قطر أسفلها ٢١٠ قدمًا، والمسطبة العليا مكشوفة للسماء، وكانت تمثل قبة السماء. وهنا كان يركع الإمبراطور ويعترف بأخطاء شعبه، ويرجو آلهة السماء لهم الغفران. وفي وسطها كانت تقدم الذبائح.

وهذا المعبد رائع الجمال، فاخر البنيان، لدرجة تجعل أثره في ذاكرتي خالدًا، وهو وحده خير مبرر لزيارتي للصين، وتحوطه غابة كثيفة من أشجار الأرز يبلغ عمر بعضها ألف سنة.

معبد الزراعة: (على مقربةٍ من معبد السماء) أقيم تذكارًا للملك الخيالي «شن ننج» الذي حكم الصين منذ ٣٠٠٠ سنة، ويخالونه أول مخترع للمحراث. وحوله حقول شاسعة كان يجيء الإمبراطور بنفسه ويبدأ الحرث في أوائل الربيع من كل عام، وكلما أكمل محراثه

على سلم معبد السماء أفخر آثار بكين.

ثلاثة خطوط تبعه ولاة الأقاليم وألقوا فيها البذور، على أن يد الزمان قد نالت منه كثيرًا، فلم تُبْقِ منه اليوم إلا أطلالًا بالية.

وبين معبد السماء ومعبد الزراعة ردهة مترامية كانت — ولا تزال — تستخدم لتنفيذ حكم الإعدام في بكين. ويُعرف الصينيون بالقسوة الشديدة في تنفيذ أحكامهم؛ فالإعدام عادةً يكون بقطع الرأس بالسيف. وكان اللص إلى أمدٍ قريب يدفن حيًّا، أو يحكم عليه أن يموت بالمخنق الخشبي؛ وهو آلة بها موضع للرقبة يوضع في رقبة المجرم، ومن تحته ألواح سميكة من خشبٍ أو حجر، يرفع منها واحد كل يوم فيعلق الجسد من الرقبة ويشحذها، فتستطيل بقدر سمك اللوح الذي رفع، وهكذا حتى يموت. وكثيرًا ما كانت تؤخذ العائلة كلها بجريرة فردٍ منها إلى سنة ١٩١١. وكان يحكم على بعض المجرمين بثلاثة آلاف جلدة.

ومن العجيب أن كل تلك القسوة لم تنتج أثرًا في تخفيف الجرائم. ومن أقسى العقوبات بعد الإعدام: النفي؛ ذلك الذي يخشاه الجميع خوف الموت خارج بلادهم.

محكمة صينية ويقف الجلادون إلى جانب المتهم تهديدًا وإرهابًا.

ومما كان يروقني كثيرًا مشهد الأحياء الوطنية من المدينة الصينية في أزقة مختنقة، وطرق مترية غير مرصوفة يجوبها خلقٌ كثير صفر الوجوه، شاحبو الألوان، منتفخو العيون، مشطورو الرءوس. وتطل على تلك الطرق حوانيتهم، وعليها إعلاناتها في شرائحَ من خشب أو ورق أو قماش تتدلى مستطيلة حتى تكاد تسد الطريق. ولهم أضواؤهم الخاطفة في الليل. ويزينون واجهات الحوانيت بشبه أقواس كبيرة مذهبة في الخرط الصيني الجذاب، والخط الذي يبدو وكأنه بقع ضخمة ذوات أهداب براقة، وأنت ترى أقواس الطريق تقوم مشرفة من خشبٍ صقيل في جميع طرقهم حتى الرئيسية. أما وسائل النقل فغالبها عربات ذوات عجلةٍ واحدة في الوسط، وقد تكون ذوات عجلتين يجرها في جهدٍ كبير نفرٌ من الناس متكاتفين والعَرق يتصبب من جسومهم العارية بشكلٍ يؤلم الفؤاد، ويسمونهم «كولي»، ومعناها القوة التعسة. ولكيلا يعطلوا المرور وسط الطريق — خصوصًا الركشا التي يجرها الإنسان أيضًا — جُعلت لهم منطقة على إطار الطريق غزيرة الأتربة يسيرون فيها، وعجلاتهم تغوص بعيدًا. هذا إلى الحمالين الذين تراهم يعلقون حِمْلين على طرفي عصًا من الخيزران العريض فوق أكتافهم. وكنت أعجب لكواهلهم كيف تطيق تلك الأثقال التي تحزُّ في جلودهم حتى تدمَى! مناظر لا يخلو منها مكانٌ في الصين كلها، وكأنَّ مزاحمة

الإنسان لوسائل النقل الآلية التي كنا نراها في الممالك الأخرى قد كادتْ أن تخفيها، ومظاهر الفاقة الشديدة بادية في كل شيء، فلا يخلو طريق قط من جماهير المتسولين. وعجبت لما أن علمت أن التسول هناك مهنة يمارسونها تحت نظام مرتبط كأنه النقابات! وعلى رأس كل جماعة رجلٌ شرس قوي الشكيمة يئُول إليه كل ما يجمعه أولئك البائسون. والناس هناك يتصدقون على المتسولين مُرغمين؛ خشية أن يُلحِق بهم رئيسُهم ضررًا في المال أو البنين، أو يسلط عليهم رجاله لمضايقتهم بالتجمهر أمام بيوتهم! فكثيرًا ما يدبرون الخطط لسرقة متاع الغير، أو لإشعال النار فيه، وطالما فقأ الآباء عيون أبنائهم فتأخذ المارَّة الرأفة بهم ويتصدقون عليهم!

أحد عِلْيَة الصين يركب «الركشا».

ولقد أحدث انتشار الفقر والعوز في طول البلاد وعرضها أسوأ الأثر في أخلاق الناس فأفسدها، وأنت تلمس انحلالها في كل مقام، فلا أذكر أني ركبت «ركشا» مرةً دون أن يباغتني سائقها قائلًا: أتريد بعض الغانيات من فتيات المانشو ذائعات الصيت جمالًا؟! إلى ذلك جماهير السيدات اللاتي كن يمسكن بتلابيبنا طوال الطريق إلى درجة المضايقة الشديدة، ومنهن من لم يبلغن الحُلم! وكأن الأجانب هناك بأخلاقهم الفاسدة قد جرَّءوهم على ذلك الابتذال. وطالما كنت أعجب للصغار من الفتيات يسرعن إلي طلبًا للمعونة المالية وهن في هندامٍ نظيف لا يُشعر بالفقر أبدًا. كذلك كنت ألاحظ أنهم يميلون إلى الغش في كل شيء حتى في صرف النقود؛ إذ كانوا يدسون لي بينها ما هو زائف بكثرةٍ عجيبة! وقد

تعدى هذا إلى حكامهم وضباطهم وجنودهم، فعرفوا بالارتشاء إلى حدٍّ باعوا معه ذممهم وذمم وطنهم! وهذا ميدان شجعه الأجانب بمالهم ليُثبِّتوا أقدامهم في تلك البلاد.

ومن المناظر التي كنت أتألم لها طوال الطريقِ السيداتُ اللواتي كنَّ يَسِرنَ في تثاقلٍ وئيد، والواحدة تكاد تترنح ولا يتزن جسمها فوق قدميها اللتين لا تزيدان على سبابة اليد طولًا، وقد انحبس نموهما ونمو عظامهما، فكان يخيل إلي أنهن يسرن فوق عِصِيٍّ خشبية دقيقة جامدة، وكأنَّ ذلك قد أثر على الساق نفسها فدقت من أسفلها ونحفت إلى حدٍّ مخيف. ويا ويلها إن حاولت الجري! فإنها تتعثر بشكلٍ بشع، والألم يبدو على وجهها، ويكاد يكون نصف نساء البلاد من هذا النوع. والأقدام الصغيرة كانت آية الجمال لديهم! وكان يحتم الزوج أن يرى قبل الزواج حذاء خطيبته؛ فإن ظهر بعد الزواج أن قدم العروس كانت أكبر من الحذاء الذي أخذه رهينة جاز له الطلاق! لذلك كانت الأمهات يبالغن في تشويه أقدام بناتهن وهن صغار، فكانت تغسل الأقدام بالماء الساخن، ثم تلف حولها أشرطة من الكتان لفائف متعددة محكمة، وفي كل ليلة تعيد الأم هذه العملية لمدة ثمانية عشر شهرًا، والبنت تتأوه في ألمٍ شديد، والأم تسترضيها بالهدايا، وتُمنِّيها بزوجٍ قريب! ولقد حرمت حكومة الجمهورية ذلك اليوم، وفرضت عليه عقوبات قاسية، على أن ضعف سلطان الحكومة اليوم وعدم استقرارها شجع كثيرًا من الأمهات أن يثابرن على تلك العادة القبيحة. ولا يزال الشبان يؤثرون في السيدات الأقدام الصغيرة، كما ثبت لي من محادثة كثيرٍ منهم!

زرت في ناحيةٍ من بكين قصر الشتاء: بحدائقه الفيحاء، وبحيراته الممتدة المتلوية تكاد تغص بنبات الماء، وبخاصة البشنين في زهره الكبير هادئ الحمرة أو ناصع البياض، وعليها من القناطر المحدبة البيضاء شيء كثير بناه ملوك المنج والمانشو في هندسةٍ صينية فاخرة. ولعل أعجب ما به برجه السامق في شكلٍ فريد في نوعه يطلق عليه القوم «برج داجوبا الأبيض»، به خمسة طوابق تمثل العناصر الخمسة في زعمهم. وإلى جوار القصر ربوة تسمى تل الفحم تعلو ٢١٠ قدمًا في شكل مخروطي يحفه الشجر، وفوق الذروة مقصورة في شبه «باجودا» صينية؛ تُتخذ اليوم مقهًى جلست فيه قليلًا، فبدت بكين كلها وكأنها غابة كثيفة مغلقة لا يكاد يستبين المرء خلالها أسوارًا ولا أبنية، اللهم إلا سقوف المدينة المحرمة في لونها الأصفر البراق، وكلما نزلت مررت بمقاصير أخرى. وتروي أقاصيصهم أن التل أقيم من الفحم الخالص إبان حكم أسرة «يوان»؛ اتقاء خطر الحصار. ويظن البعض أنه من الثرى الذي أخرج من بحيرات قصور كوبلاخان القريبة منه.

قصدت بعد ذلك مرصد كوبلاخان؛ أقدم مراصد الدنيا: أقامه كوبلاخان سنة ١٢٧٩، ويحتوي على مجموعة من الأجهزة الفلكية القديمة في أشكالٍ عجيبة وحجومٍ هائلة، صيغت

سيدة صينية تفاخر بجمال أقدامها ولا تكاد تتزن فوقها.

من شبه ونحاس في دقةٍ هندسيةٍ بالغة. ومن أجملها المزولة الشمسية والقمرية، وآلة السدس، والكرة السماوية، وتبدو النجوم بها في بقعٍ بارزة من المعدن الأصفر، وتُحمل تلك السماء على مجموعة من «التنين»؛ شعار الصين الرئيسي. وقد احتذاه فردريك الأكبر فشاد أول مرصدٍ في أوروبا على نمطه؛ وضع له أجهزته بعض رهبان الجزويت نقلًا عن مرصد الصين. وكانت طائفة من أجهزة هذا المرصد قد وقعت غنيمة في أيدي الألمان إبان حرب المصارعين، لكنهم أعادوها اليوم. والمرصد يقوم على ركنٍ من سور المدينة الهائل الذي اعتليته بين بوابتي «شن من»؛ مدخل المدينة الرئيسي، «وهاتامن». والسور من أعلاه كأنه

مبلغ تشويه أقدام السيدات في الصين.

على حافة بعض متنزهات بكين وتبدو القنطرة المحدبة على بعد.

الجسر العظيم الممهد تزين جوانبه النوافذ الجميلة. وكان ارتفاعه يعادل الطابق الثالث من البيوت الأفرنجية بجواره، واتساعه من أعلاه يعادل شارعًا فسيحًا، وتنمو فوقه الأشجار فيسير المرء وكأنه وسط الحدائق المعلقة. لبثت أتجول فوقه ساعتين والمناظر من حولي رائعة، والذكريات التاريخية لتلك البلاد العتيدة تمر بالخاطر فيُكبر تلك العظمة، ثم لا يلبث أن يأسف لزوالها، وبخاصة إذا رأى كثيرًا من أركان السور قد احتله أجناد الأمريكان والإنجليز واليابانيين والفرنسيين. ويطل هذا القسم من السور على الحي الأوروبي الذي تقوم فيه دور السفارات.

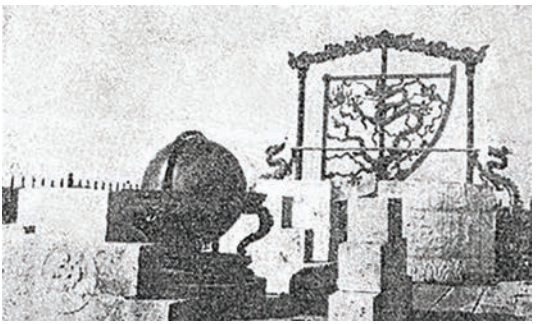

بعض الأجهزة الفلكية في مرصد كوبلاخان أقدم مراصد الدنيا (بكين).

«شن من» أفخر بوابات سور بكين وأمامها أسراب «الركشا».

وخير متنزهات بكين المتنزه الأوسط؛ تؤمُّه الطبقات الممتازة؛ تشرف على جداوله ونقائعه مقاصير المقاهي المنسقة وتصل ما بينها مماشي ضيقة منسقة سقوفها بديعة الهندسة. وهو المتنزه الوحيد الجدير بالذكر في بكين التي تعوزها المتنزهات، وإلى جواره معبد الجرس؛ به أكبر أجراس الدنيا؛ محيطه ٣٤ قدمًا، وله قصة عجيبة: إن الإمبراطور

هكذا تمتد طرقهم الخشبية في أرجاء حدائقهم.

يونج لو لما رغب في صنعه لم يعجبه رنينه، فاستشار العرافين، فأشاروا عليه بضرورة صهره ثانيةً وإحراق غادة عذراء تحته! فهدد الإمبراطور صانعه بالقتل إن هو لم ينجز هذا. وكانت له بنت ضحَّت نفسها لإنقاذ والدها! ولا يزال أهل بكين يسمعون خلال صليله أنات العذراء كلما دقَّ هذا الجرس!

وفي ناحيةٍ أخرى من المدينة، زرت برج الطبلة الذي شيد سنة ١٢٧٢، وهو تام الحفظ في رونقٍ جميل، وبنيانٍ شامخ، يبدو كأنه «الباجودا» الهائلة، وفي قمته ثلاثة طبول كانت تدق كل يومٍ الساعة التاسعة مساءً ١٠٨ دقات؛ إيذانًا بساعة الراحة، وهي على ارتفاع ١٠٣ قدمًا. ومنظر المدينة من أعلاها وقت الأصيل رائع ساحر.

قصر الصيف: أقلتنا إليه سيارة، وهو يقع على بحيرة فسيحة في سفح التل الغربي، وكانت تتخذه أرملة الإمبراطور مصطافًا لها؛ هروبًا من حرِّ بكين اللافح. وقد غالى القوم في

أمام مقصورة الملكة في قصر الصيف (بكين).

الإسراف في تنسيقه بين حدائقَ وقناطرَ ومقاصيرَ؛ بعضها فوق الربى، والبعض في الوهاد على حجور النقائع، التي تكاد تغص بنبات الماء والبشنين يتجلى بزهره الخلاب. هذا إلى المماشي التي تمتد أميالًا تحت سقوف من الخزف الصيني البديع. أما القناطر فغالبها من رخامٍ ناصع في شكلها الأحدب العجيب. وفي ناحية من القصر زورقٌ من رخام ذو طابقين، يقوم على عمد في الماء، فيخل إليك وأنت به أنك في سابحة تمخر عباب اليم وسط الزهور البديعة. والحديقة على تنسيقها الرائع تمتد أميالًا، ويتطلب تفقدها أيامًا. وخلف القصر ترى فوق الجبل مجموعة من معابد أفخرها معبد الخمسة آلاف بوذا في أشباحها الرهيبة. وقد أخذنا نتجول بالسيارة خلال آثار تلك التلال، ومن بينها نبعُ اليشب الذي كان يسقي المدينة التتارية وقصورها وحدائقها وحوله ثلاثة أبراج «باجودا»: واحدة من «اليشب»، والثانية من الخزف، والثالثة من الصخر، وكلها تتوج ذرى جبلية. وكانت الغابات حولها تغص بالوحوش، وبخاصة الأنمار؛ لذلك كان يتخذها البراطرة مصادًا لهم ومستراضًا. وفي جانب من التلال: معبد بوذا النائم؛ يرجع عهده إلى أسرة «شانج»، وطوله خمسون قدمًا في أرديته الرهيبة وأقدامه العارية. وهنا كنت أرى الحجاج يقدمون القرابين، وبخاصة الأحذية الكبيرة التي يزيد طولها على نصف متر، والتي تصفُّ تحت أقدام الإله؛ بعضها من حرير، والبعض من جلد أو خوص. وفي زاوية من المعبد تمثال لـ «ماركو بولو»؛ الرحالة الأوروبي. وعلى مسيرة ساعة من هذا معبد السماء الزرقاء يعلو في عدد لا يحصى من الدرجات، فيتوج ذروة الجبل في رخامه الوضاء. وأجمل ما به ردهة الألف بوذا.

سفينة من الرخام في بحيرة قصر الصيف (بكين).

تمثال بوذا النائم في ضواحي بكين.

وبعد ثماني ساعات، عُدنا إلى بكين وسط حقول زراعية كأنها حقول مصر، والقرى منثورة في كل مكان تعوزها النظافة. أما الطرق فرديئة ومتربة، والسير فيها متعب للغاية، خصوصًا وقد أمطرتنا السماء وابلًا كساها أوحالًا يتعذر معها السير. أما الجو فحار مجهد إلى حد كبير، بحيث لا يستطيع الإنسان الانتقال إلا راكبًا. وقد كنت أكتب مذكراتي هذه الساعة السابعة مساءً وأنا لا أكاد أطيق قميصًا رقيقًا يلامس الجسد. والأمطار هنا متقطعة، وأقل منها في كوريا وفي اليابان.

يتلوى سور الصين الأعظم بين رُبى منغوليا المجدبة في كامل روعته.

السور الأعظم (سد يأجوج ومأجوج): لقد تحقق حلم كنت أتمناه طوال السنين؛ هو أن تتاح لي الفرصة لزيارة سور الصين؛ أحد عجائب الدنيا، وكاد يغلب اليأس الرجاء منه لما أن رفضتْ جميع شركات السياحة هناك القيام بأية رحلة إليه؛ لأن طريقه أضحى غير مأمون، وكانوا ينصحون إليَّ ألا أذهب؛ خشية اللصوص الذين اختطفوا سيارة بمن فيها من الأمريكان، ولم يمضِ على الحادث أسبوعان. لبثت حائرًا ثم اعتزمت الذهاب مهما كلفني ذلك، وقد وُفِّقت إلى زميل ألماني في النزل هو مدرس بمدرسة «خربين» حدثته عن السور فرغب في زيارته. ركبنا قطار الضواحي الصغير زهاء ثلاث ساعات. وبعد أن اجتزنا محطة نانكاو الهامة، أخذ القطار يعلو في جبال معقدة تكسوها الخضرة، واخترق بعض الأنفاق حتى باغتنا السور وكأنه إفريز يطوق الجبال ويتبعها علوًّا وانخفاضًا إلى الآفاق. حللنا محطة السور الأعظم، وهناك أقلتنا الحمير وسارت بنا في وادٍ كأنه وادي الملوك؛ صخوره نارية، وحره قائظ، أدَّى بنا إلى السور فاعتليناه، فبدت روعته في تغضُّنه وامتداده إلى الآفاق وهو يتلوى كالأفعى. وقد لبثت أسير فوقه ساعتين والذكريات التاريخية المجيدة تمر بالخاطر؛ فتُكبر القوم تارةً، وتحطُّ من قدرهم أخرى؛ إذ كان يتجلى جبروت الإنسان وبطشه بأخيه الإنسان، وتسخيره فيما لا ينفع. وقد قرر الخبيرون أن السور أضخم عمل أنجزته يد الإنسان يفوق الهرم وحدائق بابل المعلقة، وهو يطوق الصين من الشمال مبتدئًا من البحر — عند شاي هاي كواي على خليج لياو تونج — إلى ممر كيايو في التبت، وطوله في استقامة ١٢٥٥ ميلًا، وبتعرجاته وشعابه ١٥٠٠، وعلوه يتراوح بين ١٥ و٣٠ قدمًا، وعرضه في أعلاه ١٥، وفي أسفله ٢٥، به ٢٥ ألف برج حربي، و١٥ ألف

برج للحراسة، وكأن الصين قد اختصت في بناء الأسوار حتى قال بعضهم: إننا لو جمعنا أسوارهم كلها لطوقنا الكرة الأرضية! أمر بإقامته الإمبراطور «شي هوانج تي»؛ الذي اعتلى الملك سنة ٢٢١ق.م، ومحا نظام الإقطاع، وقسَّم البلاد إلى مديريات، وكان كلفًا بالمباني الضخمة؛ من بينها قصره الذي وسعت ردهته عشرة آلاف نفس. رأى هذا العاهل منامًا أنذره أن الخطر مقبل من الشمال — وقد أيَّد التاريخ ذلك؛ فإن كل ما قاسته الصين من المغيرين جاء من تلك الناحية — فأرغم من الناس ثلث الرجال القادرين في الصين كلها، وكثيرًا ما عاقب العلماء وألزمهم بالعمل في السور؛ لأنهم ناوَءُوه، وقيل: إنه أحرق كتب العلم وفلسفة كنفوشيوس؛ لَمَّا أن رأى الناس يجلونها ويكبرون العلماء أكثر من إكبارهم للبراطرة. ويطلق القوم على السور أحيانًا اسم «أطول مقابر الدنيا»؛ لكثرة من ماتوا في بنائه. ولم يتم بناء السور إلا في عهد ليو بانج؛ من أسرة هان. وفي عهد أسرة منج، دُعم السور وزيد في طوابيه. ولعظيم هذا العمل أحاطه الناس في جميع العصور بخرافات لا تزال عالقة بالأذهان؛ منها أن الإمبراطور كان ساحرًا ماهرًا، وكان يمتطي جوادًا سماويًّا اختط طريقه، وكان له سوط سحري استطاع به أن يزيل الجبال، وينظم صرف مياه الهوانج هو، وكان يستخدم مردة الجن في جلب الأحجار. ويخال البعض أن كنوز البراطرة دُفنت بين طيَّاته. والكثير يعتقد أن السور أقيم سدًّا في وجه الجن لا الآدميين! ويؤيدون ذلك بكثرة المعبودات البشعة التي توضع على منافذ السور كلها! ومما أثار دهشتي أن السور يختط أوعر المسالك؛ إذ يسلك الجبال والربى العاتية. وهذا يتطلب مجهود الجبابرة، وقال البعض: إن الأبراج كانت تقام أولًا ثم يوصل ما بينها. وعند ممر نانكاو الذي وقفنا قبالته، كان يعلو السور فوق مستوى البحر بنحو أربعة آلاف قدم. وفي البقاع التي كانت تتهدده الرمال أقاموا سلسلة من أسوار خارج بعضها؛ فهو في امتداده هذا غالب ثلاث صعوبات: الجبال الشاهقة، والصحاري الرملية المجدبة، وطبقات الأرض الهشة (اللويس). والعجيب أني لما زرتُ مقبرة هذا الإمبراطور في مدافن أسرة منج، رأيت الناس يقذفونها بالحجارة؛ فخلتهم يذكرونه بانتصاره على الصخور التي أقام بها سوره العظيم، على أني علمت أنهم يأتون ذلك حطًّا من شأنه، واحتقارًا له؛ إذ امتهن تقاليد أجداده، وأهان العلم وأهله، حتى إنهم لم يلقبوه ببناني «السد»؛ بل بمبيد الكتب العلمية! ويذهل المرء كيف استطاع الإمبراطور أن يزود السور بالجنود لحراسته على طول امتداده. ومن العجيب أنه لم يغنِ عنهم في الدفاع فتيلًا؛ إذ اخترقه جنكيز خان سنة ١٢١٢، وكذلك لم يردَّ غارات المانشو بعد ذلك. ولا يعزو القوم ذلك إلى ضعف في السور نفسه؛ بل إلى خمود الروح العسكرية بين

أفراد شعوب الصين الزراعية، على أني لَمَّا ألقيت على السور نظرة الوداع مرَّ بخاطري مظهر الهرم الأكبر، فبدا السور بجانبه ضئيلًا لم يشعرني بالرهبة والذهول التي يوحيها هرمنا.

تبدو صحاري منغوليا مترامية وراء السد، وتلك أزياء النساء هناك.

قمتُ من بكين مودعًا تلك البلدة التاريخية الجميلة التي يروقني أن أقيم بها سنوات؛ فهي أصدق ما تعطي الزائر فكرة عن الصين وأهلها. وقد سلكت سبيلي إلى تين تسن، فشنغهاي، وكنت من قبل أعتزم الذهاب إلى هنكاو، ومنها في رحلة نهرية في اليانج تسي إلى شنغهاي، لكن هذا النهر الجبار غدر بالمدينة فأغرقها، وأغار على سكة الحديد فتعطلت. سار القطار خلال أراضي «اللويس» الصفراء ذائعة الخصب؛ تلك التي كانت تبدو في بعض الجهات وكأنها رمال الصحراء تمامًا. ولقد تخلفت في تين تسن يومًا كاملًا فلم ترقني كثيرًا؛ لأنها مدينة غالبها أفرنجي عظيم الامتداد، آهل بالجماهير الغفيرة من صنوف شتى، وهي ثغر تجاري غاصٌّ الحركة، دائب الجلبة والضوضاء.

وقد وقف القطار طويلًا على تسنان فو فوق نهر الهوانج هو «الأصفر» زاخر المياه، عكر اللون، في تدفق مخيف؛ ذاك الذي عرفه القوم مبعث أشجان الصين منذ القدم؛ لكثرة

فوق سور الصين الأعظم (سد يأجوج ومأجوج).

ما أصابهم وأتلف من أبنائهم ومتاعهم بسبب فيضانه الغامر المباغت، على أن فيضه هذا العام كان أقل خطرًا من اليانج تسي.

وهنا باغتنا ريح صرصر كأنه إعصار «التيفون» هز أرجاء القطار، وسرعان ما أظلم الجو وتفتحت أبواب السماء عن وابل غامر، وقصف للرعد مخيف، ولم تنكشف إلا بعد ساعتين. وكنت أرى المزارعين في الحقول يسيرون وسطها وعلى رءوسهم مخاريط من خوص، وعلى جسومهم رداء من قش منفوش يبدو كأنه الفرو الثقيل، فيظهر الواحد وكأنه من مردة القنافذ المنفرة المضحكة. ضمتني مائدة العشاء إلى جمع من الشباب الصيني المثقف، وكان يقدم لهم الطعام على النظام الصيني، وعجبت لما علمت منهم أن من أحب الأغذية لديهم زعانف السمك وأحشاءه، ولحم الكلاب والفيران والضفادع والثعابين وأوكار طير الخطاف؛ لأنها من مجموعة أعشاب مائية تروقهم كثيرًا! وأجل اللحوم لحم الخنزير!

تعترض تلك البوابات غالب الطرق في تين تسن.

فإذا سمعته يتحدث عن اللحم انصرف إليه، ويعجبهم دهنه الثقيل! وقد يشرب الرجل منه ثلاث «سلاطين»! وعند الطعام تقطع هذه اللحوم كلها مختلطة إلى شظايا صغيرة جدًّا وتمزج بالحساء! وترى الواحد منهم يتصيدها من الإناء بعصيه! وقد يمزج الحساء ببعض الأعشاب والخضر الجافة في غير طهي جيد. والعناية بالضيف تبدو في الإكثار له من الدهن الطافي فوق الغذاء والحساء. ويجب أن يناوله المضيف كل ما يطلب بيديه الاثنتين، وإلا عد ذلك من قلة الذوق، كذلك يناوله بين حين وآخر ما يتصيده من إنائه هو من شظايا اللحم. وطعام الغني يطلب أن يكون من الأرز والخضر والخنزير والسمك. أما الفقير فالأرز القفار، وإن لم يتيسر له فالقمح أو الشعير أو الذرة أو بعض الخضر، ويندر وجود اللحم؛ لذلك يأكلون لحوم الحيوان الملقاة مهما كان الحيوان! وأساس غذاء العمالِ و«الكولي» نوعٌ من الفول مُغذٍّ كاللحم، ويختتم الطعام بالحساء — عكسه عندنا.

أما أحب أنواع الحلوى فالكريز يطفو في عصير القصب، والتسلي بنوى المشمش و«اللب» شائع بين الجميع. أما الأواني فكلها من «السلاطين»، وليس للسماط ولا «الفوط» وجود قط. وفي نهاية الطعام، تقدم فوطة مبللة يمسح الجميع بها أفواههم. وعجيب أن

يشتهر طهاة الصين بلذة ما يطبخون، على أنه لم يرقني من طعامهم شيء سوى ذاك الخليط من اللحوم المختلفة! ولعل تلك الشهرة راجعة إلى أنهم يكثرون من استخدام التوابل والمواد الحريفة بالنسبة لطهاة اليابان.

أطفال الصين يتناولون الأرز ونثير اللحم بالعصي في مهارة فائقة.

تحدثت إلى هؤلاء الشبان فكانت حماستهم القومية بالغة يصبون جام غضبهم على الأجانب، وبخاصة اليابانيين؛ فهم الذين يفرقون بين أبناء الأمة الصينية، ويثيرون فريقًا على فريق، ويمعنون في إتلاف أخلاق الصينيين بالمال والنساء. ويساعدهم على ذلك احتلالهم لمنطقة سكة حديد منشوريا؛ تلك التي يهربون منها الذخائر والأسلحة للثائرين من أهل الصين، على أن الحكومة الصينية الوطنية تقبض على الحالة، وستُوفَّق قريبًا إلى القضاء على تلك العصابات الثائرة التي تجري وراء المنفعة الذاتية. وهم مختلفون في طريقة توحيد الصين؛ فالبعض يرى إقامة مجموعة من حكومات مؤتلفة تكون ولايات لها ما للولايات المتحدة الأمريكية من السلطان، والبعض يرى توحيد الصين كلها في جمهورية واحدة؛ لأن في هذه الطريقة الآن خطر ميل رؤساء المقاطعات إلى الاستقلال والدس للغير. ومن عقبات قيام حكومة واحدة اختلاف اللغات بين مقاطعة وأخرى، تلك التي كان يساعدها رؤساء المقاطعات؛ كي يتم لهم استقلالهم، ولو تم النصر للحكومة القومية أنقذت البلاد من شفا الإفلاس؛ لأن مرافقها اليوم معطلة. وكانت قد بدأت حركة صناعية بمعاونة الأجانب، وبخاصة الأمريكيين، لكنها عطلت اليوم؛ لأن هَمَّ الحكومة منصرف إلى التجنيد وتموين

الجيوش التي تؤلَّف من بين الطبقات الفقيرة؛ وهذه تتخذ الجندية مرتزقًا، والحكومة لم تؤت بعد السلطان الكافي فتجعل التجنيد إجباريًّا؛ لذلك لا يتطوع أحد من السراة، بل من الفقراء المعوزين.

اللغة الصينية: ويرى مثقفو الصين أن لغتهم غنية بآدابها؛ فميدان الشعر زاخر، والإيجاز في التعبير إلى التعمق في المعنى من خصائص لغتهم. وكنت أرى بعضهم يقرأ في كتب الأدب وهو مأخوذ من شدة تأثره بالمعاني التي يتلوها، ويبالغ بعضهم فيقول: إن لهم كتبًا تقرأ في الصيف، وأخرى في الشتاء، فتحدث معانيها في نفوسهم ما تتطلبه مناسبات الزمن! والتأدب في الكتابة أمر يراعى بكل دقة؛ فمثلًا تبدأ الكتابة هناك من اليمين في أسطر رأسية — أما اليابانية فمن اليسار، وقد تكتب أفقيًّا أو رأسيًّا — وإذا كان الخطاب للأبوين وجب كتابة الاسم في أعلى الصفحة إلى اليمين، ثم يترك هذا السطر كله احترامًا، وكلما ذكر اسم الأب أو خطابه في أي مكان من سطر آخر ترك باقيه إجلالًا. وهذا يجب اتباعه في الكتابة لمن هم أكبر سنًّا ومقامًا. أما بين الأصدقاء فيكفي ترك مسافة كلما ورد الاسم، والهوامش تكتب في أعلى الصفحات، والتأدب في الخطاب يراعى بكل دقة، خصوصًا مع من هو أكبر سنًّا ومقامًا؛ فمثلًا يعدونه منتهى الذوق أن يجري الحديث بين اثنين كما يلي:

– كم سنك المشرَّفة؟

– عشرون عامًا ممضَّة لا خير فيها.

– ما اسم عائلتك الموقرة؟

– عائلتي الفقيرة تُسمى …

– ما مهنتك النبيلة؟

– مهنتي الوضيعة …

– كم طفلًا ماجدًا عبقريًّا عندك؟

– عندي كذا من صغار الحشرات.

– كم قطعة فضية عندك — يقصد البنات؟

– ثلاث بائسات.

ولغتهم الكتابية رسوم رمزية بسيطة كأن يرسم تخطيط يحكي الإنسان ليدل على كلمة رجل، ويرسم طائر ليدل على «عصفور» وهكذا، ثم أخذوا في تبسيطها لكي تلائم الكتابة «بالفرشة» التي تجيد رسم الخطوط أكثر من الأقواس والنقوش؛ لذلك أصبحت

اليوم سهلة بالنسبة لما كانت عليه من قبل. وللكتابة هناك شكلان: عادي دارج تتصل كلماته بلياب متعاقبة، وزخرفي يكتب بتكلُّف وفي رونق جميل. ولغة الكتابة يفهمها جميع أهل الصين، لكن منطقها يختلف باختلاف الأماكن، بحيث إذا خاطب صيني من كانتون أخاه من شنغهاي أو من بكين لم يفهم الواحد الآخر؛ لذلك يلجئون إلى الكتابة. وفي مجلسي هذا كان أحدهم من كانتون وكان يعرف الإنجليزية، وآخر من شنغهاي ويتكلم الفرنسية، وتعجب إذ تعلم أنني أنا المصري الأجنبي عنهما كنت أقوم بوظيفة المترجم بينهما! على أن العجب يزول إذا علمنا أن الصين بلاد مترامية؛ فكل مقاطعة تفوق مملكة أوروبية في مساحتها وسكانها، إلى ذلك صعوبة وسائل الاتصال في تلك البلاد.

والحكومة الحالية تحاول توحيد لغة الكلام، وقد أخذت تنشر لغة «الماندرين» في المدارس والمصالح، فهي اللغة الرسمية اليوم — وكلمة ماندرين معناها الوالي أو الحاكم — وهي أسهل اللغات الصينية مأخذًا؛ فالشخص يكتب ما يسمع بالضبط.

أما في سائر لغات الصين، فإنك تجد لغة الكلام ممطوطة؛ لذلك وجب أن تلجأ في الكتابة إلى التلخيص والإيجاز لأقصى حدٍّ ممكن؛ وتلك مهمة لا يطيقها إلا المتعلم الكفء. وقد وضعت الدولة لتلك اللغة حروفًا أبجدية عددها ٤٢ يمكن تركيب الكلمات منها. وأعجب ما في تلك اللغة أن حروفها وضعت لتوحد النطق؛ أعني أنها جمعت كل مقاطع النطق الصيني ووحدتها في نغمة واحدة لا تحمل معنًى عند الكثير منهم؛ لأن الرموز الكتابية يفهمها الجميع، والصعوبة في اختلاف النطق؛ لذلك كثيرًا ما ترى سطرًا من الحروف الجديدة يُكتب وإلى جانبه آخر من الرموز الصينية. ومعنى هذا أن القارئ ينطق بما تدله الحروف الجديدة «الماندرين»، ويفهم المعنى من السطر الآخر، ويخالون أن بعد مضي وقت معين سيعتاد الناس نطقًا واحدًا فتتوحد لغة الكلام. وفي الحق أن سائر لغات الصين الأخرى معقدة مُجهدة للمتعلم، الذي يجب عليه أن يحفظ من رموزها نحو أربعة آلاف كي يستطيع القراءة والكتابة. ويزيدها صعوبة أن الكلمة الواحدة قد تُكتب على عدة أشكال لتؤدي معاني مختلفة؛ فمثلًا تشي Chi تكتب على ١٣٥ شكلًا لكل واحد معنًى مختلف — من معانيها: الفرخ، ادفع، تذكر، عديم البصر — وهي لغة المقاطع حقًّا؛ لأن كل كلمة مقطع واحد. حدث أني طلبت إلى أحدهم أن يكتب لي اسمي بالصينية، فتريث طويلًا وقطع اسمي إلى «سا بي» في مقطعين، ثم كتب الرمزين.

وحساب الشهور لديهم قمري، ولو أن الحكومة الحديثة أدخلت الحساب الشمسي، لكن الفلاحين لا يعرفون إلا السنة القمرية، وليس للشهور عندهم أسماء، بل يحصونها

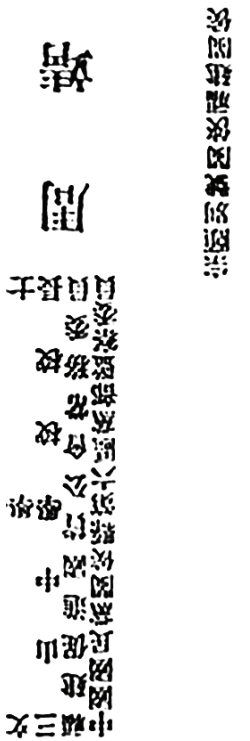

مثل من الكتابة الصينية المعقدة وهذه بطاقة تقرأ من أعلى لأسفل.

بالنِّمَرِ — الشهر الأول والثاني ... إلخ — وفي الأساليب الكتابية الراقية يضعون اسم زهرة لتدل على الشهر؛ تقويم زهري، وتلك الزهور يكاد يحفظها الجميع بحيث لو كُتبت إحداها عرف الواحد منهم الشهر الذي ترمي إليه. أما تاريخ السنة فيقاس بالنسبة للحكام؛ كأن يقال مثلًا: اليوم السادس من الشهر الخامس من السنة العاشرة للإمبراطور فلان. وهذا العام يقاس بالسنة العشرين للجمهورية، وتحسب أعمارهم بالطريقة عينها.

كنا نتوقع أن نصل «بوكاو» على الضفة الشمالية ليانج تسي منتصف التاسعة، لكنا وصلناها بعد الساعة الواحدة لكثرة مواقف الطريق بسبب نقل الذخائر والجنود، وبذلك نكون قد قطعنا المسافة بين تين تسن وشنغهاي في خمسين ساعة! أما الإقليم فغني جدًّا

بمزارعه وسهوله وأنهاره. وكنت ألاحظ تغيرًا مستمرًّا في لون التربة التي أصبحت هنا سمراء تشوبها حمرة، بعد أن كانت في حوض الهوانج هو صفراء كأنها رمال الصحراء المجدبة، على ما بها من خصب شديد. وكان المنظر كله مصريًّا. أما غالب القرى فأكواخ من اللَّبِن أهلها قذرون تبدو عليهم علائم الفاقة، وغالب الأراضي ملك لطائفة من الأغنياء يحلُّون المدن الكبرى. وكان القوم في قذارتهم يعرضون المأكولات من فاكهة، وبخاصة الخوخ الكبير الحجم والتفاح والبرقوق والكمثرى والبطيخ، كذلك الدجاج المشوي في لون أحمر، وحجم كبير، وبعض أنواع من عجين أبيض يتهافت القوم على التهامه، وعجبت لرخص المبيعات؛ إذ كانت الدجاجة الكبيرة تباع بقرش واحد. وكانت غالب السهول حول القطار غارقة في لجة تحصر المياه بيوتها وقراها التي كانت تبدو وكأنها الجزائر الصغيرة. غدر بتلك المسائح الشاسعة نهر اليانج تسي هذا العام، فأغرقها فأضحى الملايين بدون مأوى. وكنا نمر عليهم يتزاحمون بفلول متاعهم إلى الجسور وجوانب المحاط في شكل يؤلم الفؤاد. وقد فتحت الحكومة لهم اعتمادًا بثلاثين مليون جنيه للإنفاق على أعمال الإنقاذ، وقد أضحى اليانج تسي إلى ٦٠٠ ميل من مصبه بحرًا خِضَمًّا لا شاطئ له. وقد أصاب أبلغ الضرر منطقة هانكاو؛ حيث علا الماء ٥٢ قدمًا، ويقال: إن فيضه هذا العام لم يقع مثله منذ خمسين سنة.

وصلنا بوكاو فبدت مدينة أشبه بمدن المراكز عندنا، ثم أقلتنا السابحة عبر اليانج تسي الخضم المائج بمائه الدافق العكر، واتساعه الذي يفوق النيل بكثير، ورسونا على ضفته الجنوبية في نانكنج القديمة. وما كدنا نبرح السابحة حتى بدت صفوف الركشا وهي غارقة وسط الماء إلى نصف ارتفاعها، وأنَّى لي أن أصف لك موقفي وأنا أركب الركشا يجرها رجل يخوض في الماء إلى وسطه، وهي تتمايل يمنةً ويسرةً في اضطراب مخيف، ورشاش الماء لا بل وموجه يضرب في أقدامي وحقائبي، حتى أتلف لي منها الكثير. ولبثنا نجوب شوارع المدينة على هذا النحو والمياه تكسو الطابق الأول من الدُّور والحوانيت إلى نصف قامة الرجل؛ بل ويزيد. والمدهش أنها كانت مفتحة وحركة البيع والشراء قائمة في نشاطها العادي، والناس يروحون ويغدون خوضًا وهم مستسلمون لقسوة اليانج تسي، وبعد أن اجتزتُ سور المدينة القديمة قصدت نانكنج الحديثة — ومعناها العاصمة الجنوبية — وهي عاصمة فاخرة تكاد تشبه شنغهاي؛ قسم كبير منها أوروبي. ولعل أجمل ما بها مدفن الدكتور سن؛ بطل الجمهورية ومعبود الوطنيين؛ فهو يقوم في بناء من رخام تأخذ روعته بالألباب، على أن القوم كانوا يحرمون التصوير هناك بتاتًا، ولم أدرِ الحكمة في ذلك.

ومن آثارها القديمة القيمة برج من خزف أبيض «باجودا» جميل، ثم دار الامتحان التي كانت تتسع لعشرين ألف طالب، وحائط المدينة الذي يتصل بالحائط القديم.

الدكتور «سن يات سن» زعيم النهضة الوطنية.

إلى شنغهاي (ومعناها على البحر): قمت إليها فوصلها القطار في ثمان ساعات، وتلك هي المرة الثانية التي أزورها؛ لأني حللتها أولًا بطريق البحر في طريقي إلى اليابان، وقد رست السفينة بها ثلاثة أيام، وأذكر أن السفينة ظلت خارج الميناء طويلًا تنتظر ارتفاع المد، فبدا على بعد إلى يميننا مصب يانج تسي الذي يخاله المرء بحرًا لا تستبين شواطئه، وتبدو أمامه جزيرة مستطيلة وسط مائه العكر الذي كان يحكي ماء النيل إبان الفيض. بعد ذلك دخلت السفينة فرعًا يتصل به من الجنوب اسمه هوانج بو، وهو وحده يفوق النيل اتساعًا، وقد أقيمت أرصفة الميناء على ضفتيه مسافة قطعتها السفينة في ساعتين، وهو يلاقي اليانج تسي وراء شنغهاي بنحو ١٣ ميلًا. أما الميناء فصاخبة تكاد تغص بجماهير السفن على اختلاف حجومها وجنسياتها. وقد أذكرتني في منظرها العام بثغر روتردام تمامًا، ومشهدها ونحن مقبلون عليها يحكي بلاد مصر في انبساط السطح الذي لا تكاد ترى للربى فيه من أثر، إلى ذلك الخضرة النضرة التي تمتد إلى الآفاق.

بدأت جولاتي في الأحياء الأفرنجية ودوائر النفوذ الأجنبي، وهي قسمان رئيسيان: القسم الفرنسي French Concession، والبوند أو شارع البحر، الذي يشمل غالب الجاليات الأجنبية. وأكبر الجاليات الأجنبية هناك اليابانيون، ثم الروس، ثم الإنجليز والفرنسيون. وتلك الأحياء عظيمة، رائعة البناء، بالغة النظافة والتنسيق، تحكي أكبر المدن الأوروبية، بل تزيد حسنًا. ولعل أكبر الشوارع «نانكين رود» وشارع «جوفر» والبوند، وهي مراكز الحركة التجارية والمالية. وكنت أرى البوليس هنا من أجناس عدة؛ الهنود في الأحياء الإنجليزية، ثم الفرنسيون في الفرنسية وهكذا، على أن البوليس الصيني كان يجانبهم دائمًا. والحركة في الطرق تسير على أحدث النظم التي في باريس ولندن، ووسائل النقل متعددة، وجلها في أيدي الأجانب من ترام وأوتوبيس ذي طابقين. هذا إلى الركشا التي تملأ الآفاق. أما «التاكسي» ففي حظائر خاصة، وعليك أن تسير إليها طلبًا للسيارة إن أردتها. وترى في أرصفة الميناء في قبالة تلك الطرق الرئيسية البوارج الحربية لكافة الدول الأجنبية. وهذا لا شك مما يجرح كرامة الصين، وتتألم له كثيرًا. والحكومة الجمهورية القومية جادة في التخلص منها، ومن دوائر النفوذ الأجنبي وامتيازاتها، وإن كان الأجانب يرمون الصين بعدم الكفاءة في مباشرة ذلك بنفسها.

قصدت الأحياء الوطنية من شنغهاي، وهي بقايا المدينة القديمة المسوَّرة، ولن أستطيع أن أصور مبلغ سروري واغتباطي وأنا أسير بين أزقتها التي تحكي خان الخليلي عندنا، وتكاد تختنق بلوحات الإعلان المتلاصقة تزينها بقع ملونة من الخط الصيني الواحدة تحت الأخرى. وهناك تعرض مصورات البلاد الفنية من تصوير وخرط وترصيع وخيزران، ونحاس زخرفي، ومصابيح من ورق صيني ملون، وفي كل تلك الطرق ترى الجماهير الدافقة متلاصقة متكاتفة في مظهرهم الصيني البحت؛ عيون منتفخة، وخدود ناتئة، وأنوف نصف فطساء، وأفكاك بارزة، وقامات قصيرة، وشعر أسود حالك هادل. أما الهندام فللأغنياء والمتوسطين متشابه، وكذلك للرجال والنساء، وإن كان هندام الرجال أكثر جاذبية. والرداء قطعتان: سروال يربط فوق العرقوبين، وهو للنساء أقصر قليلًا؛ لكي يظهر جمال الأقدام الصغيرة المشوَّهة! ويعلوه شبه جمازة (جاكتة) قصيرة، وفوق هذين جلباب فضفاض طويل الأكمام مفتوح من جانبيه إلى ما تحت الساعد، ويشتبك طرفاه بالأزرار، وله ياقة عالية تأخذ بمخنقهم رجالًا ونساءً، ويغلب أن يكون من حرير ثمين للأغنياء، وتطوى أطراف الأكمام لتقوم مقام الجيوب، وإلا حمل أشياءه في منديل قد يتبعه به خادمه. أما الأحذية فمن قماش لا يقي القدمين شر الرطوبة. ولعلها اختيرت كذلك لكيلا تشجع على

المشي الذي يعدونه عيبًا يُلجئهم إليه العوز! وغطاء الرأس قلنسوة من حرير. أما الفقراء فرداؤهم كأنه البيجاما الفضفاضة من قماش أسود لامع كالجلد، وقبعاتهم كأنها أطباق الخوص المخروطية المسننة.

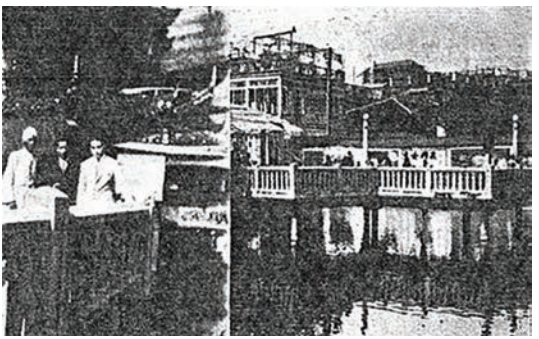

في ناحية من مقصف الشاي في شنغهاي وإلى اليمين قنطرته الملتوية.

دخلنا مقصف الشاي المشهور عند الإفرنج — يرجع إلى خمسة قرون مضت — وهو مجموعة من مقاصير الخشب تكسوها السقوف الصينية بأركانها المدببة تتقوس إلى السماء، وهو يقع وسط بحيرة شاسعة نصل إليه بقناطر تسير في خطوط متكسرة إلى اليمين واليسار؛ لكي تدفع عنهم غوائل الجن الذين كانوا — ولا يزالون — يخشونه كثيرًا! والمقصف غاصٌّ بالحركة، مائج بالناس، وهم منكبون على تناول الشاي الصيني الأخضر، ولا أثر للسكر فيه. جلسنا وشربنا ذلك الشاي الذي استمتعنا به وبتلك الجلسة، رغم أن المكان تعوزه النظافة. هنا شعرنا بالحياة الصينية التي تغاير حياتنا في مصر كلَّ المغايرة.

وإلى مقربة منه زُرنا معبدين: أحدهما لبوذا، والآخر لكنفوشيوس، وهي مظلمة الداخل تضاء بها مئات القناديل، ويطلق البخور حول تماثيل بوذا تحفها تماثيل حفظته من المردة والتنين؛ شعار البلاد. وقد أحرق القسيس لأجلنا سلسلة من أوراق مالية زائفة؛ فداءً للآلهة! ثم أطلق حزمة من بخور، وناولنا إحداها تبركًا؛ لأنها تطيل العمر وتسعد الطالع! ورأينا هناك امرأة تصلي للتمثال وهي راكعة، وراحتاها متلاصقتان تشير بهما إلى الآلهة وتعود فتضمهما إلى صدرها، وتسجد مرارًا وهي تتمتم! وهناك مقصورة يؤمها النساء اليائسات من الحمل كي ينفك عقمهن!

سيدة من «المانشو» في الزي الصيني.

ثم انتقلنا إلى حديقة الماندرين؛ أحد الحكام الأقدمين، يتوسطها قصره في الخرط الصيني العجيب، وبه مقصورة للاستقبال، وأخرى للمائدة بجانبها مقعد لتدخين الأفيون الذي كان أساسًا في كل بيت، وثالثة للنوم، وكثير غيرها، كلها تقوم وسط النقائع تغص بالسمك الملون، والصخور المنثورة وكأنها الجنادل والمنحدرات إلى شجر مزهر جميل؛ مما يدل على حياة البذخ التي عاشها أولئك الجبابرة. وفي خارج المدينة تقوم «باجودا» هائلة في طبقات سبع لا تزال من آيات الصين القديمة.

وشنغهاي أثناء الليل تبهر النظر، وتثير الدهش من عدة وجوه؛ فالأضواء والثريات ذوات الألوان الخاطفة تظل مشرقة وضاءة طوال الليل وهي في إشراق كبير؛ فواجهات الأبنية الضخمة تنقشها تلك الثريات في أشكال هندسية متباينة حتى في طرقاتها المختنقة. وعجيب أن تظل الحوانيت مفتحة وحركة البيع والشراء قائمة إلى ساعة متأخرة من الليل قد تكون الثانية عشرة. أما الجماهير الدافقة من كل صوب في كثافة تعيق السير في كل

أمام حجرة «تدخين الأفيون» في القصر القديم لحاكم شنغهاي.

الطرقات، فذاك أمر لم أره في بلد قط حتى ولا في باريس نفسها، وكان يخيل إليَّ أن رواد الشوارع ليلًا أكثف منهم نهارًا، رغم شدة التزاحم في المدينة صباح مساء، وكلهم سائرون وكأنهم البحر المائج. وقد لبثت أجوب تلك الأنحاء إلى الثانية صباحًا ولَمَّا تخف كثافة الجماهير. أما ابتذال النساء فحدث عنه؛ فهو يبدو في شكل مروع بين أجنبيات — وبخاصة الروسيات — ووطنيات. كل تلك المظاهر جعلتني أفهم أن للقوم الحق أن يطلقوا على شنغهاي اسم «باريس الشرق»؛ فهي تفوق في ذلك «باريس الغرب». ويلفت النظر، بوجه خاص، ميلُهم جميعًا للاختلاف إلى المراقص التي لا تحصى بين أجنبي وصيني. وقد دخلت مرقصًا صينيًّا، وهنا تجلى التناقض التام والتصادم بين القديم والحديث؛ فالموسيقى تدق أنغامًا أوروبية، والصينيون يخاصرون الصينيات، ويعاقرون الخمر وهم يلبسون جلابيبهم الفضفاضة التي تحكي «القفطان». فصوِّر لنفسك منظر شيخ معمم يخاصر غادة ويراقصها! وهؤلاء هم بالطبع النشء الثائر على الرجعية القديمة. ولو أني أرى في ذلك كثيرًا من التطرف الممقوت. ويظهر أن عدوى الأجانب، وبخاصة إباحيي روسيا

من جهة، والحروب الأهلية التي بدأت منذ زمان بعيد، هذا إلى تذوق شعب رجعي عتيق لحرية العصر الجمهوري؛ كل ذلك كان سبب ذاك الاندفاع الشائن في تيار المجون.

مثل من الأبراج الصينية الفاخرة في شنغهاي.

ومن الأندية الكبيرة التي تجمع بين الألعاب الرياضية والمراهنات — تلك التي يتكالب عليها أهل الصين بمختلف أنواعها — مكان اسمه «أوديتوريوم»، لشاب أرمني الأصل مصري الجنسية، يدر عليه ربحًا طائلًا. وهو يوظف فيه جمهورًا كبيرًا من هواة الرياضة. وقد حذا حذوه كثير من المصريين أصحابه. وما كنت أتوقع أن أسمع عن مصري يغامر بنفسه وماله في مثل تلك المنشآت في أقاصي الأرض. وهذا الشاب «هايج أسديان» مهذب مثقف، كان من أساطين الرياضة في مصر، وظل زمانًا بطل الملاكمة عندنا، وهو من كبار مشجعي الحركة الرياضية اسمه يرن في أرجاء شنغهاي، ويعرفه الجميع؛ مما جعلني فخورًا أن من المصريين من بدأ يطلب العمل ولو في الصين.

الأضواء الخاطفة ليلًا في شوارع شنغهاي (باريس الشرق).

أما قيمة شنغهاي التجارية فعظيمة؛ فهي العاصمة التجارية للصين، والمصرف الطبيعي لغلات اليانج تسي؛ أغنى أحواض الصين وأكثفها سكانًا، ويزيد عدد قاطنيها على مليون ونصف، وهي بلدة حديثة العهد؛ إذ كانت قبل سنة ١٨٤٢ مرسًى صغيرًا لخفاف الزوارق، على أن مرفأها عرضة لأن تطمره الرواسب من النهرين؛ لذلك تطلبت التطهير على الدوام. وقد كابدت باخرتنا طويلًا من قلة العمق حتى أمنت الوقوف على الشاطئ. وقد أقام القوم سدًّا عند تلاقي النهرين؛ كي يحول جزءًا من تيار يانج تسي ورواسبه الكثيفة إلى البحر مباشرةً، بدل أن يسيل إلى هوانج بو فيسدَّ الميناء.

وقد كنت ألمس الكساد التجاري من أثر الأزمة الحالية؛ إذ كانت المبيعات تعرض بكافة الطرق وبأثمان بخسة. خذ مثلًا الحرير الذي كان يباع المتر من أنواعه الجيدة الجذابة بما بين خمسة قروش وعشرة! ومما زاد الأزمة سوءًا هنالك إهمال الزراعة في

السنوات الأخيرة، وهي مورد تسعين في المائة من الناس؛ لأن المنتجين أصبحوا غير آمنين على إنتاجهم فآثروا إهمال الأراضي، إلى ذلك كثرة طغيان مياه الأنهار، وتوالي القحط، ونزول سعر الفضة؛ وهي أساس عملة الصين، وبخاصة بعد أن فكرت الهند في العدول عنها إلى الذهب، فباعت مقادير كبيرة منها للصين، فكان ذلك من أسباب انحطاط سعرها هناك. يضاف إلى ذلك الأثر السيئ للحرب الأهلية التي أثقلت كاهل البلاد بالنفقات، ودعت إلى إهمال الإنتاج. وزاد الحالةَ سوءًا عدمُ اطمئنان السراة على أموالهم؛ لذلك نقلوها إلى بلاد الشواطئ فتكدست هناك. كذلك أوقف المولون الأجانب إرسال فوائد أموالهم إلى بلادهم؛ لكيلا يخسروا فرق التبادل المالي بسبب نزول قيمة النقد الصيني. كل ذلك زاد في تكديس الأموال فانحطت الفائدة، وضوعف نزول قيمة النقود الفضية، حتى كان الريال يساوي أربعة قروش ونصف.

إلى هنج كنج (ومعناها النهر العطر): قُمنا مودِّعين شنغهاي؛ تلك البلدة التي يسميها بعض الأجانب بحق «مدينة الشيطان» أو «مدينة الهوى»؛ لما حوت من مختلف الملاهي وشائن المفاسد إلى الجلبة والضوضاء التي لا تخبو ليلًا ولا نهارًا. أقبلت السفينة على هنج كنج في أقلَّ من ثلاثة أيام، وفي صباح اليوم العشرين من أغسطس اكفهرَّ الجو وباغتنا بالوابل، وماج المحيط الهادئ فأوجس الجميع خِيفةً عواصف بحار الصين ذائعة الصيت؛ تلك التي ترفع من مياه البحر عُمُدًا تتصل أطرافها بسحب السماء الدكناء فتعبث بالبحر وما يشقه من سفائنَ. ولقد أبرقنا اللاسلكي في الغداة نبَأَ السفينة التي أدركتْها — بعد أن أفلتْنا نحن منها — إلى الشرق منا على مقربة من جزائر الفلبين فأغرَقتْها. وأمثال تلك العواصف التي يسميها القوم «تيفون» يزيد هبوبها في ذاك الفصل. تجلت هنج كنج في صخرة سامقة كثيرة التعاريج، يوغل البحر فيها بألسن لا حصر لها، تحوطها الربى الخلابة بكثرة نبتها، نُسِّقت على جوانبها الأبنية الفاخرة في مدرجات بديعة، وتعلو كثيرًا من جوانبها الحصون المنيعة، وتقوم المعسكرات العاتية. ويقابل الجزيرة من الجانب الآسيوي حي «كاولون» الذي أُرغمت الصين على تركه للإنجليز، ثم يليه من الداخل إقليم كانتون الصيني. والبوغاز بين الجزيرة والقارة هو المرفأ الممدود عظيم الأرصفة؛ نُظِّمت على جوانبها المراسي وقد زودت بالروافع، والقضبان؛ تنساب فوقها عربات النقل تسهيلًا للتجارة، وحركتها صاخبة لا تخبو قط. وهي تعد من أجمل مين العالم، وأمنعها موقعًا، وأوفرها تجارةً؛ إذ تناهز متاجرها أربعة عشر مليونًا من الأطنان كل عام. وغالب الجانب الآسيوي للوطنيين تقابله المباني الممتازة على مدرجات الرُّبى التي تتألف منها جزيرة هنج كنج

الكبيرة وتوابعها. طُفنا بأرجاء المدينة وكأنها من كبريات بلدان أوروبا بالغة النظام والتنسيق؛ غالب طرقها يعلو في منحدرات قد نصعدها في درجات عديدة اعتلينا أهمها إلى ترام هوائي (فونكلير) إلى ١٢٠٠ قدم، ثم أخذنا نسير صعدًا في طرق ثعبانية سريعة المنحدر تنقلنا من ربوة إلى ربوة. وفي الذروة محطة لاسلكية هامة تحوطها الحديقة التي حوت مجاميع قيِّمة من النبات. وأعلى ذروة في الجزيرة تسمى «جبل فكتوريا». وفي أسفلها يشرف على البحر جمع من تماثيل عظماء الإنجليز، وفي مقدمتها الملكة فكتوريا. وسكان المدينة من الصينيين، وأجناد البوليس من مسلمي الهنود. وفي المدينة عدد كبير من الهنود يقوم بالأعمال الوضيعة؛ كالخدم وحراس المنازل وما إليها. وغالب الصينيين من طبقة الحمالين (الكولي). أما غالب التجار وأصحاب الثروة فمن الأوراسيين، وبخاصة الإنجليز. أذكر أني قصدت مطعمًا فاخرًا ومعي زميلان من مهذبي الهنود: صحافي قدير، وطالب يقصد إتمام تعليمه في أمريكا، وما إن أبصر صبية النزل بالهنود حتى صاحوا يرفضون دخولنا؛ إذ لا يباح دخول الهنود احتقارًا لشأنهم، فخرجنا نجرر أذيالنا، ولم أستحسن تركهما لأتناول الطعام وحيدًا، فقصدنا نزلًا آخر هو أدنى أبهة من الأول، وكدنا نصادف المعارضة بعينها لولا أن ألحفنا فانتحوا بنا ركنًا قصيًّا عن الآكلين؛ كيلا يرانا أحد، واعتذروا لنا بأن لديهم من الأوامر ما يمنع دخول الهنود! فقال زميلي الصحفي وهو يتحسر: أرأيت كيف يعاملنا الأجانب في بلادنا؟! وعيناه تذرفان الدموع.

وجو هنج كنج متوسط الحرارة غزير الأمطار، التي لم تكد تنقطع زهاء الثلاثة الأيام التي أقمتها بها. وإن أَنْسَ لا أنسى منظر الربى الرائع إبان الليل؛ فكأنه برج سماوي بثُرَيَّاته الوضَّاءة تنتشر على جوانبه في غير حصر. وكنا نعجب للكثير من السكان الذين يقطنون زوارقهم حتى قيل إن نحو خمسين ألفًا يعيشون فوق الماء في كانتون وهنج كنج. وفي مؤخر الزورق قبو من خشب أو قماش ينامون فيه ويعدون طعامهم. وترى الأطفال الذين لا يكادون يستقيمون على سوقهم كلٌّ يمسك بسنارته، أو بسلة من شباك الخيط يدلي بها إلى اليم، وسرعان ما يقيمها وبها قنصه من السمك؛ وهو غذاؤهم الرئيسي. وتلك المدينة كسائر بلاد الصين مكتظة بالسكان؛ إذ لا تزيد مساحتها على ٣٥٦ ميلًا مربعًا، لكنها تُؤْوي من السكان ٦٦٢ ألفًا. احتل الإنجليز الجزيرة سنة ١٨٤١، ثم ضمَّت لها منطقة «كولون» سنة ١٨٦٠، وزيدت مساحتها حتى اتصلت بكانتون.

وعجيب أن تُموِّن أرضُها الفقيرة جرانيتية التربة هذه الجموعَ الغفيرة! وعاصمة المستعمرة مدينة فكتوريا التي يطلق عليها اليوم هنج كنج، وسكانها وحدها ٣٤٠ ألفًا

تقف السفينة بنا في مياه هنج كنج ومن ورائنا صخرتها الشهيرة.

تتوجها قمة فكتوريا، وعلوها ١٨٢٠ قدمًا، ويدير حكومتها حاكم عام، ويعاونه مجلس تنفيذي من تسعة، ومجلس تشريعي من أربعة عشر. وللمستعمرة نقودها الخاصة وإن كانت تتبع نظام النقود الفضية؛ ولذلك كان سعر عملتها قد هبط هبوطًا مروعًا كسائر بلاد الصين. وذلك من حظ الزائر الأجنبي؛ لأنه يجد الحياة هناك رخيصة جدًّا، وهنج كنج كلمة معناها الماء العذب أو النهر المُعَطر؛ لكثرة مسايلها الدافقة في خوانقَ متلويةٍ. وكان يسميها البرتغاليون قديمًا «لادرون»؛ أي جزائر اللصوص؛ لما كان لأهلها من سمعة سيئة في القرصنة إذ ذاك.

وهذا هو المكان الوحيد الذي استطاع الفرنسيون أن يدخلوا منه بلاد الإمبراطورية السماوية، كما كانت تسمى الصين من قبلُ؛ تلك التي ظلت محوطة بالأوهام والأسرار

في ميدان فكتوريا بهنج كنج.

والأقاصيص التي زادت البلاد إبهامًا. وكانتون التي تواجه هنج كنج أكثف سكانًا؛ ففيها مليون ونصف. وهنا بدأت ثورة الصين ضد نظمها القديمة، فطُرد حكَّام المانشو وبدأت الجمهورية الحديثة هنا؛ لأن أهلها أقل رجعية من سكان الشمال.

قمت من هنج كنج مودعًا بلاد الصين؛ تلك التي عرفت بشدة تمسُّكها بالقديم؛ إذ يوقنون أن أجدادهم بلغوا الكمال، كما أيَّد كنفوشيوس لهم ذلك؛ فالأسلاف هم المثل العليا عند الصيني؛ لذلك قعد عن التجديد، وخمد عقله، وعجز عن استثمار أرضه الخصبة؛ تلك التي تركت تحت رحمة الفيضانات تارةً، والجفاف أخرى، وأسرف في قطع الغابات حتى عراها عما كان يقيها شر التقلُّبات المناخية هناك. ونظام العائلة هناك يُبنى على الرهبة؛ فالرباط العائلي توثِّقه التقاليد والدين والقانون لحد جعل الإخلاص للعائلة دون غيرها واجبًا. وقد قضى هذا على التعاون بين العائلات، فلم يحدث في تاريخ الصين أن أبناءها تعاونوا مرة على إصلاح بلادهم في أية ناحية؛ ولذلك ثبتوا عند تأخرهم القديم. ولعل أسوأ

تغص أنهارهم وقنواتهم بزوارقهم التي يتخذونها مساكن لهم.

أثر لتلك العزلة وذاك النفور بين العائلات قتل الشعور الوطني؛ إذ لا يضحي الصيني صوالح عائلته الخاصة في سبيل الصالح القومي العام؛ ولهذا لا تعطف مقاطعة هناك على غيرها من جاراتها قط مهما أصابها من نكبات، ولم يؤلفوا جبهة متضامنة ضد المغيرين والمعتدين؛ سواء من الداخل أو من الخارج — وهنا الفرق الرئيسي بينهم وبين اليابانيين — فالعائلة أساسها الأب، وهو شبيه بالإله! سلطته لا تُعارض، حتى لقد كان من حقه بيع أولاده وقتلهم! أما الأم فكَمٌّ مُهملٌ ليس لها على أولادها سلطان، وبخاصة الذكور، حتى شب الولد لا يستمع إلا لأوامر أبيه. أما البنت فمضطهدة بائسة! لذلك لا يسأل الوالد أذكرًا رزقت أم أنثى؛ بل: أدرة أم طينة؟! والزواج هناك مبكر جدًّا، والعزوبة تكاد تكون معدومة؛ لأن البقاء هكذا جريمة اجتماعية في ظنهم، والقاعدة الزواج من واحدة، لكن للزوج الحق في اتخاذ ما شاء من الخليلات على قدر ثروته! فكلما كان غنيًّا فاخَر بكثرة محظياته وبيوته التي ينفق عليها! وكثيرًا ما نرى من السُّراة من يحوذ عشر نسوة، ومن بينهم رئيس الجمهورية الحالي! والزوجة الرسمية يُدفع لها مهر بنسبة ثروتها، ومتوسط المهر مائتان من الجنيهات. وإذا ما دخلت بيت زوجها دفعت مبلغًا مساويًا له، ويتسلم الزوج المبلغين لاستثمارهما. والعادة أن العائلات الكبيرة ترفض أن تعطي فتياتها كخليلات مهما كان مركز الزوج. وأقل ما يُدفع مهرًا للخليلة مائة جنيه. وكنت أعجب من شبانهم حتى المثقفين وهم يتكلمون عن الخليلات وكأنه أمر طبيعي! وبعضهم يؤثرهن على الزوجة؛ لأن فيهن شيئًا من الحرية والتجديد وضمان النسل الكبير! والعادة أن الزوج إذا مات لا تتزوج

أرملته، بل تظل طول حياتها. أما الزوجة فإن ماتت فللزوج أن يتزوج من غيرها! والميراث يقسم بالتساوي بين الذكور من الأبناء، سواءً في ذلك أبناء الزوجة الشرعية والخليلات! أما النساء فلا يرثن إلا إذا أوصى الأب بغير ذلك! والزوجة خادمة لزوجها ولأمه! ولا يتحسن مركزها إلا إذا وضعت ذكرًا، فإن خلفت أنثى فيا ويلها! والمرأة العقيم يجوز طلاقها، وإلا تبنى الرجل أحد أقربائه. ولا يتنزل الزوج فيجلس مع زوجته وأولاده إلى مائدة الطعام! رغم ما لهذا من الأثر في تربية النشء، كذلك لا يجوز أن يأكل الإخوة مع الأخوات إذا بلغوا السابعة! وإذا أحصى رب العائلة أفراد أسرته أهمل عدد الإناث. ونساء الطبقة الراقية محجبات لا يخرجن إلا محمولات على «الكراسي المعلقة». ويخال البعض أن ذلك راجع إلى عادة تصغير الأقدام التي تعيقهم عن السير. وعندما يرزق أحدهم بمولود يُطلق البخور أمام الدار، وتعلق علامة خاصة ثم يدثر الطفل بثياب آبائه لمدة شهر لكي تتسرب إليه فضائلهم، وبعد الشهر يحلق شعره، ويلبس ملابسه الحمراء، ويؤخذ رأي المشعوذين في اختيار طالع سعيد. وعندئذ تقام وليمة يقدَّم فيها النبيذ والبيض المخضب باللون الأحمر إذا كان المولود ذكرًا، وترسل لكل مدعو بيضة حمراء. وعلى المدعوين تقديم الهدايا والنقود. والعجب أن الطبقات الفقيرة التي لا تكفيهم مواردهم أن تمون عائلة كبيرة يتخلصون من بناتهم. وهناك خارج القرية يقوم شبه برج على ربوة يضع الرجل فوقه طفلته ويتركها! فيجيء الآخر ويلقي بها إلى داخل البرج لتموت! ويضع هو طفلته مكانها! وبذلك لا يقتل الرجل بنته بل طفلة غيره وهكذا! وقد اعتاد الخيرون من أصحاب الملاجئ أن يمروا بتلك الأبراج وينقلوا ما يجدون من الأطفال إلى الأديرة لتربيتهن.

والصيني قد خلف فيه فقره وتوالي النكبات عليه الأنانية والفساد والقسوة، وهو يرى في كثرة الموتى بسبب الأوبئة أو النكبات مخففًا لويلاته! وقد علمت أن نسبة الوفيات في الأطفال هناك ٥٠٪، وعدد من هلكوا بسبب الحروب الأهلية الحالية عشرون مليونًا؛ لذلك شذَّ عن الياباني في أنه فقد روح التعاون، اللهم إلا في التجارة؛ تلك التي يحتكرها عدد من الشركات التي يناهز عددها مليونًا ونصفًا، وهي تتفق على تحديد الثمن الأدنى، وتحديد الإنتاج في جميع البلدان. وتحتم النقابة مراعاة الثمن الأدنى. أما الحد الأقصى للثمن فيُترك لمهارة البائع.

وكثيرًا ما يتساءل الناس: كيف لا تفي مساحة الصين الشاسعة التي تعادل مساحة أوروبا بحاجة أهلها، وهي ذات التربة الخصبة، والأنهار العظيمة، والأيدي العاملة المتعددة التي تقدر بربع سكان المعمورة، والكنوز المعدنية الوافرة التي قيل إن الفحم وحده بها

يفوق فحم إنجلترا عشرين مرة؟! كل ذلك ولا تستطيع تلك البلاد تموين أهلها؟! مع أن أوروبا وهي أكثف سكانًا وأصغر مساحةً تمون شعوبها الغنية المعروفة؟! ويظهر أن السبب راجع إلى خمول الصيني، رغم ما عرف عنه من صبر عظيم، فهو ظل متمسكًا بوسائل الإنتاج القديمة في الزراعة، وأضحت بلاده حقلًا للأرز فحسب، مع أنهم أحصوا بالبلاد نحو ١٢ ألف فصيلة نباتية، ولم يُعنَ بالصناعة التي يحتقرها الجميع؛ لأنها عمل يدوي دليل الامتهان لديهم، وهي دعامة النهوض والغنى في أوروبا وأمريكا، واقتنع الملايين منهم بمزاولة مهنة «الكولي» للحمل وجر الأثقال؛ تلك الأيدي التي لو تضافرت على عمل منتج لأتت بالمعجزات، إلى ذلك عنايته بالماضي؛ فهو يبذل كثيرًا على مقابر أجداده ونعش والديه؛ فحياته تفكير مستمر في الموت. وساعد على هذا التأخر نظام الطبقات؛ فالممتازة المحترمة لديهم اثنتان فقط: الحكام، والأدباء! ولا يزال الجاهل يحتقر نفسه ويقدس المتعلمين، وهؤلاء هم الأقلية؛ لذلك فُقد الرأي العام هناك؛ لأن السواد الأعظم هم العامة والجهلة، وانعدمت الطبقات الوسطى رغم أنها خير كابحٍ في البلاد الأخرى لطغيان الطبقة الأرستقراطية؛ لذلك كان لهاتين الطبقتين امتيازات يعترف بها الجميع، وهم يحتقرون العامة، ويترفعون عن محادثتهم! وكثيرًا ما ركب معي أمثال هؤلاء في القطار يحوطهم جمع من الأتباع الذين يخضعون لهم خضوعًا شائنًا، وكانوا يصدرون لهم الأوامر في صيغة الاستعباد الشائن، ويُصعِّرون لهم الخدَّ، ولا يسمحون بابتسامة لأولئك البائسين! ودهشنا مرة لما رأينا أحدهم يمسح لسيده وجهه بقطيلة (فوطة) مبللة، ونحن في القطار وهو لا يكاد يتحرك تِيهًا وعُجبًا! فعلى تلك الطبقات الممتازة تقع مسئولية تدهور البلاد؛ لأنهم بترفُّعهم طوال السنين عاونوا ذاك التأخر الذي أضحى مضرب الأمثال.

هنداوي